

مُحَمَّدُ الْغَنَّازِي

السّنّة النّبويّة

بَيْنَ أَهْلِ الْفَقْهِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ

دار الشروق

المحتويات

| الصفحة | الموضوع |
|--------|--------------------------------|
| ٦ | تهيه |
| ٧ | مقدمة الطبعة السادسة |
| ١١ | مقدمة الكتاب |
| ١٧ | نماذج للرأي .. والرواية |
| ٤٣ | في عالم النساء .. |
| ٤٤ | معركة الحجاب .. !! |
| ٥٢ | المرأة والأسرة والوظائف العامة |
| ٦٦ | حرب شهادة المرأة |
| ٧١ | الغاء |
| ١٠١ | الدين بين العادات والعبادات |
| ١٠٢ | آداب الطعام |
| ١٠٥ | آداب الملبس |
| ١٠٦ | آداب المساكن |
| ١٠٨ | كتاب البيان |
| ١١١ | المس الشيطاني حقيقته وعلاجه |
| ١٢٥ | فقه الكتاب أولاً |
| ١٤٧ | أحاديث الفتن |
| ١٥٩ | وسائل وغaiات |
| ١٦٩ | القدر والجبر |
| ١٨٩ | خاتمة |

تَمْهِيد

بيني وبين معهد الفكر الإسلامي بالولايات المتحدة صلة حميمة ، وكثيرا ما أشارك في ملتقياته وبحوثه ، والمعهد يقوم برسالة حضارية جليلة . فهو يصل ما انقطع من تيار الفكر الإسلامي بعد تنمية المنهج وضبط المسار ، وهو ينظر إلى المعرفة الإنسانية المعاصرة نظرة إنصاف ، فما كان منها نتاج فطرة سليمة قبله . لأن الإسلام دين الفطرة ! ويستحيل أن يتذكر لصحته الأولى ، وما كان ولد هوى وحجاج رفضه ولا كرامة ! فليس بجديد وزن إذا خالف العقل والقلل ...

وقد كلفتني أسرة المعهد أن أضع كتاباً أنصف به السنة النبوية ، وأذود عنها جراءة القاصرين وذوى العقول الكليلة ! والحق أنني رحبت بهذا التكليف بلعله وافق رغبة في نفسي . ومن ثم سارعت إلى التنفيذ ...

ومع عمق الصدقة التي تشدّن إلى الدكتور عبد الحميد أبي سليمان والدكتور طه جابر العلواني (١) والقراءة العقلية التي تجمعنا ، فقد رأيت أن أتحمل وحدى مسؤولية الأحكام التي قررتها ، وأن أواجه ما قد يثور من اعترافات ... !

لذلك أعطيت دار الشروق الطبعة الأولى من هذا الكتاب . راجياً أن أحمى ديننا الحنيف من الأصدقاء الجهلة ، وأن يستعين الناس سعة الرحمة التي بعث الله بها صاحب الرسالة الخاتمة ، قال تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

محمد الغزالي

(١) رؤساء المعهد

مقدمة الطبعة السادسة

فوجئت بصدور خمس طبعات في خمسة شهور من هذا الكتاب ! مما دلَّ على ظُلُمِ القارئِ المسلم إلى العلم النافع والمدرسة الترفيه ..
وافتقت مع الناشر على أن تصدر الطبعة الجديدة وبها زيادات ذات بال ،
انتفعت فيها من تصويبات أهل الذكر الذين حاورتهم أو كتبوا إلىَّ أو سمعت
صوتهم من بعد ..

وقد شتمت بعض الناس فوجدت الإعراض أولى ! ومنْ من الأنبياء لم
يُشَمَّ ؟ فلينتأسِّ أتباعهم بهم في الصير والتجاوز ... !
قالوا : الإله ذو ولد ! قالوا الرسول قد كَهَنَا !
ما نجا الله والرسول معاً من لسان الورى ، فكيف أنا ؟
لكن الشتم الذي أوجعني اتهام البعض لي : بأنَّ أَخْاصِمُ الْسَّنَةِ النَّبِيَّةِ !! .
وأنا أُعلنُ أنَّ الله ورسوله أَحَبَّ إِلَيَّ مَا سواهُمَا ، وأنَّ إِخْلَاصِي لِلْإِسْلَامِ
يَتَجَدَّدُ لَا يَتَبَدَّلُ ، وأنَّهُ أَوْلَى بِأَوْلَكَ الْمُتَحَدِّثِينَ أَنْ يَلْزِمُوا الْفَقْهَ وَالْأَدْبَ ..
فغايتي ترقية السنة مما قد يشوبها ! وغايتي كذلك حماية الثقافة الإسلامية من
ناس قيل فيهم : إنَّهُم يطلبون العلم يوم السبت ، ويدرسُونه يوم الأحد ،
ويعملون أَساتِذَةَ لِهِ يومِ الْأَثْنَيْنِ . أَمَا يومِ الْثَّلَاثَةِ فَيَطَّاولُونَ الْأَمْمَةَ الْكَبَارَ
وَيَقُولُونَ : نَحْنُ رِجَالٌ وَهُمْ رِجَالٌ !! .

وهكذا بين عشية وضحاها يقع زمام المسلمين الثقافي بين أدعية ينظر إليهم
أولو الألباب باستكثار ودهشة .

وإذا كان هؤلاء لم يُرزقا شيئاً يرثونه ، أو أستاذة ينفقونهم فسوف ترثهم الأيام والليالي وما أخلفها بالعجبات .. !! .

وقد رأيت أن أدخل الإضافات الجديدة في مادة الكتاب نفسه ، مشيراً في الهاشم إلى أنها ردود على شبهات ، أو إجابة على تساؤلات .

وأؤكد أنني مع جمهرة الفقهاء والمتحدثين عن الإسلام ، ولست صاحب مذهب شاذ ، بل إنني من صميم الجماعة ومن حمة أهدافها ، وأولو العلم يعرفون ما أعني .

والخطورة تجيء من أنصار متعلمين أو أنصار متدينين يعلو الآن نقיהם في الليل الخيم على العالم الإسلامي ، ويعتمد أعداء الإسلام - في أوروبا وأمريكا - على ضحالة فكرهم في إخراج صحوة جديدة لديننا المكافحة المتخزن بالجرائم ... إن الخصارة التي تحكم العالم مشحونة بالأخطاء والخطايا ، يبد أنها ستبق حاكمة مادام لا يوجد بديل أفضل ! .

هل البديل الأفضل جلباب قصير ولحية كثة ؟ أم عقل أذكي وقلب أدق ، وخلق أذكي وفطرة أسلم وسيرة أحكم ؟ .

لقد نجح بعض الفتيان في قلب شجرة التعاليم الإسلامية فجعلوا الفروع المغشية جذوعاً أو جذوراً ، وجعلوا الأصول المهمة أوراقاً تساقط مع الرياح ! .

وشرف الإسلام أنه يبني النفس على قاعدة « قد أفلح من زكها و قد خاب من دسها » وأنه يربط الاستخلاف في الأرض بعبداً « الذين إن مكثاًهم في الأرض أقاموا الصلاة و آتوا الزكوة و أمروا بالمعروف و نهوا عن المنكر » .

وأنا أتوجه إلى أمراء الجماعات الدينية الأكابر ، وإلى الأوصياء الكبار على تراث السلف أن يراجعوا أنفسهم كي يتمموا بأمررين :
أولها : زيادة التدبر لآيات القرآن الكريم .

وآخرها : توثيق الروابط بين الأحاديث الشريفة ودلالات القرآن الفريدة
والبعيدة ، فلن تقوم دراسة إسلامية مكتملة ومجدية إلا بالأمرتين معا ..
إن الصلف مع العلم رذيلة ، فكيف إذا كان الصلف مع عجز وقصور ؟؟
وهذا الكتاب حصيلة تجربة كثيرة في ميدان الدعوة أردت به ترشيد الصحوة ،
وشنّ أزر العاملين المخلصين .
إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه
أنبأ » .

محمد الغزالى

مُقدِّمة الكتاب

قلبي مع شباب الصحراء الإسلامية الذين عملوا الكثير للإسلام ، ويُتَّهَّمُونَ
منهم أن يعملاً أكثر ..

إنهم اشتُكوا مع الروس في أفغانستان فطُلعوا عليهم بالردى ، واضطُرُّوهُم
إلى الفرار ، ولا يزالون مشتبكين مع قلول المرتدين والخونة ، والمعركة لا يُؤْذَنُ
لليها بصبح قريب ، والمعاناة مستمرة .

وقد اشتُكوا من قبل مع الفرنسيين في الجزائر ، وكانت تصريحاتهم سلا
مواراً بالدماء والأشلاء ، حتى تأذن الله بالفرج ، وانكسرت القيد ، وعادت
صريحات التكبير تنبُّع من المساجد التي غلقت « ومن أظلم من من مساجد الله
أن يذكر فيها اسمه وسعي في خرابها . أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين .
لهم في الدنيا خزي و لهم في الآخرة عذاب عظيم » .^(١)

وعندما كانت معركة فلسطين إسلامية القيادة والوجهة تضاعفت خسائر
اليهود ، واصطدمت أماناتهم بأسوار من حديد . ولو ظلت المعركة على طبيعتها
فترة أخرى لولى اليهود الأدب ، ورجعوا من حيث جاءوا إلى شرق أوروبا أو
غيرها .

لكن المؤامرات العالمية سحبَ الإسلام من المعركة وجعلت العرب يقاتلون
بلا دين فقامت إسرائيل ، ونفخَ أوداجها الغرور ! .

(١) البقرة : ١١٤ .

ثم عاد الإسلام كرهاً أخرى إلى الساحة فإذا انتفاضة جديدة تشعل نار المقاومة ، وتذكر العدو والصديق بأن الإسلام وحده هو النجاـة !

إن قلبي ولبـي مع الصحوة الإسلامية التي تحـالـكـها المؤامـراتـ العـالـيـةـ ،
ويـتـعـرـضـ أـبـطـالـهـاـ إـلـىـ ظـلـمـ بـعـدـ ظـلـمـ وـأـلـمـ بـعـدـ أـلـمـ ...

أـرـيدـ أـنـ أـقـولـ لـلـشـابـ المـكـافـعـ : إنـ تـحـرـيرـ الـأـرـضـ مـنـ مـخـلـيـهـ الـأـجـانـبـ
هـدـفـ عـظـيمـ إـلـاـ أـنـ بـعـضـ مـاـ نـعـمـلـ لـهـ !
إنـ السـيـخـ فـيـ الـقـارـةـ الـهـنـدـيـةـ يـسـعـونـ لـإـقـامـةـ دـوـلـةـ لـلـسـيـخـ !

فـاـ دـوـلـةـ السـيـخـ ؟ وـمـاـ وـزـنـهـ الـإـنـسـانـيـ فـيـ الـأـوـلـيـنـ وـالـآخـرـيـنـ ؟ لـاـشـيـءـ .

إنـ دـوـلـةـ لـلـعـربـ قـدـ تـقـومـ هـنـاـ أـوـ هـنـاكـ بـعـيـدـةـ عـنـ الـدـيـنـ ، فـاـ قـيـمـةـ ذـلـكـ
وـأـثـرـ ؟ إـنـتـاـ طـلـائـعـ الـإـسـلـامـ الـذـيـ يـرـيدـ إـعـلـاءـ الـوـحـيـ الـإـلـهـيـ ، وـإـنـصـافـ الـفـطـرـةـ
الـإـنـسـانـيـ ، وـتـرـشـيدـ الـحـضـارـةـ كـيـ تـرـتـبـطـ بـرـبـهاـ وـتـسـيرـ عـلـىـ هـدـاهـ ...

إنـ تـرـاثـاـ الـذـيـ قـادـ الـعـالـمـ دـهـرـاـ يـحـبـ أـنـ يـهـضـ مـنـ كـبـوـتـهـ ، وـيـسـأـنـفـ
رـسـالـتـهـ ، وـيـغـسـلـ الـأـرـضـ مـنـ أـدـرـانـهـ .

لـذـلـكـ أـنـظـرـ بـاهـتـاـمـ شـدـيدـ إـلـىـ الجـوـ الـفـكـرـىـ الـذـيـ يـسـودـ مـيدـانـ الصـحـوـةـ ،
وـأـتـابـعـ بـقـلـقـ مـدـأـ وـجـزـرـهـ وـخـيـرـهـ وـشـرـهـ ، وـخـطـأـهـ وـصـوـابـهـ ! مـعـتـقـدـاـ أـنـ بـقـدـرـ ماـ
يـقـرـبـ مـنـ الـحـقـ تـسـانـدـ بـرـكـاتـ السـمـاءـ وـخـيـرـاتـ الـأـرـضـ ...

وـقـدـ تـدـارـسـتـ مـعـ أـوـلـىـ الـأـلـبـابـ هـذـاـ الجـوـ الـفـكـرـىـ السـائـدـ . وـاـنـفـقـتـ كـلـمـتـاـ
عـلـىـ ضـرـورـةـ الـتـعـامـلـ مـعـ بـرـفـقـ ، وـاقـتـيـادـهـ إـلـىـ الـطـرـيـقـ الـمـسـتـقـيمـ بـأـنـاـ ..

لـاحـظـاـنـاـ أـنـ الـحـقـاـقـ الـرـئـيـسـيـ فـيـ الـمـهـاجـ الـإـسـلـامـيـ لـاـ تـعـتـلـ الـمـسـاحـةـ الـعـقـلـيـةـ
الـقـرـرـةـ هـاـ ، وـهـذـهـ الـحـقـاـقـ اـفـقـدـنـاـ الـكـثـيرـ مـنـهـاـ فـيـ مـسـيـرـنـاـ التـارـيـخـيـةـ لـاـسـيـاـ فـيـ الـقـرـونـ
الـأـخـرـيـةـ ! .

فـلـوـكـانـتـ أـنـظـمـةـ الـحـكـمـ أـهـدـىـ ، وـعـنـاصـرـ الـحـرـيـةـ وـالـعـدـالـةـ أـقـوىـ ، مـاـكـنـاـ نـسـقـطـ

في براثن الاستعمار الذي اجتاحتنا وكاد يمحو وجودنا ورسالتنا .

ما قيمة نهضة لا تعرف أسباب هزائمها السابقة ؟ .

إن السلطات المستبدة قديماً وحديثاً تسرها الخلافات العلمية التي لا تنتهي !

هل الشك ينقض الوضوء أم لا ؟ هل رؤية الله في الآخرة ممكنة أم ممتنعة ؟ هل قراءة الإمام تكفي عن المصلين أم لا تكفي ؟ .

إن حكام الجحور يتمتنون لو غرق الجمورو في هذه القضايا فلم يخرج ! لكنه يشعر بضرر بالغ عندما يقال : هل الدولة خدمة فرد أم مبدأ ؟ لماذا يكون المال دولة بين بعض الناس ؟ هل يعيش الناس - كما ولدوا - أحراراً أم تستعبدهم سياط الفراعنة حيناً ولقمة الحبز حيناً ؟ .

إن البدوي الذي خاطب الفرس أيام الفتح الأول قال لهم : جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد ..

كان هذا البدوي بفطنته الصادقة يعلم ما هي الحقائق الكبرى في المنهج الإسلامي فيفتح البصائر عليها ..

وقد أوجع قوادى أن بعض الشباب كان يهتم بهذه المسألة : هل لمس المرأة ينقض الوضوء أم لا ؟ .

وكان اهتمامه أحد وأشدّ من إجراء انتخابات حرة أو مزورة ! !

إن عدم سيطرة الحقائق الكبيرة على الوعي الإنساني لا يمكن التغاضي عنه ..

وشيء آخر نريد الحديث عنه ! ما هو المنطق الذي عولمت به القضايا الثانية بعدم استحوذت على الأفكار ... ؟ .

لقد شاعت الأقوال الضعيفة والمذاهب العسرة ، ورجحت الآراء التي كانت مرجوحة أيام الازدهار الثقافي الأول ، حتى وهل الناس أن الإسلام إذا حكم عاد إلى الدنيا التزمت والجمود ! .

قال لي أحد الناس : ماذاكنت تفعل في « أسيوط » عندما تفاجأ بفرقة من المغنين ترید « إحياء » « ليلة خلية » ؟ .

قلت : سأذهب إلى قائد الفرقة وأقول له : نحن نريد سماع كلمات وألحان معينة فهل تلبون رغباتنا ؟ فإذا قال : ماتریدون ؟ طلبت منه أغنية : « أخى جاوز الظالمون المدى فحق الجهاد وحق الفدا » .. !

أو أغنية : ياظالم لك يوم .. !

أما أن تغنى لنا « ليل خمر ... » فسوف نغلق فك أو نخشوه بالزراب !
إن إخواننا يقتلون في ميادين كثيرة ولا نزحب بالسكر والنشوة ومصارع
المجاهدين تتنامي حولنا ..

إتنا نكره الفنون الرقيقة ونطارد الماجنن الذين يشيعون بين الناس الخنونة
والضعف ... ! .

ماذا لو شرحتنا موقف الإسلام بهذا الأسلوب ؟
إن مثليين يعيشون في الأحوال صنعوا لأنفسهم بطولة على أساس أن الإسلام
يمحارب الفن !!

نحن الذين مكنا المهازيل من الدعوى العريضة ، وهم بفنونهم الرخيصة لا
يساونون شيئا ...

وزاد الطين بلة أن قيل للشباب الساذج : نحن لا نريد أقوال الرجال ولا
مناهج الأئمة . نريد الأغزاف مباشرة من الكتاب والسنّة ..

وأنا أكره التعصب المذهبى وأراه قصور فقه ، وقد يكون سوء خلق ..
لكن التقليد المذهبى أقل ضرراً من الاجتهد الصيبياني في فهم الأدلة ..
ويديهي أن تنشأ مشكلات ثقافية واجتماعية من هذا النهج ، وأن تسمع

حدَّثَنَا يَقُولُ : مَالِكُ لَا يَعْرِفُ حَدِيثَ الْاسْفَتَاحِ ، وَلَا سَنَةَ الْاسْتَعَاذَةِ وَلَا يَدْرِكُ
خَطْوَةَ الْبَسْمَةِ ، وَهُوَ يَخْرُجُ مِنَ الصَّلَاةِ دُونَ أَنْ يَتَسَلَّمَ ، فَهُوَ جَاهِلٌ
بِالسَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ .. !!

وَحدَّثَنَا أَخْرُ يَقُولُ : أَبُو حِنْفَةَ لَا يَرْفَعُ يَدِيهِ قَبْلَ الْمَرْكَوْعِ وَلَا بَعْدَهُ وَيَوْصِي
أَنْتَابَهُ أَلَا يَقْرُؤُوا حِرْفًا مِنَ الْقُرْآنِ وَرَاءَ الْإِيمَانِ ، وَرَبِّمَا صَلَّى بَعْدَ لِسْنِ الْمَرْأَةِ . فَهُوَ
يَصْلِي بِلَا وَضُوءٍ
إِنَّهُ هُوَ الْآخِرُ جَاهِلٌ بِالْإِسْلَامِ .. !!

وَيَنْظُرُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى مَسَالِكَ هُؤُلَاءِ الْفَتَيَّةِ فَيَنْكِرُونَهَا وَيَلْعَنُونَهُمْ .. .
وَقَدْ كَانَ عُلَمَاءُ الْأَزْهَرِ الْقَدَامِيُّ أَقْدَرُ النَّاسِ عَلَى عَلَاجِ هَذِهِ الْفَتَنِ . فَهُمْ
يَدْرِسُونَ الْإِسْلَامَ دَرَسَةً تَسْتَوِيْبَ فَكَرِ السَّلْفِ وَالْخَلْفِ وَالْأَمَّةِ الْأَرْبَعَةِ كَمَا
يَدْرِسُونَ الْأَوَانَ الْتَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَمَا تَضَمَّنَ مِنْ أَقْوَالٍ وَآرَاءٍ .. .
لَكِنَّ الْأَزْهَرَ مِنْ ثَلَاثَتِينَ عَامًا أَوْ تَرَبِّيَ يَنْهَا مِنَ النَّاحِيَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْتَّوجِيَّةِ .
وَلَذِكْرِ خَلَا الْطَّرِيقَ لِكُلِّ نَاعِقٍ . وَشَرَعَ أَنْصَافُ وَأَعْشَارُ الْمُتَعَلِّمِينَ يَتَصَدَّرُونَ
الْقَافَلَةَ وَيَشِّرُونَ الْفَتَنَ بِدَلِيلِ إِطْفَائِهَا

وَانْتَشَرَ الْفَقَهُ الْبَدْوِيُّ . وَالنَّصُورُ الْطَّفُولِيُّ لِلْعَقَائِدِ وَالشَّرَائِعِ .
وَقَدْ حَاوَلَتْ فِي كِتَابِي « دَسْتُورُ الْوَحْدَةِ الْثَّقَافِيَّةِ » أَنْ أَقْفَ هَذَا الْأَخْلَادَ ، بِيَدِ
أَنَّ الْأَمْرَ بِحِاجَةِ إِلَى جَهُودٍ مُتَضَافِرَةٍ وَسِيَاسَةٍ عَلْمِيَّةٍ مُحَكَّمَةٍ .. .
وَفِي هَذَا الْكِتَابِ جَرْعَةٌ قَدْ تَكُونُ مَرَةً لِلْفَتَيَّانِ الَّذِينَ يَتَنَاهُلُونَ كَبِ الْأَحَادِيثِ
الْنَّبَوِيَّةِ ثُمَّ يَحْسُبُونَ أَنَّهُمْ أَحَاطُوا بِالْإِسْلَامِ عَلَيْهِ بَعْدَ قِرَاءَةِ عَابِرَةٍ أَوْ عَمِيقَةٍ .
وَلَعِلَّ فِي دَرْسَاتِ شِيَخِي يَحْارِبُونَ الْفَقَهَ الْمَذْهَبِيَّ لِحَسَابِ سَلْفِيَّةٍ مَزْعُومَةٍ عَرَفَتْ
مِنَ الْإِسْلَامِ قَشْوَرَهُ وَنَسِيَتْ جَنْوَرَهُ ؟

وَأَؤْكِدُ أَوْلًا وَآخِرًا أَنِّي مِنَ الْقَافَلَةِ الْكَبْرِيِّ لِلْإِسْلَامِ . هَذِهِ الْقَافَلَةُ الَّتِي يَخْدُوُهَا

الخلفاء الراشدون والأئمة المتبوعون والعلماء المؤثرون ، خلفاً بعد سلف ، ولاحقاً
يدعو لسابق .. يدعوه الله بصلوة قاتلاً : « ربنا اغفر لنا و لا إخواننا الذين سبقونا
بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا . ربنا إينك رءوف رحيم » ^(٢) .

محمد الغزالى

نَازِجُ لِلرِّأْيِ ... وَالرَّوَايَةُ

صحة الحديث وشروطه - هل يتعذر المبت يبكيه أهله
عليه؟ - دائرة الفحاص - تحية المسجد - حديث دنا الجبار
فتيل - تحقيق لعائشة - فنون رعاء - موسى وملك
الموت - متهم بريء - هل نهى النبي حرام؟ - فضل
الشم - ١ - بقعة انطلقة ثلاثة - إكراه انتقامه على الرواج
من تكره

توثيق الأخبار لون من إحقاق الحق وإبطال الباطل . وقد اهتم المسلمون
اهتماماً شديداً بهذا الجانب من المعرفة والاستدلال . لاسيما إذا اتصل الأمر بسيرة
نبיהם وما ينسب إليه من قول أو عمل ...

إن هناك طريقة واحدة لإبرهاء الله سبحانه وتعالى ونبيل محبه . هو اتباع
محمد - صل الله عليه وسلم - واقتفاء آثاره والسير على مсте لقوله تعالى : « قل :
إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ... »^(٢) .

وأمّا . من تاريخ بعيد . تصور التراث النبوى . وتحميّه من الأوهام .
ونعّد الكتب على صاحب الرسالة طريق الخلود في النار ، لأنّه تزوير للدين
وافتراض على الله لقوله صل الله عليه وسلم : « إن كذبنا علىَّ ليس كذبٌ علىَّ أحدٍ ،
من كذب علىَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

وقد وضع علماء السنة خمسة شروط لقبول الأحاديث النبوية : ثلاثة منها
فـ السند . واثنان في المتن :

- ١ - فلا بد في السند من راوٍ واعٍ يضبط ما يسمع ، وبحكمه بعده ثدق طبق
الأصل ...
- ٢ - ومع هذا الوعي الذكي لابد من خلق متين وضمير يتقى الله ويرفض أي
تحريف
- ٣ - وهاتان الصفتان يجب أن يطربا في سلسلة الرواية . فإذا اختلتا في راوٍ أو

(٢) آل عمران : ٣١

اضطربت إحداها فإن الحديث يسقط عن درجة الصحة .
ونظر بعد المسد المقبول إلى المتن الذي جاء به ، أى إلى نص الحديث
نفسه ..
٤ - فيجب ألا يكون شاذًا .
٥ - وألا تكون به علة قادحة .

والمندوذ أن يخالف الرواى الثقة من هو أو ترقى منه .. والعلة القادحة عيب
يصره المحققون في الحديث فيردونه به ..
وهذه الشروط ضمان كاف لدقة النقل وقول الآثار بل لا أعرف في تاريخ
الثقافة الإنسانية نظيراً لهذا التأصيل والتوثيق والمهم هو إحسان التطبيق !
وقد توفر للسنة الحمدية علماء ألو غيرة ونقوى يلغوا بها المدى . وكانت
غريتهم للأسباب مثار الشاء والإعجاب . ثم انضم إليهم الفقهاء في ملاحظة
المتون ، واستبعاد الشاذ والمعلول .

ذلك أن الحكم بسلامة المتن يتطلب علماً بالقرآن الكريم . وإحاطة بدلاته
المقريبة والبعيدة . وعلماً آخر بشئي الروايات المنشورة لإمكان الموازنة والترجيع بين
بعضها وبعض الآخر .

والواقع أن عمل الفقهاء متعم لعمل المحدثين . وحارس للسنة من أى خلل
قد ينسلل إليها عن ذهول أو تساهل ..

إن في السنة متواتراً له حكم القرآن الكريم . وفيها الصحيح المشهور الذي
يفسر العموم والمتصلق في كتاب الله . وفيها حشد كبير من أحكام الفروع التي
اشتغلت بها المذاهب الفقهية بعد ما اتفقت على أن السنة المصدر الثاني
للأحكام .

وقد يصح الحديث سنداً ويضعف متناً بعد اكتشاف الفقهاء لعنة كامنة فيه .

واكتشاف الشذوذ والعلة في متن الحديث ليس حكراً على علماء السنة .
فإذ علماء التفسير والأصول والكلام والفقه مسئولون عن ذلك . بل ربما ربت
مسئوليهم على غيرهم ..

ألم تر إلى ابن حجر شارح صحيح البخاري في كتابه الجليل فتح الباري
الذى قال فيه العلماء بحق لا هجرة بعد الفتح ! ! إن الرجل على صدارته في
علوم السنة قوى حديث الغرائب . وأعطاه إشارة خضراء فرئ بين الناس يفسد
الدين والدنيا . والحديث المذكور من وضع الزنادقة . يدرك ذلك العلماء
الراسخون ! .

وقد أخدع به الشيخ محمد بن عبد الوهاب فجعله في السيرة التي كتبها عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم والشيخ هو منْ هو غبْرَة على عقيدة التوحيد
ودفاعاً عنها ..

ثم جاء الوغد الهندى سلَان رشدى فأعتمد على هذا الحديث المكذوب في
تسمية روايته «آيات شيطانية ! » .

أليس من حق علماء الكلام والفقه والتفسير أن يخربوا هذا القذى ؟ بل
إن حرس السنة الصحيحة رفضوا هذا الحديث المخمور ..

وفي هذه الأيام صدر تصحیح من الشيخ الألبانى لحديث « لحم البقر
داء » وكل متذر للقرآن الكريم يدرك أن الحديث لا قيمة له . منها كان
سنده ! .

إن الله تعالى في موضعين من كتابه أباح لحم البقر وامتنَ به على الناس
فكيف يكون داء ؟ .

ففي سورة الأنعام يقول « ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله
ولا تتبعوا خطوات الشيطان إيه لكم عدو مبين » ثم يفصل ما أباح أكله
فيقول : « ثمانية أزواج من الصنادل اثنين ومن الماعز اثنين » ثم يقول : « ومن

الإبل اثنين ومن البقر اثنين .. » فأين موضع الداء في هذه اللحوم المباحة على
سواء؟ .

وفي سورة الحج يقول « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله . لكم فيها
خير . فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا
القانع والمعتر . كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرنون » .
والبدن هي الإبل والبقر والجاموس ! فأين الداء فيها؟ .

عيوب بعض الذين يشغلون بالحديث قصورهم في تدبر القرآن وفقه
أحكامه فلم يغوروا مع هذا القصور ؟ وماذا يستكثرون على غيرهم من رجال
ال الفكر الإسلامي الرحب أن يكتشفوا علة هنا أو شذوذًا هناك ! .

إن التعاون في ضبط التراث النبوى مطلوب ، ومن الحديث قد يتناول
عقائد وعبادات ومعاملات يشغله بها علماء المعقول والمنقول جمیعاً وقد
يتناول الحديث شئون الدعوة وال الحرب والسلام . فلماذا يحرم علماء هذه
الآفاق المهمة من النظر في المنون المزورة ؟ .. وما قيمة حديث صحيح السندي
عليه المتن؟ .

على أن هناكآلافاً من الأحاديث الخالية من العلل والشذوذ ثم تسجيلها
في دواوين أنسة . فإذا بقى نزير يسرّتعاون في ضبطه الفقهاء والحدثون كذلك
غير وأوف ..

وفي عصرنا ظهر فتىان سوء يتصالبون على أمّة الفقه باسم الدفاع عن الحديث
النبوى . مع أن الفقهاء ما حادوا عن السنة . ولا استهانوا بحديث صحت نسبته
وسلم منته وكل ما فعلوه أنهم اكتشفوا عللاً في بعض الروايات فردوها - وفق
المنهج العلمي المدروس - وأرشدوا الأمة إلى ما هو أصدق قيلاً وأهدى سيلًا ...

وهم بهذه النتيجة يتأنسون بالصحابة والتابعين . انظر موقف عائشة رضي الله
عنها عندما سمعت حديث إن الميت يذب بكاء أهله عليه ! لقد أنكرته .
وحلفت أن الرسول ما قاله . وقالت - بياناً لرفضها إياها - « أين منكم قول الله

سبحانه « لاترر وازرة وزر أخرى » (١)

إنها ترد ما يخالف القرآن ببرأة وثقة ، ومع ذلك فإن هذا الحديث المروض من عائشة ما يزال مثبتا في الصحاح بل إن « ابن سعد » في طبقاته الكبرى كرره في بضعة أسانيد !

قال : أخبرنا ثابت عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب لما طعن عولت حفصة . فقال : ياحفصة أما سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول إن المعلول عليه يعذب ؟ قال وعول صحيب فقال عمر : ياصهيب أما علمت أن المعلول عليه يعذب ؟

وقال : أخبرنا ابن عون عن محمد قال : لما أصيب عمر حمل فأدخل ف قال صحيب : وألأهاء !

قال عمر : ويحلك ياصهيب أما علمت أن المعلول عليه يعذب ؟
وقال : أخبرنا أبو عقيل قال : أخبرنا محمد بن سيرين قال : ألم عمر بن الخطاب بشراب حين طعن فخرج من جراحته . فقال صحيب : واعمرهه وألأهاء ، من لنا بعده ؟

قال له عمر : مه يألاهى أما شعرت أنه من يعول عليه يعذب ؟
وقال : أخبرنا عبد الله بن عمرو عن عبد الملك بن عمير عن أبي بردة عن أبيه قال : لما طعن عمر أقبل صحيب يبكي رافعا صوره . فقال عمر : أعلى ؟
قال : نعم . قال عمر : أما علمت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :
من يبك عليه يعذب ؟

قال عبد الملك : فحدثني موسى بن طالب عن عائشة أنها قالت : أولئك
الذين يعذب أموالهم يبكيه أحبابهم . هم الكفار

(١) الأنعام : ١٦٤

والذى تؤكده عائشة أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال : إن الكافر
يُعذب ببكاء أهله عليه ..

فعن ابن أبي مليكة قال : توفيت ابنة لعثمان رضى الله عنه بمحنة . وجئنا
لتشهد لها وحضرها ابن عمر وابن عباس رضى الله عنها وإلى مجلس ينتها ..

فقال عبد الله بن عمر لعمرو بن عثمان : ألا تنهى النساء عن البكاء ؟ فإن
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال « إن الميت ليُعذب ببكاء أهله عليه ». قال
ابن عباس : قد كان عمر يقول بعض ذلك فلما مات عمر ذكرت ذلك
لعائشة . فقالت : رحم الله عمر ! والله ما حذث رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - أن الميت بعدَ ببكاء أهله عليه . ونَكَرَ رسول الله قال : « إن الله ليزيد
الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه ». .

وقالت : حسبكم القرآن « ولا تزر وازرة وزر أخرى »

قال ابن عباس عند ذلك : والله هو أضحك وأبكي - يعني أن بكاء
الراحلين طبع لا حرج فيه ولا تثريب عليه - قال ابن أبي مليكة : والله ما قال ابن
عمر شيئاً !!

وماذا يقول ؟ إن الخصُّ غير مستبعد على رأي ولو كان في جلالة ابن عمر ..
وعندى أن ذلك النسلك الذى سلكه أم المؤمنين أساس لحاكمية
الصالح إلى نصوص الكتاب الكريم . الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه
ولا من خلفه ..

من أجل ذلك كان أممُ الفقه الإسلامي يقررون الأحكام وفق اجتهاد
رَبِّ ، يعتمد على القرآن أولاً ، فإذا وجدوا في ركام المرويات ما يتسق معه
قبلوه ، وإنما فالقرآن أول بالاتباع .

رد البعض على هذا كله بأن معنى تعذيب الميت ببكاء أهله عليه أن الميت

يتعذب أى يتألم . لا أن الله يعذبه ! وهو تأويل لطيف ، وإذا قبلناه لم يختلف الحديث مع الكتاب الكريم ! ولكن دون هذا التأويل صعوبات : منها أن عائشة تحلف أن رسول الله صل الله عليه وسلم قال : إن الله ليزيد الكافر عذاب بكاء أهله عليه ، ولم يذكر المؤمن ! .

وقد يقال : ولماذا يعذب الكافر بما لم يقترف ؟ أليس ذلك ظلما ؟ والجواب في قوله تعالى « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيمة ومن أوزار الذين يضللونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون » وما يزداد في عذاب الكافر لأنه سبب في إضلال غيره .

والقول بأن المؤمن يتأنم بعد موته بكاء أهله مخالف للآية « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنتزع عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تخزنوا . وأبشروا بالحسنة التي كنتم توعدون » روى ابن كثير أن ذلك عند الموت ، ونقل عن زيد ابن أسلم : « يبشرونه عند موته ، وف قبره . وحين يبعث » وعلق على ذلك مار هذا القول يجمع الأقوال كلها . وهو حسن جدا ، وهو الواقع ! فلما يتعذب والحالة هذه ؟ إن الله مطمئنه على ماترك ، وما سيلقي .

وقد بشر الله الشهداء بأن من تركوه سوف يلتحقون به في خير ، ويستبشرون بالذين لم ينحقو بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يخزنون » ...

إننا لا نخوض على تضليل حديث يمكّن تضليله . وإنما نخوض على أن بعض الحديث داخل سباح من دلالات القرآن القرية أو البعيدة .

وحيث أن الآحاد يفقد صحته بالشذوذ والعلة القاتحة ، وإن صحة سنته .

فأبو حنيفة يرى أن من قاتلنا من أفراد الكفار قاتلناه . فإن قتل قاتل حيث ألقته ، أما من له ذمة وعهد قاتلته يقتضي منه .

ومن ثم رفض حديث لا يقتل مسلم في كافر . مع صحة سنته ، لأن المتن

معلول بمخالفته للنص القرآني «النفس بالنفس»^(٥) وقول الله بعد ذلك
«فاحكم بينهم بما أنزل الله»^(٦)
وقوله «أفحكم الجاهلية يبغون»^(٧)؟

وعند التأمل نرى الفقه الحنفي أدى إلى العدالة ، وإلى مواثيق حقوق
الإنسان ، وإلى احترام النفس البشرية دون نظر إلى البياض والسوداد ، أو الحرية
والعبودية ، أو الكفر والإيمان .

لو قتل فيلسوف ، كاتس طريق ، قتل فيه ! فالنفس بالنفس .. !!

وقد باغتة التعامل مع مخالفتنا في الدين ومشاركتنا في المجتمع أن لهم ما لنا
وعليهم ما علينا ، فكيف يهدى دم قتيلهم ؟

وقد يلغى أن بدويًا قتل مهندسًا أمريكيًا في أحدى دول الخليج . وقال أهل
الحديث لا يجوز القصاص ! وشعرت الحكومة بالحرج ، ولكن تم الخروج من
المأزق بقتل الجرم من باب السياسة الشرعية !

القصاص شريعة الله . وهو ظاهر القرآن الكريم . والأحناف يقدمون ظاهر
القرآن على حديث الآحاد . والمالكيون يقدمون عمل أهل المدينة على حديث
الآحاد باعتبار أن عمل أهل المدينة أدل على السنة النبوة من حديث راوٍ واحد .

وقد أمضى مالك القصاص للفرع من الأصل ، إذا كان الأب القاتل قد
أقدم على الجريمة عامدًا مصراً مغتala . وترك الحديث الوارد يمنع هذا القصاص
مع صحة سنده ..

وأهل الحديث يحملون دية المرأة على النصف من دية الرجل . وهذه مسوأة
فكريّة وخلقية رفضها الفقهاء المحققون ! .

فالدّيّة في القرآن واحدة للرجل والمرأة . والزعم بأن دم المرأة أرخص .

وحقها أهون زعم كاذب مخالف لظاهر الكتاب .

إن الرجل يقتل في المرأة كما تقتل المرأة في الرجل ، فدمها سواء باتفاق ،
لما الذي يجعل دية دون دية ؟ .

سُكِّتَ في مجلس مع أستاذنا مصطفى الزرقا ، فقال لي : إن الدية تعويض
عن مفقود ! وفي العرض يلاحظ التكافف وقتل الرجل خسارة للأسرة أشد
من مقتل المرأة . والفقهاء لم يفكروا قط في إهانة المرأة مادياً أو أديباً ، وإنما
نظرُوا في قيمة العوض المطلوب ! .

ثم قال : إن القوانين الغربية لم تسوّ بين المرأة والرجل في أجر العمل . ولم
تسوّ بينهما في تصرفات مالية شني . إنما سوت بينهما في فرص الملاحة الحرام
والحلال !! .

وقال الأستاذ معروف الدوالبي : إنه عندما كان يشارك في وضع القوانين
في باكستان على أساس الشريعة الإسلامية سوّى في الدية بين الرجل والمرأة .
إيثاراً للرأي القائل بذلك . واستثنى مسلك عثمان بن عفان الذي أكمل دية
الذميّ وكانت على النصف من دية المسلم ...

قال : رأينا أن نسدّ الطريق على من يهمنون الإسلام بانتهاص مكانة
المرأة .

وفي مسلك الخليفة الراشد الثالث ما يدل على إمكان التغيير إذا تغيرت
الأوضاع . ويبدو أن أهل الذمة اندرجوا في المجتمع الإسلامي عن إخلاص .
رأى عثمان طمأنتهم على مكانتهم بتعزيز دياتهم !! .

على أن الفقه الحنفي يسوّي في الدماء والديات بين الجميع ...

وقد فكرت في السبب الذي جعل الأحناف والمالكية يكرهون تحية المسجد
والإمام يخطب مع ورود حديث بطلب هذه التحية !

وبعد تأمل يسير رأيت أن خطبة الجمعة شرعت بعد الهجرة ، وظل المسلمون

يصلون الجمع وراء النبي - عليه الصلاة والسلام - عشر سنين ! أى أن هناك نحو
خمسين خطبة ألقىت خلال هذه المدة . فلأين هي ؟
إن المحدثين لم يحملوا تسجيل كلمة عابرة ، أو فتوى خاصة ، أو إجابة
لسائل ، فكيف تركوا هذه الخطب ؟ .

كل ما دونه بعض خطب لا تبلغ أصابع اليد !

الواقع أن النبي - عليه الصلاة والسلام - كان يخطب الناس بالقرآن
ال الكريم . وعندما يكون على منبره أو في محراه يتلو كتابه . فعل الجميع الصمت
والتدبر .

يستحب أن يشغل عنه أحد بقراءة أو بصلة !

كذلك جاء التوجيه الإلهي ، وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم
ترحون ،^(٨) إن رب العالمين يستمع إلى نبيه وهو يقرأ كما جاء في الحديث
الشريف « ما أذن الله لشيء أذنه لنبي يقرأ القرآن يتعين به » . فكيف يتضليل عن
الناس ؟ .

كانت السنة إذن هي الاستماع للخطب ، وما جاء في حديث الأمر بتحية
المسجد كان حالة خاصة بالرجل المذكور ، وظلت السنة العملية تمنع الكلام
والصلاة في أثناء الخطبة . بل إن مالكا أبطل هذه الصلاة . وما أظن صاحب
الموطأ يهم بمعاداة سنة ثابتة .

وندع قضية الخطب فيها سهل ، إلى قضية علمية مهمة لها وزنها ، ولا نحب
أن نجعل منها قضية عقائدية .

من الذى نزل بالقرآن الكريم على صاحب الرسالة العظمى محمد بن
عبد الله ؟ .

(٨) الأعراف : ٢٠٤

يقول المسلمون خاصتهم وعامتهم إنه أمن الوحي جبريل ! وليس هذا القول وليد إشاعة لا يدرى مصدرها ! بل هو قول مستند إلى المتأثر من الكتاب والسنة جمِيعاً ..

وأذكر هنا خمسة مواضع في القرآن الكريم تؤيد هذه الحقيقة

١ - « قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وشرى للمؤمنين »^(١) الآية واضحة الدلاله

٢ - « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ، ليثبت الذين آمنوا وهدى وشرى للMuslimين »^(٢) وروح القدس هو جبريل ، وهو عبد الله وليس إلهاً كما يتوهם البعض .

وفي هذه الآية والتي سبقتها نلحظ أن الوحي الأعلى هداية وشرى . هداية لشعوب الخاتمة . وشرى تورث الأفراح وتحقق الآمال لمن يرتبطون بهذا الوحي ... !

٣ - « وإنه لتربيلاً رب العالمين . نزل به الروح الأمين على قلبك ليكون من المتربيين . بلسان عربي مبين . وإنه لني زبر الأولين »^(٣) وظاهر أن الذي نزل بلوحي هو الروح الأمين وأن الرسول الكريم شرع يعلم الناس . ويدعوهم بعدهما تلق هذا الوحي المبارك . وأن رسالته تصدق وامتداد رسالات النبيين الأولين في العقائد وحسن الخلق .

٤ - وقد أقسم الله تبارك وتعالى على عظمة هذا القرآن فقال : « إنه لقول رسول كريم دنى قوته عد دنى العرش مكين مطاع ثم أمن »^(٤) .

(١) البقرة : ٩٧

(٢) النحل : ١٠٤

(٣) الشهراء : ١٩٢ - ١٩٦

(٤) التكوير : ٢١ - ١٩

ونلحظ هنا عدة أوصاف لأمين الوحي . فهو رسول كرم . وهو صاحب قوة . وهو صاحب مكانة عند ذي العرش : وهو مطاع في موضعه ، وأمين .

وبين هذه الصفات وبين ما جاء في سورة النجم مشابه .. فلتتبرها في الموضع الأخير ..

٥ - إن هو إلا وحي يوحى . علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فقتل . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى ... »^(١٣)

القوى الذي علم الوحي ، ونزل به إلى السماء الدنيا ، وحلق به في جو الأرض ، ثم اقترب به من الرسول العربي هو جبريل بداهة . ولا يتحمل السياق إلا هنا ، ولا تتحمل آيات القرآن كلها في غير هذا الموضوع إلا هنا ... !

ومع ذلك فقد جاءت في الأحاديث المنشورة بطريق الآحاد رواية مستغيرة أن الذي دنا فتدلى هو الله !!

والرواية تختلف الموارث المقطوع به في الكتاب والسنّة ، ومن هنا لم يكتثر بها المحققون بل جمدت في مكانها حتى جاء ضعفاء الفقه فاستح gioها دونوعي ..

وقد صفت ذرعاً بأناس قليلي الفقه في القرآن كثيري النظر في الأحاديث . يصدرون الأحكام ، ويرسلون الفتاوي فيزيدون الأمة ببلبة وحيرة .

ولازلت أحذر الأمة من أقوام بصرهم بالقرآن كليل ، وحديثهم عن

١٠ - ٤ (١٣) النجم :

الإسلام جرى . واعتمادهم كله على مرويات لا يعرفون مكانتها من الكيان الإسلامي المستوعب لشئون الحياة ...

وقد جاء الإمام مسلم رحمة الله فلعل على رواية إمام البخاري رحمة الله ، فيَنَّ ما بها من عطُب ، وذكر أن الخطأ جاء من شريرك عن أنس بن مالك الذي ذكر الحديث فزاد ونقص وقدم وأخر ... !!

إن مسلماً مضى على منهج المحدثين . فناقش عمل شريرك - الراوى عن أنس - ثم رفض المتن ! وحسناً فعل .

إن الخطأ في تفسير آية « النجم » والزعم بأن المعنى « دنا الجبار رب العزة فتنبل » كانا مثار استنكار السيدة عائشة رضي الله عنها ! فلما سأله مسروق : يالماه هل رأى محمد ربه ؟ قالت : لقد قفتْ شعر رأسي مما قلت ! أين أنت من ثلاثة ؟ من حدثكم فقد كذب !!

من حدثك أن حمداً رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت « لاندركه الأ بصار وهو يدرك الأ بصار وهو اللطيف الخبير » ^(١٤) « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وجهاً أو من وراء حجاب » ^(١٥) .

ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ! ثم قرأت « وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت » ^(١٦) .

ومن حدثك أن حمداً كتم أمراً فقد كذب ، ثم قرأت « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ... » ^(١٧) ، ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين ... وأم المؤمنين عائشة فقيهة محدثة أديبة ، وهي وقاية عند نصوص القرآن ،

(١٤) الأئمَّة : ١٠٣

(١٥) الشوري : ٥١

(١٦) لقمان : ٣٤

(١٧) المائدة : ٦٧

ترفض أدنى تجاوز لها .. وعندما سمعت أن النبي - صلى الله عليه وسلم - وقف على حافة البئر التي دفن المشركون بها يناديهم بأسمائهم كان لها تعليق جدير بالتدبر .

والرواية في هذا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - مثى واتبعه أصحابه حتى قام على شفة الركي - فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : أيسركم أنكم أطعمن الله ورسوله ، فإنما قد وجدنا ما وعدنا رينا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ .

قال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟ فقال : والذى نفس محمد يده ما أنت بأسمع لما أقول منهم !

أنكرت عائشة عبارة « ما أنت بأسمع لما أقول منهم » مستدلة بالآية الشريفة « وما أنت بسمع من في القبور » ^(١٨) وصححت الرواية : ما أنت بأعلم لما أقول منهم ! .

قال قتادة مبينا الرواية الأولى ومدافعا عنها : أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبىخا وتصغيرا ..

والذى أراه أن الرواية الأولى لاتحتاج إلى هذا الدفاع ، فالملونى لم يفتوا ، وصوت النبوة يبلغهم وهم في سجين .. ولكن عائشة رضى الله عنها لاتقبل ما يعارض - في ظاهره - لفظ القرآن ، فالملونى عادة لا يكلمون ولا يسمعون ، وإنما يعلمهم الله بما يشاء ، فإذا علموا فكأنهم سمعوا . والعبارة مقبولة على طريق المجاز ...

كل ما نعرض نحن عليه شد الانتباه إلى ألفاظ القرآن ومعانيه ، فجملة غفيرة من أهل الحديث محظيون عنها . مستغرون في شئون أخرى تعجزهم عن شرب الوحي !! .

(١٨) فاطر : ٤٤

والفقهاء المحققون إذا أرادوا بحث قضية ما . جمعوا كل ما جاء في شأنها من الكتاب والسنّة . وحاكموا المظنون إلى المقطوع . وأحسنوا التنسيق بين شئي الأدلة ...

أما اختطاف الحكم من حديث عابر . والإعراض عما ورد في الموضوع من آثار أخرى فليس عمل العلماء .

وقد كان الفقهاء على امتداد تاريخنا العلمي هم القادة المنوّلون للأمة . الذين أسلّمّت لهم زمامها عن رضا وطمأنينة . وقعن أهل الحديث بتقديم ما يتناقلون من آثار كما تقدّم مواد النساء للمهندس الذي يبني الدار . ويرفع الشرفات .

والواقع أن كلا الفريقين يحتاج إلى الآخر . فلا فقه بلا سنّة ولا سنّة بلا فقه ، وعظمة الإسلام تمّ بهذا التعاون .

والختمة نفع في اغترار أحدّها بما عنده ، وتزداد مع الإصرار وضعف البصيرة .

وقد ظهرت في الجزائر فتوى لواحد من أهل الحديث حاربناها بقوة قبل أن تصيب الإسلام وأهله بضر شديد .

إن على التجار في بضائعهم زكاة يتقرّبون إلى الله بأدائها . والتجار في الدنيا ملوك المال وقد افتتح الانجليز القارة الهندية بشركة تجارية ، ولا يزال الاستعمار الاقتصادي يهيمن على ميادين التجارة حتى يبتلك أعناق الشعوب !

فكيف يزعم زاعم أن عروض التجارة لا زكاة فيها ؟ وأين نذهب بقوله تعالى « يأنّها الذين آمنوا أنفقوا ما رزقناكم من قبل أن يأتّ يوم لا يبع فيه ولا خلة ولا شفاعة »^(١٩) وقوله تعالى « وما رزقناهم ينفقون »^(٢٠) . وقوله « يأنّها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبت وما أخرجنا لكم من الأرض »^(٢١)

(١٩) - (٢٠) . (٢١) البقرة : ٢٥٤ . ٣ . ٤٧٧

لكن الشاب المشغول بالحديث النبوى نادى في الناس ألا زكاة في عروض التجارة . إذ لا أصل لها فيها قوأ ...

وضم إلى ذلك أن الزكاة في الزراعة لا تخرج إلا من القمح والشعير والتمر والزبيب . كان الكرة الأرضية هي خد وتهامة والخجاز !!

والمفتي القاصر يهبط بمحضه الزكاة إلى العشر مadam جمهور التجار وال فلاحين قد أعنى من إيتاء الزكاة ، وسقط عنهم ركن الإسلام

ومن يقع هذا ؟ في أيام جندت الكنيسة خلامها ثروات التجار وال فلاحين لتصير العالم الإسلامي المبلى بجذب الأرض وجذب العقول !

لماذا لا تتدبر القرآن أولا حتى نعرف أبعاد التكاليف التي ناطها الإسلام بأعناقنا ، وأوعية المال التي تخرج منها زكواتنا ؟ .

ولماذا لا نعرف طبيعة الدنيا التي نعيش فيها ، والأساليب التي يتبعها خصومنا لكتب معاركهم ضدنا ؟ .

إنه لا فقه مع العجز عن فهم الكتاب ومع العجز عن فهم الحياة نفسها ..

وبعض المشغلين بالحديث يستوعر تدبر القرآن ، ودراسة دلالاته القريبة والبعيدة . ويستسهل سماع حديث ما ثم يخنطف الحكم منه فيشق البلاد والعباد

قلنا : إنه لا خلاف بين المسلمين في العمل بما صحت نسبته لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفق أصول الاستدلال التي وضعها الأئمة ، وانتهت إليها الأمة .

إنما ينشأ الخلاف حول صدق هذه النسبة أو بطلانها ... وهو خلاف لابد من حسمه ، ولا بد من رفض الافتئال أو التكفل فيه .

فإذا استجمعت الخبر المروي شروط الصحة المقررة بين العلماء فلا معنى لرفضه
وإذا وقع خلاف محتم في توفر هذه الشروط أصبح في الأمر سعة ، وأمكن
وجود وجهات نظر شتى . ولا علاقة للخلاف هنا بـكفر ولا إيمان ، ولا بطاعة
أو عصيان ..

وقد وقع لي وأنا بالجزائر أن طالبا سألي : أصحح أن موسى عليه السلام
فقاً عين ملك الموت عندما جاء لقبض روحه . بعدهما استوفى أجله ؟ فقلت
للطالب وأنا ضائق الصدر : وماذا يفيدك هذا الحديث ؟ إنه لا يتصل
بعقيدة . ولا يرتبط به عمل ! والأمة الإسلامية اليوم تدور عليها الرحى ،
وخصومها طامعون في إتّحاد أنفاسها ! اشتغل بما هو أهتم وأجدى !

قال الطالب : أحيطت أن أعرف هل الحديث صحيح أم لا ؟ فقلت له
متبرما : الحديث مروي عن أبي هريرة ، وقد جادل البعض في صحته .

وعدت لنفسي أفكرا : إن الحديث صحيح السند ، لكن منه يثير الريبة .
إذ يفيد أن موسى يكره الموت . ولا يحب لقاء الله بعدهما انتهى أجله ، وهذا
المعنى مرفوض بالنسبة إلى الصالحين من عباد الله كما جاء في الحديث الآخر
« من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ». فكيف بأنبياء الله ؟ وكيف بواحد من
أولى العزم؟ إن كراهيته للموت بعدهما جاء ملائكة أمر مستغرب ! ثم هل
الملائكة تعرض لهم العاهات التي تعرض للبشر من عمي أو عور ؟ ذلك بعيد .

قلت : لعل من الحديث معلوم ، وأيا ما كان الأمر فليس لدى ما يدفعني
إلى إطالة الفكر فيه ..

فلا رجعت إلى الحديث في أحد مصادره سافن أن الشارح جعل ردّ
ال الحديث إلحادا ! وشرع يفتّد الشبهات الموجهة إليه فلم يزدّها إلّا قوة ... وهكذا
ال الحديث أولا :

عن أبي هريرة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « جاء ملك الموت إلى موسى - عليه السلام - فقال له : أجب ربك ، قال : فلطم موسى - عليه السلام - عين ملك الموت ، ففتقها ، قال : فرجع الملك إلى الله تعالى ، فقال : إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت وقد فتقا عيني ، قال : فردا الله إليه عينه ، وقال : ارجع إلى عبدي فقل له : أحيات ترید ؟ فإن كنت ترید الحياة فضع يدك على متن ثور ، فما وارت يدك من شعرة فإنك تعيش بها سنة . قال : ثم مم ؟ قال : ثم تموت ، قال : فالآن من قريب ، رب أمني من الأرض المقدسة رمية بحجر » .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « والله لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر » ^(٢٢) .

قال المازري :

وقد أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث وأنكر تصوره ، قالوا : كيف يجوز على موسى فرق عين ملك الموت ؟ .

قال : وأجب العلماء عن هذه الشبه بأجوبة :

أحدها : أنه لا يمتنع أن يكون موسى - صلى الله عليه وسلم - قد أذن الله تعالى له في هذه اللطمة ، ويكون ذلك امتحانا للملطوم ، والله - سبحانه وتعالى - يفعل في خلقه ما شاء ، ويتحمّم بما أراد ! ! .

والثاني : أن هذا على المجاز ، والمراد أن موسى ناظره وحاجه فغلبه بالحججة ، ويقال : فقا فلان عين فلان إذا غالبه بالحججة ، ويقال : عورت الشيء إذا أدخلت فيه نقصا .

وعلى المازري على الرأى الثاني بقوله :

(٢٢) أجب ربك : استعد للموت - متن الثور ظهره - به : استهان معناه ثم ماذ يكون ؟ حياة أم موت ؟ - رمية حجر : قدر ما يبلغه . - الكثيب : كوم الرمال .

وفي هذا ضعف لقوله - صلى الله عليه وسلم - فرد الله عينه ، فإن قيل :
أراد حجته كان بعيدا .

والثالث : أن موسى - صلى الله عليه وسلم - لم يعلم أنه ملك من عند الله ، وظن أنه رجل قصده يريد نفسه (أي يريد قتله) فدافعه عنها ، فأدت المدافعة إلى فرق عينه ، لا أنه قصدها بالفقر ، وهذا جواب الإمام أبي بكر بن خزيمة وغيره من المقدمين ، واختاره المازري والقاضي عياض .

قالوا : وليس في الحديث تصریح بأنه تعمد فرق عينه ، فإن قيل : فقد اعترف موسى حين جاءه ثانيا بأنه ملك الموت .
فالجواب : أنه أثار في المرة الثانية بعلامة علم بها أنه ملك الموت فاستسلم بخلاف المرة الأولى .

نقول نحن : هذا الدفع كله خفيف الوزن ، وهو دفاع تافه لا يساغ ! !
ومن وصم منكر الحديث بالإلحاد فهو يستطيل في أعراض المسلمين . والحق :
أن في متنه علة قادحة تزل به عن مرتبة الصحة .

ورفضه أو قبوله خلاف فكري ، وليس خلافا عقائديا .
والعلة في المتن يبصراها المحققون ، وتحقق على أصحاب الفكر السطحي .
سمعت كلاما حادياً من يرون أن موسى فرق عين ملك الموت حقا ، وأن هذا غير مستغرب .

وقيل أن ذكر ما عندى أثبت هنا حديث أحمد عن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ! قلنا : يارسول الله كلنا نكره الموت ! فقال رسول الله : ليس ذلك كراهة الموت ! ولكن المؤمن إذا حُضِر - احضر - جاءه البشير من الله تعالى بما هو صائر إليه فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لَمَّى الله تعالى . فأحب لقاء الله ! ! ... قال : وإن الفاجر أو الكافر إذا حُضِر - احضر - جاءه

«النذير» بما هو صائر إليه من الشر أو ما يلقى من الشر فكره لقاء الله فكره الله لقاءه .

والحديث المذكور يتجاوز أحوال الصحة المعتادة ، وانغمس الناس في معايشهم يزرعون وبصنتون ويتجرون ، فإن إقبالهم على الحياة لا نكر فيه ، ونزول الموت هنا قد يوصف بأنه مصيبة ! وما تقام الدنيا وينشأ عرمانها إلا من هذا الشعور بالحياة وحبها .

على أن المؤمن قد يُبَيِّنُ الحياة الدنيا في ساعة فداء ينصر بها دينه ويلقى بها ربه ، فهو وإن انغمس في شؤون الدنيا لا ينسى أبداً دينه . ولا ينكص عن لقاء ربه .

وحدث أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ يتجاوز هذه الظروف كلها ليشرح اللحظات الأخيرة من عمر المتفوّق وهو في فراش المرض ، أو وهو على أبواب الآخرة . وقد شرع ملُكُ الْمَوْتِ يُسْرِدُ الرُّوْحَ لِيُعُودَ بِهَا إِلَى بَارِثَتِهِ .
في هذه الأوقات الحرجية تجني البشرى التي يطير بها المؤمن فرحاً ، أو الأنباء التي ينوه بها الفاجر كمداً

فلتنتظر على ضوء هذه الحقائق إلى حديث فقه موسى لعين ملُكُ الْمَوْتِ .. إنَّ الْمَلَكَ قَالَ لِمُوسَى: أَجْبَ رَبِّكَ .. يعنى أنَّ عُمْرَكَ اتَّهَى ، فاستعد لتسليم روحك والعودة إلى ربك !! .

أَفَ هَذِهِ الْعُودَةُ مَا يَضَاهِي مُوسَى؟ قَالَ الْمَدَافِعُونَ عَنِ الْحَدِيثِ: مُوسَى كُسَاطِرُ الْبَشَرِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ ! وَنَقُولُ: كِراهِيَّةُ الْمَوْتِ مُفْهُومَةٌ فِي الْأَحْوَالِ الْعَادِيَةِ لِلنَّاسِ الْعَادِيِّينَ . وَلَا مَعْنَى هَذَا بَعْدَ اِنْتِهَاءِ الْأَجْلِ . وَبِعِيَّهِ الْمَلَكُ يُسْرِدُ وَدِيعَتِهِ ! .

ما الذي يكرهه موسى من اللقاء الحتم؟ إن هذا الكره تحوّل إلى جزع وغضب جعلاً موسى يفتقاً عين الملك كما يقال ! .

يقول المدافعون عن الحديث : إن موسى فقاً الصورة التي تمثل بها الملائكة ، لأنه جاء في صورة بشر .. ويرد ذلك ما جاء في الحديث أن الله رد إليه عينه .. أفكان موسى عاجزاً عن إصلاح العور في الهيئة التي تشكل فيها ؟ .

وقد طلب موسى أن يدفن على مرمى حجر من حدود فلسطين التي جن قومه عن دخولها فهل هذا الطلب تفسير لحرص اليهود الآن على نقل موتاهم إلى الأرض المقدسة ؟ .

وسمعت من قال : إن الحديث من الابتلاء بالغيب ؟ والإيمان بالغيب حق إذا كانت مستيقنة المصدر أما انسياق الغامض والأسلوب المضطرب فها موضع بحث الفقهاء ليتعرفوا الحقيقة من خبر أحد . يتعرض للدرس والفحص سناً ومتناً ...

وأخيراً فهذا الحديث وأمثاله مما لا صلة له بعقيدة أو سلوك قارئ في مكانه تدعوه العين إلى المهم من تعاليم الإسلام العملية ، فمن نسب الزرائب عنه ، وشغل الناس به . ونسب إلى الإلحاد من يتوقف فيه ؟ إن أعداء الصحوة الإسلامية من وراء هذا الحراك الطائش ...

وقد رفض الأئمة أحاديث صحيحة سنتها واعتذر منها فلم تستكمل بهذا الخلل شروط الصحة ..

ومن أجل ذلك . استغربنا مارواه ثابت عن أنس أنَّ رجلاً كان يتهم بأم ولد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعلى اذهب فاضرب عنقه ، فأناه على فإذا هو في ركيبي تبرد فيها فقال له على : أخرج . فناوله يده فأخرجه فإذا هو محظوظ ليس له ذكر ! فكفت على عنه ثم أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال يارسول الله إنه محظوظ ما له ذكر .

يستحيل أن يحكم على رجل بالقتل في تهمة لم تتحقق ، ولم يواجه بها المتهم ، ولم يسمع له دفاع عنها ، بل كشفت الأيام عن كذبها ! .

وقد حاول النووى غفر الله لنا وله تسويف هذا الحكم ، بقوله : لعل الرجل كان منافقاً مستحقاً للقتل لسب آخر ! ونقول : متى أمر رسول الله بقتل المنافقين ؟ ما وقع ذلك منه ؟ بل لقد نهى عنه .

وظاهر من السياق أن الرجل نجى من القتل بعدما ثبت من العامة التي به استحالة توجيه الاتهام إليه ، أفلو كان سبباً أبيع دمه ؟ هذا أمر تأبه أصول الإسلام .. وفروعه كلها .

إن بالحديث علة قادحة ، وهي كافية في سلب وصف الصحة عنه ، وأهل الفقه لا أهل الحديث هم الذين يردون هذه المرويات .

قال مدافعاً عن هذا الخبر : نعلم من باب التعزير ؟ وهذا تفكير مستنكر ! هل الإسلام أعطى ولئل الأمر حق قتل الناس لشيبة أو شائعة ؟ أبا سالم التعزير تسبّح الدماء على نحو طائش .. ؟ إننا نقتل ديننا بهذا الفهم ، ونعرض سيرة نبينا للقيل والقال

ومما يحتاج إلى الفقه السليم تحرّم نهى الموقى ، ورفض ما تنشره الصحف الآن من إعلانات عن وفاة فلان وفلانة .. وقد جاءنى بعض الطلاب يقولون : إنهم قرؤوا أحاديث تفيد ذلك ، ومن ثم فهم يستنكرون الآيذان بأخيار الموقى .

قلت : إن النهي المكروه ما كان استمراضاً للمأثر والمخاطر ، وتنتهي بالأفراد والأسر ، أما ماعدا ذلك فلا شائبة فيه . بل لا بد منه .. !

قالوا : ما رواه الترمذى وابن ماجة غير ما تقول ! عن حذيفة رضى الله عنه قال عندما احضر : « إذا أنا متَّ فلا يؤذن على أحد . إن أخاف أن يكون نعياً ، وإني سمعت رسول الله ينهى عن النعي ». .

هكذا روى الترمذى ، وأكّد ابن ماجة الرواية إلا أنه قال : « كان حذيفة

إذا مات له الميت قال : « لا تؤذنوا به أحدا ، إني أخاف أن يكون نعيا ، إني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأذن هاتين ينهى عن النعي »
وعن عبد الله بن مسعود « أن رسول الله كان ينهى عن النعي ، وقال :
إياكم والنعي فإنه من عمل الجاهلية » قال عبد الله والنعي : أذان بالميت ..
ونحن نؤكد أن النعي المخطوط ما قارنه الرياء وإحياء العصبية أما الإخبار
المعتاد فيستحبيل كرهه .

وما أكثر الأحاديث المنشورة اليوم بين الشباب . يستجعون منها أحكاما
سيئة . إن قبلنا سندها على إعراض فإن منها لا يصح قوله !

وقد قرأت للمنذري رحمة الله في كتابه « الترغيب والترهيب » ستة عشر
حديثا في سكى الشام وما جاء في فضلها .

منها ما جاء عن زيد بن ثابت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
يوما ونحن عنده : « طوبي للشام . إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليه »
وأغلب الأحاديث الستة عشر تدور على هذا المعنى ، وأغلبها من رواية الترمذى
والحاكم والطبرانى وابن حبان وأبى داود وأحمد ...

ونحن نحب أقطار الإسلام كلها ونعد أهلها إخوتنا ، ونرى نصرتهم دينا .
وخلالنهم كفرا ، وما يروى في تفضيل بلد على آخر والترغيب في سكانه أو
المراقبة فيه فهو عندما يتعرض الإسلام للخطر من قبله أو تحدث ثغرة في
حدوده تتطلب الرجال لسدتها ..

وذلك كما تجمع كرات الدم البيضاء لحماية الجسم من الجراثيم الغازية ،
عندما يصاب بجرح . أو تنشأ به فرحة . إن مساعدة قوات الدفاع هنا مفهومة
الحكمة ..

أما في حالة الجسم العادية ، فوقف الكرات من جميع الأعضاء واحد ..

والواقع أن دار الإسلام الآن مهددة من ثغرات شتى ، والغزا يتواثبون حولها شرقاً وغرباً ..

ولما كانت فلسطين جزءاً من الشام فتحن نعد الفرار منها عصياناً والثبات فيها جهاداً . وللمدافعين عن الإسلام في أفغانستان والفلبين ، وسائر أراضيه كل الحقوق التي لعرب فلسطين ، أو لأرض الشام كما جاء في الأحاديث الستة عشر ... !!

كان عمر رضي الله عنه يشغل نفسه ويشغل الناس معه بالقرآن الكريم ويوصي الجيوش أن تلهج به وتعكف عليه . ومن أفضليته التي استند فيها إلى القرآن وحده : مارواه ابن إسحاق ، قال : كنت جالساً مع الأسود بن يزيد في المسجد الأعظم ، ومعي الشعبي . فحدث بحديث فاطمة بنت قيس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يجعل لها سكناً ولا نفقة - وكانت قد طلت ثلثاً - فأخذ الأسود كفأاً من حصى فحصبه به ! ثم قال : وبذلك تحدث بمثل هذا ؟ قال عمر : لاتترك كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لاندرى حفظت ألم نسبت . لها السكناً والنفقة . قال تعالى « لاتخرجوهن من بيوتهن ولا يغزجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » .

وحدث فاطمة المذكور هو موضع خلاف بين الفقهاء ، رفضه الأحناف ، وقبله الحنابلة . ويرى المالكية والشافعية : أن المطلقة ثلثاً لها السكنا دون النفقة . وملحوظ الحنابلة : أن سياق الآية التي ذكرها عمر في الطلاق الرجعي لا البائن ، ولمن شاء أن يدرس القضية في مصادرها ، والذى يعنيها منها : هو أن « عمر » جعل ظاهر القرآن هو السنة التي تتبع ! .

وإذا كنا نقدم الرأى القوى على الرواية المرتبة فيما سقنا قبلًا من عاذج فإن عجبنا يشتد عندما نرى من يترك النقل والفقه معاً في بعض الأحكام . اتفق المحدثون أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لاتنكح الآيمان

حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن. قالوا: يا رسول الله وكيف إذنها ؟ قال: أن تسكت » وفي رواية : « الثيب أحق بنفسها من ولها والبكر تستأمر ، إذنها سكتها » ! .

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن جارية بکرا أتت النبي - صلى الله عليه وسلم - فذكرت أن أباها زوجها وهي كارهة ! ، فخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وفي رواية: «أن فتاة دخلت على عائشة فقالت: إن أبي زوجني من ابن أخيه يرفع بي خسيسته وأنا له كارهة ! قالت عائشة: اجلسى حتى يأتي رسول الله ! فجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبرته ، فأرسل إلى أبيها فدعاه ، فجعل الأمر إليها !

قالت: يا رسول الله ، قد أجزت ماصنع أبي ، ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء ! .

ومع هذا فإن الشافعية والحنابلة أجازوا أن يجبر الأب ابنته البالغة على الزواج من تكرهه !! ، ولأنى وجهة النظر هذه إلا انسياقا مع تقليد إهانة المرأة ، وتحفيظ شخصيتها ...

وقد ذكرنا أن الأحناف أعطوا المرأة حق أن تباشر عقدها إيمضاه لظواهر القرآن .. « ولكل وجهة هو مولها فاستبعوا الحيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جمِيعا » ^(٢٣)

في عَالَمِ النِّسَاءِ

الحجاب والنِّقَابُ - المرأة والأمرة والوظائف العامة -
علاقة المرأة بالمسجد - شهادة المرأة في الحدود والقصاص .

مَرْكَةُ الْحِجَابِ ... !!

نريد للصحوة الإسلامية المعاصرة أمرين : أولها: البعد عن الأخطاء التي انحرفت بالأمة وأذهبت ريحها وأطمعت فيها عدوها .. والآخر: إعطاء صورة عملية للإسلام تعجب الرائين ، وتحمّل الشهادات القديمة وتنصف الوحي الإلهي ..

ويؤسفني أن بعض المسوبيين إلى هذه الصحوة فشل في تحقيق الأمرين جميعا ، بل ربما نجح في إخافة الناس من الإسلام ، ومكّن خصومه من بسط الستائم فيه ..

ولنستعرض هنا طائفه من المعارك التي أثاروها ، أو المبادئ التي رأوا أن ينطلقوا منها . ونبداً بمحنة النقاب !

قرأت كتيباً في إحدى دول الخليج يقول فيه مؤلفه : إن الإسلام حرم الزنا ! وإن كشف الوجه ذريعة إليه ، فهو حرام لما ينشأ عنه من عصيان ! قلت : إن الإسلام أوجب كشف الوجه في الحج . وألفه في الصلوات كلها ، أفكان بهذا الكشف في ركين من أركانه يثير الغرائز ويمهد للجريمة ؟ ما أضلَّ هذا الاستدلال !

وقد رأى النبي - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الوجوه سافرة في المواسم والمساجد والأسواق فما روى عنه قط أنه أمر بتنحّيها . فهل أنتم أغرب على الدين والشرف من الله ورسوله ؟

ولننظر إلى كتاب الله ورسوله لنتسلّم بآطراف الموضوع

١ - إذا كانت الوجوه مقطعة فمَ يغضن المؤمنون أبصارهم؟ كما جاء في الآية الشريفة « قل للمؤمنين يغضنوا من أبصارهم ومحفظوا فروجهم ذلك أذكى لهم ... »^(٢٤) . أيفضونها عن الفقا والظهر؟ ..

الغض يكون عند مطالعة الوجوه بذاته ، وربما رأى الرجل ما يستحسن من المرأة فعليه ألا يعاود النظر عندها كما جاء في الحديث . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نعل رضي الله عنه: « ياعل لاتتبع النظرة النظرة . فإن لك الأولى وليس لك الآخرة » !

٢ - وقد رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - من ت Starr رغبته عند النظر المفاجئ . وعندئذ فالواجب على المتزوج أن يستغنى بما عنده كما روى جابر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - « إذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله - أى ليذهب إلى زوجته - فإن ذلك يرد ما في نفسه » . فإن لم تكن له زوجة فليع قوله تعالى : « ولسيتعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغفيم الله من فضله »^(٢٥) .

حکى القاضي عياض عن علماء عصره - كما روى الشوكاني - أن المرأة لا يلزمها ستر وجهها وهي تسير في الطريق ، وعلى الرجال غض البصر كما أمرهم الله ...

٣ - في أحد الأعياد خطب النبي - صلى الله عليه وسلم - النساء - ومصلى العيد يجمع الرجال والنساء بأمر من رسول الله - فقال لهن: « تصدقن فإن أكتركن حطب جهنم » . فقالت امرأة سفيعاء الخذين جالسة في وسط النساء : لم نحن كما وصفت؟ قال: « لأنك تكثرن الشكاة وتنكرون العشير » يعني - عليه الصلاة والسلام - أن نساء كثيرات يمحدن حق

٣٠) التور : (٢٤)

٣٣) التور : (٢٥)

الزوج : وينكرن ما ينزل في البيت ولا تسمع منه إلا الشكوى ! . . .
قال الراوى : فجعلن يصدقون من حلبين ، يلقن في ثوب بلال من
أفراطهن وخواتهن . . . ! والسؤال : من أين عرف الراوى أن المرأة
سعاء الحدين - ؟ والخد الأسفu هو الجامع بين الحمرة والسمرة -
ما ذلك إلا لأنها مكشوفة الوجه .

وفي رواية أخرى : كنت أرى النساء وأيديهن تلقى الخل في ثوب بلال ..
فلا الوجه عورة ولا اليد عورة .

٤ - قال بعض الناس : إن الأمر بكشف الوجه في الحج ، أو في الصلوة ،
يعطى أن الوجه يجب ستره فيها وراء ذلك . وأن على المرأة ارتداء النقاب
والقفازين .

ونقول : هل إذا أمر الله الحجاج بتعرية رموزهم في الإحرام كان ذلك
يفيد أن الرءوس تغطي وجوها في غير الإحرام ؟ من قال ذلك ؟ من
شاء غطى رأسه ومن شاء كشفه ..

٥ - عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن امرأة جاءت إلى رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - فقالت : يا رسول الله . جئت لأهب لك نفسي ، فنظر
إليها رسول الله فصعد النظر إليها وصوبه ثم طأطأ رأسه - لم يجدها بشيء -
فلا رأت أنه لم يقض فيها بشيء جلست . . .

وفي رواية أخرى أن أحد الصحابة خطبها . ولم يكن معه مهر فقال له
النبي : القس ولو خاتما من حديد ! .
وانتهت القصة بزواجه منها .

والسؤال فيم صعد النظر وصوبه إن كانت منقبة ؟ .

٦ - عن ابن عباس كان الفضل رديف رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
فجاءت امرأة من خثعم - تسلأه - فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه

وجعل رسول الله يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر... فقلت
يا رسول الله إن فريضة الله على عباده الحج ، وقد أدركت أبي شيخا
كبيرا لا يثبت على الراحلة ، فأفاحج عنه؟ قال : نعم .. وكان ذلك في
حجـة الوداع - أى لم يأتـ بعدـ حـديث نـاسـخ -

٧ - وحدثت عائشة قالت : كان نساء مؤمنات يشهدنـ معـ النبيـ صـلاـةـ
الـفـجـرـ ،ـ مـتـلـحـفـاتـ بـمـرـوطـهـنـ -ـ مـسـتـوـرـاتـ الـأـجـسـادـ بـمـاـ يـشـبـهـ الـمـلـاـهـ -ـ ثـمـ
يـنـقـلـبـنـ إـلـىـ بـيـوـتـهـنـ حـينـ يـقـضـيـنـ الصـلـاـةـ :ـ لـاـ يـعـرـفـنـ مـنـ الـغـلـسـ -ـ تـعـنـيـ أـنـهـ
لـوـ لـغـشـ الـفـجـرـ لـعـرـفـ لـاـنـكـشـافـ وـجـوهـهـنـ -

٨ - على أـنـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ :ـ وـلـيـضـرـنـ بـخـمـرـهـنـ عـلـىـ جـيـوـهـنـ (٢٦)ـ يـحـتـاجـ إـلـىـ
تـأـمـلـ ،ـ إـذـ لـوـكـانـ الـمـرـادـ إـسـدـالـ الـخـمـارـ عـلـىـ الـوـجـهـ لـقـالـ :ـ لـيـضـرـنـ بـخـمـرـهـنـ
عـلـىـ وـجـوهـهـنـ ،ـ مـاـدـامـتـ تـغـطـيـةـ الـوـجـهـ هـيـ شـعـارـ الـجـمـعـ الـإـسـلـامـيـ ،ـ وـمـاـ
دـامـتـ لـلـنـقـابـ هـذـهـ الـمـرـزـلـةـ الـهـائـلـةـ الـتـيـ تـنـسـبـ إـلـيـهـ ...ـ وـعـنـ التـطـيـقـ الـعـمـلـ
لـهـذـاـ الـفـهـمـ اـضـطـرـتـ النـسـاءـ لـاـصـطـنـاعـ الـبـرـاقـ أـوـ حـجـبـ أـخـرـىـ عـلـىـ
الـنـصـفـ الـأـدـنـىـ لـلـوـجـهـ كـىـ يـسـطـعـنـ السـيـرـ ،ـ فـإـنـ إـسـدـالـ الـخـمـارـ مـنـ فـوـقـ
يـعـشـيـ الـعـيـوـنـ .ـ وـيـعـرـرـ الرـؤـيـةـ ..ـ وـمـنـ ثـمـ فـنـحـ نـرـىـ الـآـيـةـ لـاـ نـصـ فـيـاـ
عـلـىـ تـغـطـيـةـ الـوـجـهـ !

ولـاشـكـ أـنـ بـعـضـ النـسـاءـ فـيـ الـجـاهـلـيـةـ ،ـ وـعـلـىـ عـهـدـ الـإـسـلـامـ كـنـ
يـنـطـيـنـ أـحـيـاـنـاـ وـجـوهـهـنـ مـعـ بـقـاءـ الـعـيـوـنـ دـوـنـ غـطـاءـ ،ـ وـهـذـاـ الـعـمـلـ كـانـ
مـنـ الـعـادـاتـ لـاـ مـنـ الـعـبـادـاتـ ،ـ فـلـاـ عـبـادـةـ إـلـاـ بـنـصـ .

٩ - وـيـدـلـ عـلـىـ مـاـدـكـرـنـاـ :ـ أـنـ اـمـرـأـ جـاءـتـ إـلـىـ النـبـيـ -ـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ -
يـقـالـ لـهـ «ـ أـمـ خـلـادـ »ـ وـهـىـ مـتـنـقـبـةـ تـسـأـلـ عـنـ اـبـنـهـ الـذـىـ قـتـلـ فـيـ إـحـدـىـ
الـغـزـوـاتـ فـقـالـ لـهـ بـعـضـ أـصـحـابـ الـنـبـيـ :ـ جـتـ تـسـأـلـيـ عـنـ اـبـنـكـ وـأـنـتـ

منتفقة ؟ فقالت المرأة الصالحة : إن أرزاً ابني فلم أرزاً حيائى .. !!
واستغرب الأصحاب لتفب المرأة دليل على أن النقاب لم يكن عبادة !

١٠ - قد يقال : إن ماروى عن عائشة يؤكد أن النقاب تقليد إسلامى ، فقد
قالت : « كان الركبان يمرون بنا ونخن محمرات ، فإذا جازوا بنا سدلوا
إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها ، فإذا جاوزونا كشفناه » ونجيب بأن
هذا الحديث ضعيف من ناحية السند ، شاذ من ناحية المتن ، فلا احتجاج
به ..

والغريب أن هذا الحديث المردود يروج له دعابة النقاب مع أنهم يردون
حديثاً خيراً منه حالاً وهو حديث عائشة أن أسماء بنت أبي بكر دخلت
على النبي - صلى الله عليه وسلم - وعليها ثياب رفقة ، فأعرض عنها
وقال : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت الحبيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا
وأشار إلى وجهه وكفيه » .

ونحن نعرف أن الحديث مرسل ، ولكن الحديث قوله روایات أخرى ،
وهو أقوى من الحديث الذي سبقه .

١١ - وأدل على ذلك السفور المباح : مارواه لنا مسلم أن سبيعة بنت الحارث
ترملت من زوجها وكانت حاملة ، فلابثت أيامها حتى وضعت ،
فأصلحت نفسها ، وتجملت للخطاب ! فدخل عليها أبو السنبل أحد
الصحابية - وقال لها : مالى أراك متجملة ؟ لعلك تربدين الزواج ، إنك
والله ماتزوجين إلا بعد أربعة أشهر وعشرة أيام ..

قالت سبيعة : فلما قال لي ذلك جمعت على ثيابي حين أمسكت فأتتني
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وسألته عن ذلك فأفتقناني بأنى قد
حفلت حين وضعت حملي ! وأمرني بالترويج إن بدا لي ...

كانت المرأة مكحولة العين مخصوصة الكف ، وأبو السنبل ليس من

محارمها الذين يطعنون بحكم القرابة على زينتها ، والملابسات كلها تشير إلى بيئة يشيع فيها السفور !

وقد وقع ذلك بعد حجة الوداع ، فلا مكان لنسخ حكم أو إلغاء تشريع .. وأعرف أن هناك من ينكر كل ماقلناه هنا ، بعض المحدثين في الإسلام أشدَّ تطيراً من ابن الرومي ! وهم ينظرون إلى فضائل الدنيا والآخرة من خلال مضاعفة الحجب والعوائق على الغريرة الجنسية ..

ويعلم الله إبني - مع اعتنادي برأيي - أكره الخلاف والشذوذ . وأحب السير مع الجماعة . وأنزل عن وجهه نظري التي أفتتح بها بعنة الإبقاء على وحدة الأمة ..

فهل ما قلته رأى انفرد به .؟

كلا كلا إنه رأى الفقهاء الأربع الكبار . ورأى أمة التفسير البارزين ..

إن الشاغبين على سفور الوجه يظاهرون رأياً مرجحاً ، ويتصررون في قضيائياً المرأة كلها على نحو يهز الكيان الروحي والثقافي والاجتماعي لأمة أكلها الجهل والاعوجاج لما حكت على المرأة بالموت الأدبي والعلمي .

إن من علماء المذاهب الأربع من يرى أن وجه المرأة ليس بعورة ، وأثبت هنا نقولاً عن كبار المفسرين من أتباع هذه المذاهب : قال أبو بكر الجصاص - وهو حنف - في تفسير قوله تعالى : « وقل للمؤمنات يغضبن من أبصارهن ويخفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ... » ^(٢٧) .

قال أصحابنا : المراد : الوجه والكفان ، لأن الكحل زينة الوجه . والخضاب والخاتم زينة الكف . فإذا أبىع النظر إلى زينة الوجه والكف فقد اقتضى ذلك لا محالة إباحة النظر إلى الوجه والكفين .

ويقول القرطبي - وهو مالكى - « لما كان الغالب من الوجه والكفاف
ظهورها عادة وعبادة . وذلك في الصلاة والحج . ف يصلح أن يكون الاستثناء
راجعاً إليها ... »

ويقول الخازن - وهو شافعى - مفسراً الاستثناء في الآية « قال سعيد بن
جبير والضحاك والأوزاعى : الوجه والكفاف » .

ويقول ابن كثير - وهو سلفى - « ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا
تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفاف . وهذا هو المشهور عند الجمھور ... »

وقال ابن قدامة في « المغنى » - وهو مرجع حنبلى - : المرأة كلها عورة إلا
الوجه ، وفي الكفاف روايتان !!

وختى برأى ابن حجر الطبرى في تفسيره الكبير « أولى الأقوال في ذلك
بالصواب من قال - في الاستثناء المذكور عن زينة المرأة المباحة - عنى بذلك
الوجه والكفاف . ويدخل الكحل والخاتم والسوار والخضاب ... وإنما قلنا ذلك
أقوى الأقوال . لأن الإجماع على أن كل مصل يست عورته في الصلاة وأن
للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها في الصلاة ، وأن تستر ماعدا ذلك من
بدنها ، وما لم يكن عورة غير حرام إظهاره ... » .

والذهب الحق يضم ظهور القدمين إلى الوجه والكفاف . منعاً للحرج .

وبعد هذا السرد نسأع إلى التنبئ بأن المجتمع الإسلامي بما شرع الله له من
آداب اللباس والسلوك العام هو شيء آخر غير المجتمع الأوروبي - بشقيه الصليبي
والشيعي - فإن هذا المجتمع أدى إلى الفكر المادي البحت وأقرب إلى الإباحة
الحيوانية الملعونة ...

إن الملابس هناك تفصل للإثارة لا للستر . والترزين للشارع لا للبيت .
والاختلاط لا يعرف التصون أو تقوى الله ، والخلوة ميسورة لمن شاء ، والقانون

لا يرى الزنا جريمة ما دام بالزناضي !! وتكاد الأسر تكون حبرا على ورق ...
إن الإسلام شيء آخر معايير كل المعايير لهذا الاتجاه الطائش الكافر ، فهل
أحسستُ نحن بناء المجتمع القائم على حدود الله ؟

إننا قدمنا للإسلام صورا تثير الاستفزاز وفي خطاب لأحد الدعاة المشاهير
قال : إن المرأة تخرج من بيتها للزوج أو للقبر ! ثم ذكر حديثا^(٢٨) : إن امرأة
مرض أبوها مرض الموت فاستأذنت زوجها لتعوده فأبى عليها ! فلما مات
استأذنته أن تشهد الوفاة ونكون مع الأهل عند خروج الجنازة فأبى .. قال
الخطيب : فلما ذكرت ذلك لرسول الله قال لها : إن الله غفر لأبيك لأنك أطعنت
زوجك !!

أكذلك يعرض ديننا ؟ سجنا للمرأة تقطع فيه ما أمر الله به أن يوصل ؟ ..
وجاءتني رسالة من طالبة منها أبوها من الاتصال بالجامعة ، قالت : إن
أبناها يقول لي ولأخواتي البنات : «إن الله دفَنَنَا أحياء .. فلا أترى كمن لما ترددن
من خروج !!

هذا فهم الآب الأحمق لآية «وَقُرْنَ فِي بَيْوَنْكَنْ وَلَا تَبْرُجْ الْجَاهِلِيَّةَ
الأولى ..»^(٢٩)

(٢٨) ينص الحديث كذا أخرجه عبد الله بن حميد عن ثابت عن أنس «إن امرأة كانت تحت رحل
فمرص أبوها فاتت النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالت : يا رسول الله إن أبي مريض ،
وزوجي يأبى أن يأذن لي أن أمرضه ! فقال لها النبي : أطبي روحك ! فاتت أبوها ،
فاستأذنت زوجها أن تصل عليه فأبى زوجها أن يأذن لها في الصلاة ! سألت النبي فقال
لها : أطبي روحك ! فأطاعت زوجها ولم تصل على أبيها . فقال لها النبي - صلى الله عليه
 وسلم - : قد غفر الله لأبيك بتطويعك لزوجك !!

والحديث المذكور لا يعرفه رواه الصحاح . وهو يقطع ما أمر الله به أن يوصل ! ويرخص
الوفاء بعن الولدين . وهذه الألئق من المرأة من البت أبدا . وهو هدف بكله الإسلام . وفي
الحديث الصحيح : «إن الله أذن لكن أن تخرجن في حوائجكن »

(٢٩) الأحرار : ٣٣

المَرْأَةُ وَالْأَسْرَةُ وَالْوَظَائِفُ الْعَامَّةُ

أكثُرُ الْبَيْوَاتِ الْحَالِيَّةِ مِنْ رِبَّاتِهَا ! إِنَّ رَبَّةَ الْبَيْتِ رُوحٌ يَنْفُثُ الْهَنَاءَ وَالْمُوْدَةَ فِي جَبَّانَهُ وَيَعِينُ عَلَى تَكْوِينِ إِنْسَانٍ سُوِّيٍّ طَيِّبٍ وَكُلُّ مَا يُشَغِّلُ الْمَرْأَةَ عَنْ هَذِهِ الْوَظِيفَةِ يُعَتَّاجُ إِلَى دراسةٍ وَمَرَاجِعَةٍ .

وَإِلَى جَانِبِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ يَأْتِي أَكْثُرُهُ وَأَدَّهُ طَفْلَةً . وَوَادِهَا وَهِيَ نَاضِجَةٌ مَوَاهِبُهُ مَرْجُوَةٌ الْحَيْرَ لِأَمْهَا وَأَهْلِهَا فَكَيْفَ نُوقِّنُ بَيْنِ الْأَمْرَيْنِ ؟ لَتَقْنُقُ أَوْلَا عَلَى أَنْ احْتَقَارَ الْأُنْوَةَ جَرِيَّةً . وَكَذَلِكَ دَفَعَهَا إِلَى الْطَرِيقِ لِإِجَابَةِ الْحَيْوَانِ الْرَابِضِ فِي دَمَاءِ بَعْضِ النَّاسِ .

وَالَّذِينَ الصَّحِيْحُ يَأْتِي تَقَالِيدُ أَمْمٍ نَجَّسَ النَّسَاءَ . وَتَضَبِّطُ عَلَيْهِنَ الْخَنَاقَ . وَتَضَنَّ عَلَيْهِنَ بَشَّقَ الْحَقْرَقَ وَالْوَاجِبَاتِ . كَمَا يَأْتِي تَقَالِيدُ أَمْمٍ أُخْرَى جَعَلَتِ الْأَعْرَاضَ كُلَّا مَبَاحَا . وَأَهْمَلَتِ شَرَائِعَ اللَّهِ كُلَّهَا عِنْدَمَا تَرَكَتِ الْغَرَائزُ الدِّينِيَّةُ تَنْفَسُ كَيْفَ تَشَاءَ ..

يُمْكِنُ أَنْ تَعْمَلِ الْمَرْأَةُ دَاخِلَ الْبَيْتِ وَخَارِجَهُ . يَبْدُ أَنَّ الْفَضَّيَّاتَ مَطْلُوْبَةٌ لَخَفْظِ مَسْتَقْبِلِ الْأَسْرَةِ وَمَطْلُوْبَ أَيْضًا تَوْفِيرُ جُوْمَنَقَ وَالْعَفَافَ تَزَوَّدِي فِيهِ الْمَرْأَةُ مَا قَدْ تَكَلَّفَ بِهِ مِنْ عَمَلٍ

إِذَا كَانَ هَنَالِكَ مَائَةُ أَلْفٍ طَبِيبٍ أَوْ مَائَةُ أَلْفٍ مَدْرِسٍ فَلَا يَبْأُسُ أَنْ يَكُونَ نَصْفُ هَذِهِ الْعَدْدِ مِنِ النَّسَاءِ وَالْمُهْمَمُ فِي الْحَتَّمِ الْمُسْلِمِ قِيَامُ الْآدَابِ الَّتِي أَوْصَتْ بِهَا الشَّرِيْعَةُ . وَصَانَتْ بِهَا حَدُودَ اللَّهِ . فَلَا تَرْجُ وَلَا خَلَاعَةُ . وَلَا مَكَانٌ لِالْخُلَاطِ مَاجِنٌ هَابِطٌ . وَلَا مَكَانٌ لِلْخُلُوةِ بِأَجْسِيٍّ . تَلْكَ حَدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا

ومن ي تعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » .. (٣٠) .

على أن الأساس الذي ينبغي أن ترتبط به أو نظل قريبين منه هو البيت .
إنني أشعر بقلق من ترك الأولاد للخدم أو حتى لدور الحضانة .

إن أنفاس الأم عميقة الآثار في إضاج الفضائل وحماية النساء .

ويجب أن نبحث عن ألف وسيلة لتقريب المرأة من وظيفتها الأولى وهذا
يسور لو فهمنا الدين على وجهه الصحيح . وتركنا الانحراف والغلو ..

أعرف أنهات فاضلات مديرات مدارس ناجحة . وأعرف طبيبات
ماهرات شرفن أسرهن ووظائفهن وكان التدين الصحيح من وراء هذا كله ..

وقد لاحظت أن المرأة اليهودية شاركت في المزبعة المخزية التي نزلت بنا
وأقامت دولة إسرائيل على أشلائنا ، إنها أدت خدمات اجتماعية وعسكرية
لديها

كما أن امرأة يهودية هي التي قادت قومها . وأذلت نفرا من الساسة العرب
لهم حتى وشوارب في حرب الأيام الستة وفي حروب تالية .. !

وقد لاحظت في الشهاب الأفريقي وأقطار أخرى أن الراهبات وسيدات
متزوجات وغير متزوجات يخدمن التنصير بحماس واستبسال ! .

ولعلنا لا ننسى الطيبة التي بقىت في بنيات اللاجئين الفلسطينيين وهي
تهدى على رءوس أصحابها وتحملت أكل الموقن من الحيوانات والجثث . ثم
خرجت بعض الأطفال العرب آخر الحصار لتسنكل معالجة علهم في إنجلترا ..
إن هناك نشاطا نسائيا عاليا في ساحات شريفة رحمة لا يجوز أن ننساه لما
يقع في ساحات أخرى من تبذل وإسفاف .

وقد ذكرت الجهد الديني والاجتماعي الذي تقوم النساء غير المسلمات به في

أوصسا أو وراء حدودنا . بالجهاد الكبير الذي قامت به نساء السلف الأول في نصرة الإسلام .

لقد تحملن غربة الدين بشجاعة . وهاجرن وأوينن عندما فرست المجرة والابواء . وأفزن الصلوات راحمات عاذيات إلى المسجد النبوي سنتين عدداً . وعندما احتاج الأمر إلى القتال قاتلن .

و قبل ذلك أسددين خدمات طيبة - أعن في المهام التي يحتاج إليها الجيش - وقد ساء وضع المرأة في القرون الأخيرة . وفرضت عنها الأمية والخلف الإنساني العام

بل إنني أشعر بأن أحکاماً قرآنية ثابتة أهملت كل الإهتمام لأنها تتصل بمصلحة المرأة . منها أنه قلما نالت امرأة ميراثها . وقلما استثيرت في زواجها ! . وبين كل مائة ألف طلاق يمكن أن يقع تبنيه مطلقة . أما قوله تعالى « وللمطلقات متابع بالمعروف حقا على المتقين »^(٣١) فهو كلام للتلاؤمة .

والتطبيع بالزوجة لزوجة طارئة أمر عادي . أما قوله تعالى « وإن خفتم شفاق بيهما فابعثوا حكما من أهله و حكما من أهلهما »^(٣٢) فجبر على ورق ..

المرأة أنزلت رتبة وأقل قيمة من أن ينعقد لأجلها مجلس صلح ! إن الرغبة في طردها لا يجوز أن تقاوم ... !!

وقد نددت في مكان آخر بأن خطيبة الرجل تغتر بأما خططاً المرأة فدمها ثمن له !!

وقد استغلَ الاستعمار العالمي في غارته الأخيرة علينا هذا الاعوجاج

٤٤١) البقرة : (٣١)

٣٥) النساء :

المنكور . وشنَّ على تعاليم الإسلام حرباً ضاربةً ! كأنَّ الإسلام المظلوم هو المسئول عن الفوضى الضاربة بين أتباعه .

والذى يثير الدهشة أن مدافعين عن الإسلام أو متحدثين باسمه وقفوا محامين عن هذه الفوضى الموروثة . لأنَّهم - بغاوة رائعة - ظنوا أنَّ الإسلام هو هذه الفوضى ! والجنون فنون والجهالة فنون !!

إنَّ الأعمدة التي تقوم عليها العلاقات بين الرجال والنساء تبرز في قوله تعالى : « لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضاكم من بعض » ^(٣٣) وقوله : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيشه حياة طيبة ولنجزيزهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » ^(٣٤) .

وقول الرسول الكريم : « النساء شقاق الرجال » .

وهنالك أمور لم يجيء في الدين أمر بها أو نهى عنها ، فصارت من قبيل العفو الذي سكت الشارع عنه ليتسع لنا حرية التصرف فيه سلباً وإيجاباً .

وليس لأحد أن يجعل رأيه هنا ديناً . فهو رأي وحسب !

ولعل ذلك سرُّ قول ابن حزم . إنَّ الإسلام لم يحظر على امرأة تولى منصب ما ، حاشا الخلافة العظمى !

وسمعت من رد كلام ابن حزم : بأنه مخالف لقوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم . . . » ^(٣٥) فالآلية تفيد - في فهمه - أنه لا يجوز أن تكون المرأة رئيسة رجل في أى عمل ! .

وهذا رد مرفوض والذى يقرأ بقية الآية الكريمة يدرك أنَّ القوامة المذكورة هي للرجل في بيته ، وداخل أسرته ..

٣٤) النساء : ٢٤ (٣٥)

١٩٥) آل عمران : .

٣٤) التحل : ٩٧

وعندما ولَى عمر قضاء الحسبة في سوق المدينة للشفاء . كانت حقوقها مطلقة على أهل السوق رجالاً ونساء . تحلُّ اللحاظ وتُحرِّم الحرام وتُقيِّم العدالة وتحمِّل المخالفات

وإذا كانت للرجل زوجة طيبة في مستشفى فلا دخل له في عملها الفنى .
ولا سلطان له على وظيفتها في مستشفاتها

قد يقال : كلام ابن حزم منقوص بالحديث « خاتم قوم ولوا أمرهم امرأة »

وجعل أمور المسلمين إلى النساء يعرض الأمة للخيبة فيينبغى ألا تُنسد إليهن
وظيفة كبيرة ولا صغيرة ..

وابن حزم يرى الحديث مقصوراً على زياست الدولة . أما ما دون ذلك فلا
علاقة للحديث به ..

ونحن أن نلق نظرة أعمق على الحديث الوارد . ولستا من عشاق جعل
النساء رئيسيات للدول أو رئيسيات للحكومات ! إننا نُعشق شيئاً واحداً . أن
يرأس الدولة أو الحكومة أكفاء إنسان في الأمة ..

وقد تأملت في الحديث المروي في الموضوع . مع أنه صحيح مسداً ومتنا .
ولكن ما معناه ؟ .

عندما كانت فارس تنهوى تحت مطاراتق الفتح الإسلامي كانت تحكمها ملوكية
مستبدة مشؤومة

الدين وشئ ! والأسرة المالكة لا تعرف شورى . ولا تحترم رأياً مخالفـا .
والعلاقات بين أفرادها باللغة السوء . قد يقتل الرجل أباً أو إخوه في سبيل
ماربه . والشعب خانع مقاد

وكان في الإمكان . وقد انهزمت الجيوش الفارسية أمام الرومان الذين

أحرزوا نصراً مبين بعد هزيمة كبيرة وأخذت مساحة الدولة تتقدّص أن يتوفّل
الأمر قائد عسكري يقف سيل المزاجم . لكن الوثنية السياسية جعلت الأمة
والدولة ميراثاً ثقافياً لا تدرك شيئاً . فكان ذلك إيذاناً بأن الدولة كلها إلى
ذهاب ..

فالتتعليق على هذا كله قال النبيُّ الحكيم كلمته الصادقة . فكانت وصفاً
للأوضاع كلها ..

ولو أنَّ الأمر في فارس شوري . وكانت المرأة الحاكمة تشبه « جولدا مائير »
اليهودية التي حكمت إسرائيل . واستبقيت دفة الشؤون العسكرية في أيدي قادتها
لكان هناك تعليق آخر على الأوضاع القائمة ..

ولك أن تسأل : ماذا تعني ؟ وأجيب : بأنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام - قرأ
على الناس في مكة سورة النمل ، وقصَّ عليهم في هذه السورة قصة ملكة سبأ التي
قادت قومها إلى الإيمان والفلاح بمحكمتها ودكتتها ، ويستحيل أن يرسل حكماً
في حديث ينافق ماتزل عليه من وحي ! .

كانت بليقى ذات ملك عريض . وصفه المدهد يقوله : « إني وجدت امرأة
تلكلهم وأوتيت من كل شيءٍ وها عرش عظيم »^(٣٦) .

وقد دعاها سليمان إلى الإسلام ، ونهاها عن الاستكبار والعناد ، فلما تلقت
كتابه ، ترَّوَتْ في الرد عليه . واستشارت رجال الدولة الذين سارعوا إلى مساندتها
في أي قرار تتخذه . قائلين « نحن أونوا قوة وأولوا بأس شديد . والأمر إليك
فانظري ماذا تأمرين »^(٣٧) .

ولم تغترَّ المرأة الوعية بقوتها ولا بطاعة قومها لها . بل قالت : « تخبر سليمان هذا
لتعرف أموي جبار من طلاب السلطة والثروة أم هونبي صاحب إيمان ودعة ؟

ولما التقى سليمان بقيت على ذكаниها واستنارة حكها تدرس أحواله وما يريد
وما يفعل ، فاستبان لها أنه نبي صالح ..

وتذكرت الكتاب الذى أرسله إليها : «إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم الآتى علوا على واتفق مسلمين»^(٣٨) ثم قررت طرح وثيقتها الأولى والدخول فى دين الله قائلة : «رب إنى ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان الله رب العالمين ...»^(٣٩) .

هل خاب قوم ولو أمرهم امرأة من هذا الصنف التفيس ؟ إن هذه المرأة أشرف من الرجل الذى دعوه ثُمُود لقتل الناقة ومراعمة نبيهم صالح «فندوا صاحبهم فتعاطى فقر» . فكيف كان عذابي ونذر . إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتضر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر»^(٤٠) .

ومرة أخرى أؤكد أنى لست من هواة تولية النساء المناصب الصخصة ، فإن الكلمة من النساء قلائل . وتکاد المصادفات هى التي تكشفهن ، وكل ما أبغى ، هو تفسير حديث ، ورد في الكتاب . ومنع التناقض بين الكتاب وبعض الآثار الواردة . أو التي تفهم على غير وجهها ! ثم منع التناقض بين الحديث والواقع التاريخي .

إن انجلترا بلغت عصرها الذهبي أيام الملكة «فيكتوريا» ، وهى الآن بقيادة ملكة ورئيسة وزراء ، وتعدّ قمة الازدهار الاقتصادى والاستقرار السياسى . فain السخية المتوقعة لمن اختار هؤلاء النساء ؟

وقد تحدثت في مكان آخر عن الضربات القاصمة التي أصابت المسلمين في القارة الهندية على يدى «اندرا خاندى» وكيف شطرت الكيان الإسلامى شطرين فحققت لقومها ما يصيرون !

٣٢ - ٢٩ (٤٠) القراء .

٣١ - ٣٠ (٣٨)

٤٤ (٣٩) الحال :

على حين عاد المرشال . يجئي خان يجرأ أذىال الخيبة !!

أما مصائب العرب التي لحقت بهم يوم قاتل « جولدا مائير » قومها فحدث ولا حرج . قد تحتاج إلى جيل آخر لمحوها ! إن القصة ليست قصة أنوثة وذكورة ! إنها قصة أخلاق ومواهب نفيسة ..

لقد أجرت انديرا انتخابات لترى أيختارها قومها للحكم أم لا ؟ وسقطت في الانتخابات التي أجرتها بنفسها ! ثم عاد قومها فاختاروها من تلقاء أنفسهم دون شائبة إكراه !

أما المسلمين فكأنهم متخصصون في تزوير الانتخابات للفوز بالحكم ومعانعه برغم أنوف المجاهير .

أى الفريقين أولى برعاية الله وتأييده والاستخلاف في أرضه ؟ ولماذا لا نذكر قول ابن تيمية : إن الله قد ينصر الدولة الكافرة – بعدها – على الدولة المسلمة بما يقع فيها من مظالم ؟ .

ما دخل الذكورة والأنوثة هنا ؟ امرأة ذات دين خير من دى لجنة كفور ! !
وال المسلمين الآن خو خمس العالم . فكيف يعرضون دينهم على سائر الناس ؟
ليهتموا قبل أى شيء بأركان دينهم وعراهمه وغيباته العظمى ! أما ما سكت
الإسلام عنه فليس لهم أن يلزموا الناس فيه بشيء قد أفوه لهم أنفسهم من
قبل !!

إننا لستا مكلفين بنقل تقاليد عبس وذبيان إلى أمريكا وأستراليا . إننا
مكلفون بنقل الإسلام وحسب !

والأم تلقى عند الشئون المهمة ! هب أن الانكليز يلزمون الجانب الأيسر
من الطريق على عكس غيرهم من أهل أوروبا . إن ذلك لتأثير له في حلف
الأطلسي ولا في دستور الأسرة الأوروبية ! .

وإذا كان الفقهاء المسلمين قد اختلفت وجهات نظرهم في تقرير حكم ما ،

فإنه يجب علينا أن نختار للناس أقرب الأحكام إلى تقاليدهم ...

والمرأة في أوروبا تناشر زواجها بنفسها . ولها شخصيتها التي لا تتنازل عنها ، ولنست مهمتنا أن نفرض على الأوروبيين مع أركان الإسلام رأي مالك أو ابن حنبل إذا كان رأى أن حنفية^(١) أقرب إلى مشاربهم فإن هذا تضع أو صدّ عن سبيل الله ..

وإذا ارتفعوا أن تكون المرأة حاكمة أو قاضية أو وزيرة أو سفيرة ، فلهم ما شاءوا ، ولدينا وجهات نظر فقهية تجيز ذلك كلّه . فلم الإكراه على رأي ما؟ . إن من لاقه لهم يجب أن يعلقوا أنفواههم لثلا يسيروا إلى الإسلام بحديث لم يفهموه أو فهموه وكان ظاهر القرآن ضده ...

والجماعة من شعائر الإسلام ، ومنذ قام المجتمع الإسلامي والمسجد محور نشاطه وملتقى أبنائه ، تتصافح فيه الوجوه والأيدي ، وتتلاقى فيه على الحب والتعاون . ويقف المؤمنون في صفوف مرصوصة بين يدي الله تبارك وتعالى قدما لقدمه وكتفا لكتف . يزينهم الخشوع لسباع القرآن ، والتسبیح والتحمید خلال الركوع والمسجدود ...

(١) قال الأحباب : إن القرآن أشد عقد الزواج إلى المرأة وفاس . « حتى تنكح روحها عيده » (البغرة ٢٤١) وقال : « لا حاجة عليك مما فعل في أنفسهن بالمعروف » (المغيرة ٢٣٤) مقدماً لها انتشاراً صحيحاً . وإذا اعترضت ابنة نبيك النفس الحكم في انتزاع ورداً ورواً حديث « أتى امرأة انكحت نفسها فنکاحها باطل باطل » لأنه يخالف ظاهر القرآن .

رفض أحد القراء مذهب أبي حبيبة . وقل : إن لعنة « تنكح روحها عيده » حقيقة في الوطأ وحده ! ! وهذا اعتراض فاحش مدهش .

هل النكاح المنشود يقع على رفي أو على زواج « لا أظن عاقلاً يرعم أن الرفي يخلل امرأة زوجها الأول » . فلم يبن إلا أن كتمة « تنكح روحها عيده » مذهب العقد والنيط . ولكن التحصب المذهبى يغير أصحابه إلى الغرائب ! !

وأثر الصلاة الفكرى والخلق عميق . فإن القرآن المتلوي يرفع المستوى ويورث التقوى ، واللقاء المتكرر يصون العلاقات الخاصة وال العامة . ويجعل الأمة تواجه يومها وغدتها وهى متعرفة لامتناكرة

وثم أمر آخر . أن المبطلين أقاموا في هذه الدنيا جوا من المادية والأطاعع والمارب الصغيرة يملاً أنديتهم . ويسود طرفهم . ويصنع تقاليدهم . ويدعم بعدهم عن الله وكفرهم بآياته . فيجب أن يكون للمؤمنين جوًانى يعلو فيه ذكر الله . وتسمع فيه قضايا الحق . ويتحول فيه الإيمان بالغيب إلى حقائق مأتومة لاخباريات مستوحشة !

من ثم كانت الجماعة من معلم الدين ! وبعض الفقهاء يرى الجماعة فرضا للصلوات الخمس لا يسقطه إلا عذر صحيح . ولكن الذى عليه جمهور الأمة أن الجماعة سنة مؤكدة ..

فهل هي سنة مؤكدة للرجال والنساء على السواء ؟ كذلك يقول الظاهرية !! ولكن الأمر يحتاج إلى تأمل ..

فقد صبح في السنة أن المرأة راعية في بيتها وهي مسئولة عن رعيتها ! ولا ريب أن شئون الأولاد خصوصا الرضع . وإعداد البيت لاستقبال الرجل العائد من عمله . كل ذلك يحول دون انتظام المرأة في الجماعات الخمس .

ولذلك نرى أن حضور الجماعات مطلوب منها بعد أن تفرغ من وظائف بيتها . فإذا قامت بما عليها فلا يجوز لرجلها أن يمنعها من الذهاب إلى المسجد وقد جاء في الحديث « لاتمنعوا إماء الله مساجد الله » .

ونحن موقنون بأن النبي - عليه الصلاة والسلام - جعل أحد أبواب المسجد خاصا بالنساء . وأنه أقامهن في الصفوف المؤخرة من المسجد . وذلك أصون لهن في الركوع والسجود . وأنه زجر الرجال الذين يقتربون من صوفهن . كما

زجر النساء اللائي يتقلعن قريبا من صفووف الرجال ...

وقد بقيت صفووف النساء في المسجد طيلة العهد النبوي وأيام الخلافة الراشدة . لم يشغب عليها شاغب ، تبدأ مع الفجر وتنتهي عند العشاء .

وربما قامت للنساء جماعات حاشدة لصلاة التراويح في رمضان . ومعروف أن اشتراكهن في صلاة العيد وسماع الخطبة من شعائر الإسلام .

يد أن الازدهار الذي أحدثه الإسلام في عالم المرأة أخذ يتعرض للذبوب والتلاشي فوضع حديث يمنع تعلم النساء الكتابة . كي يقين على أميتهن الأولى !!

لحساب من تعود هذه الجاهلية ؟

وعندما يفرض على نصف الأمة الجهل والعمى فكيف تنشأ الأجيال المقبلة ؟

ثم شاع حديث آخر يأبى على النساء حضور الجماعات كلها . بل طلب من المرأة إذا أرادت الصلاة في بيتها أن تخافر المكان الموحش المزبور ، فصلاتها في سرداد أفضل من صلاتها في الغرفة . وصلاتها في الظلمة أفضل من صلاتها في الضوء !!

وراوي هذا الحديث يطوّح وراء ظهره بالسنن العملية المتواترة عن صاحب الرسالة .

ويتضرر إلى المرأة المصلية وكأنها أذى يجب حصره في أضيق نطاق وأبعدة ، ولنقرأ هذا الحديث الغريب كما ذكره ابن خزيمة وغيره .

« عن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي أنها جاءت إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالت :

يا رسول الله إني أحب الصلاة معك . قال : قد علمت أنك تحبب الصلاة

معي ! وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك . وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك ، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك . وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدى » . قال الراوى : فأمرت فبني لها مسجد في أقصى شىء من بيتها وأظلمه ، وكانت تصل فيه حتى لقيت الله عز وجل ! ! .

والبيت في الحديث هو غرفة النوم . والحجرة غرفة الجلوس . والصلوة في الأول أفضل من الصلاة في الأخرى ! .

والصلوة في غرفة الجلوس أفضل من الصلاة في عرصة الدار . وهي في عرصة الدار أفضل من الصلاة في مسجد الحى

وكلا ضاق المكان وبعد واستوحش كانت الصلاة فيه أفضل !

ويجعل ابن خزيمة عنوان الباب الذى ذكر فيه هذه القضايا « صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في مسجد رسول الله . وأن قول النبي - عليه الصلاة والسلام » صلاة في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة في مسواه من المساجد » إنما أراد به صلاة الرجال دون صلاة النساء ! ! .

والسؤال السريع إن كان هذا الكلام صحيحا فلماذا ترك النبي النساء يشهدن الجماعات معه طوال عشر سنين من الفجر إلى العشاء ؟ ولماذا خص أحد أبواب المسجد بدخولهن ؟ ولماذا لم ينصحن بالبقاء في البيوت بدل هذه المعاناة الباطلة ؟

ولماذا قصر صلاة الفجر على سوتين صغيرتين عندما ممتع بكاء رضيع مع أمه حتى لا يشغل قلبها ؟

ولماذا قال : لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ؟ ولماذا استبقيت الحلاقة الراسدة صنوف النساء في المساجد بعد وفاة الرسول الكريم ؟ .

إن ابن حزم أراوح نفسه وأراوح غيره عندما كذب أحاديث منع النساء من

الصلوة في المساجد . وعده من البطل !

وعلماء المصطلح يقولون : يعتبر أحاديث شاذًا إذا كان الثقة قد خالف به الأوثق .

إذا كان الخالق يُسْمِي ثقة بـ ضعيفاً . فحديثه متزوك أو منكراً !

ولم يجيء في أحد الصحيحين مدحىء من النساء من الصلاة في المسجد
فهذه الأحاديث مردودة كلها .. فكيف إذا خالف الصعيف السنة العملية
المتوترة والمشهورة ؟ إن حديثه يستبعد ابتداء ..

وقد أتت على المسلمين عصور ماتت فيها السنة الصحيحة . ولاتزال هذه
المأساة باقية تتعصب لها بيات لاتعرف إلا المرويات المزروعة والمنكرا .

وقد يقبل زجر المرأة عن حضور الجماعات إذا كانت متبرجة . فإن الذهاب
إلى المساجد ليس استعراضًا للزيارات . وبعثرة للفتن ! إنه سعي لمرضاة الله .
وغرس للتفوي ..

وحجز النساء عن هذا الشر هو بتنفيذ وصاة رسول الله . بخجرن
تفلات « أى في ملابس عادية وهيئة طبيعية لا تعطر ولا تبختر
أما إصدار حكم عام بتحريم المساجد على النساء فهو مسلك لا صلة له
بالياسلام ..

وإن المفهوم لم يربو عن مات يرويه المحدثون مخالفًا لما ثبت لديهم !

انظر مارواه المتندرى تحت عنوان « الترهيب من ترك التسمية على الوضوء
عندما » ، قال الإمام أبو بكر بن أبي شيبة رحمه الله : ثبت لدينا أن النبي - صلى
الله عليه وسلم - قال : « لا وضوء لمن لم يسم الله ... » .

وعن أبي هريرة قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا صلاة لمن لا
وضوء له ، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه » !

وقد أتى المذاهب على أن التسمية سنة لافتراضة . واحتاجوا بما رواه الدارقطني والبيهقي عن ابن عمر مروعا « من توضأ وذكر اسم الله عليه كان طهوراً جميع بدنـه . ومن توضأ ولم يذكر اسم الله عليه كان طهوراً لأعضاء وضوئه »

قال المنذري : « في الباب أحاديث كثيرة لا يسمى شيء منها عن مقال ..

وقد ذهب الجمـهور إلى أن التسمـية على الوضـوء سـنة . وذهبـ الحـنـابـةـ والـظـاهـرـيـةـ إـلـىـ أـنـهـ فـرـيـضـةـ . وـالـأـحـادـيـثـ الـمـرـوـيـةـ بـالـسـلـبـ أـوـ الـإـنـجـابـ مـوـضـعـ أـخـذـ وـرـدـ وـلـاـ دـاعـيـ لـلـتـهـوـيـلـ فـيـ الـأـمـرـ ..

وـمـنـ الـخـيـرـ أـنـ نـعـلـمـ أـنـ الـفـرـضـ لـاـيـشـتـ إـلـاـ بـدـلـلـ قـطـعـيـ وـأـنـ التـحـرـمـ لـاـيـشـ إـلـاـ بـدـلـلـ قـطـعـيـ . وـأـنـ الـأـدـلـةـ الـظـنـيـةـ هـاـ دـلـلـاتـ أـقـلـ مـنـ ذـلـكـ ..

وـالـذـىـ يـدـخـلـ مـيـدـانـ الـتـدـيـنـ وـبـضـاعـتـهـ فـيـ الـحـدـيـثـ مـرـجـاـةـ كـالـذـىـ يـدـخـلـ السـوقـ وـمـعـهـ نـقـودـ مـزـيـفـةـ . لـاـ يـلـوـمـ إـلـاـ نـفـسـ إـذـاـ أـخـذـتـهـ الشـرـطـةـ مـكـبـلـ الـيـدـيـنـ ..

وـنـرـيدـ مـنـ الـجـمـاعـاتـ الـعـامـلـةـ لـلـإـسـلـامـ أـنـ تـكـوـنـ يـقـظـةـ فـلـاـ تـنـخدـعـ بـالـأـثـارـ الـوـاهـيـةـ وـالـأـحـادـيـثـ الـمـوـضـوـعـةـ كـمـاـ نـرـيدـ مـنـهـ أـنـ تـعـرـفـ الـمـعـانـيـ الـصـحـيـحةـ لـاـ صـحـ مـنـ نـقـولـ ..

وـأـلـمـ الـفـقـهـ هـمـ أـرـبـابـ تـلـكـ الصـنـاعـةـ ..

حَوْلَ شَهَادَةِ الْمَرْأَةِ ..

وَمَعْرُوفٌ أَنْ شَهَادَةَ الْمَرْأَةِ عَلَى النَّصْفِ مِنْ شَهَادَةِ الرَّجُلِ . وَقَدْ عَلِلَ الْقُرْآنُ
الْكَرِيمُ لِذَلِكَ أَنَّ الْمَرْأَةَ قَدْ تَنْسِي أَوْ تَخَارِجُ أَوْ يَشْتَبِهَ عَلَيْهَا وَجْهُ الْحَقِّ . وَعِنْدَمَا تَكُونُ
عَلَيْهَا اِمْرَأَةٌ أُخْرَى فَسُوفَ يَتَعَاوَنُنَّ عَلَى الْإِدْلَاءِ بِالْحَقِيقَةِ كَامِلَةً .

وَقَدْ بَحَثْتُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ فَأَدْرَكْتُ أَنَّ الْمَرْأَةَ فِي عَادِتِهَا الشَّهِيرَةِ تَكُونُ شَبَهَ
مَرِيَضَةً . وَأَنَّ اِنْحِرافَ مَزاجِهَا وَاضْطِرَابَ أَجَهْزَائِهَا الْحَيَوِيَّةِ يَصِيبُهَا بِعَصْبَرَى
الْإِرْتِبَاكِ . وَالشَّبَهُ فِي أَدَاءِ الشَّهَادَاتِ وَاجِبٌ .

ذَلِكَ سُرُّ قُولِهِ تَعَالَى : « وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ . فَإِنْ لَمْ يَكُونَا
رِجَلَيْنِ فَرِجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِنْ تَرْضُونَ مِنَ الشَّهِيدَاتِ . أَنْ تَضَعَ إِحْدَاهُمَا فَتَذَكَّرَ
إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى » (٤٢) .

وَكَانَ يَجُبُ أَنْ يَقْفَ أَمْرُهُ عَنْهَا عَنْهَا لَكِنْ تِيَارًا نَشَأَ فِي الْفَكْرِ الْدِينِيِّ
يُسْتَبْعَدُ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ اسْتِبْعَادًا تَامًا فِي أَهْمَمِ مِيَادِينِ التَّقَاضِيِّ ! وَهُوَ مِيدَانُ
الْقَصَاصِ وَالْحُدُودِ أَيْ فِيَّا بَتَصِلُ مَانِدَمَاءَ وَالْأَعْرَاضِ .

وَإِذَا كَانَ الْلَّصُوصُ يَسْرُقُونَ الْبَيْوَتَ لِيَلَّا أَوْ تَهَارَا فَمَا مَعْنَى رَفْضُ شَهَادَةِ
الْمَرْأَةِ فِي حَدِ الْسُّرْقَةِ ؟ وَإِذَا كَانَ الْعُدُوَانُ عَلَى النَّفْسِ وَالْأَطْرَافِ يَقْعُ كَثِيرًا
يَتَشَهَّدُ مِنَ النِّسَاءِ فَمَا مَعْنَى أَنْ تَرَى الْمَرْأَةَ مَصْرَعَهَا أَوْ أَقْرَبَ النَّاسَ إِلَيْهَا ثُمَّ
تَرْفَضُ شَهَادَتَهَا ؟

ولماذا لم يتم نصاب الشهادة كما ذكره القرآن الكريم؟

إن ابن حزم في تحييصه للآثار المروية يؤكد أن رفض شهادة النساء في الحدود والقصاص لا يوجد له أصل في السنة النبوية.

ولست أحب أن أوهن ديني أمام القوانين العالمية بموقف لا يستند استناداً قوياً إلى النصوص القاطعة. وإذا كان المسلمين الآن أكثر من مليار نفس فما معنى التطوير بكرامة خمسة ملايين امرأة لقول أحد من الناس؟

المأساة أننا نحن المسلمين مولعون بضم تقاليدنا وآرائنا إلى عقائد الإسلام وشرائعه لتكون ديناً مع الدين. وهدياً من لدن رب العالمين. وبذلك نصد عن سبيل الله..!

وأذكر هنا قصة الناقة التي عرضها صاحبها بعشرة دراهم. واشترط أن تباع قلادتها معها بـألف درهم! فكان الناس يقولون: ما أرخص الناقة لولا هذه القلادة الملعونة..!

وأقول كذلك: ما أيسر الإسلام وأيسر أركانه. وما أصدق عقائده وشرائعه. لولا ما أضافه أتباعه من عند أنفسهم. واشترطوا على الناس أن يأخذوا به ويدخلوا فيه!

ولتنتقل كلام ابن حزم في موضوع الشهادة من كتابه «المحلى»..

قال: «ولا ينزع أن يقبل في الزنا أقل من أربعة رجال عدول مسلمين أو مكان كل رجل امرأتان مسلمتان عدلتان فيكون ذلك ثلاثة رجال وامرأتين أو رجلين وأربع نسوة أو رجلاً واحداً وست نسوة أو ثمان نسوة فقط».

ولا يقبل في سائر الحقوق كلها من الحدود والمدعى وما فيه القصاص، والنكاح والطلاق والرجعة والأموال إلا رجلان مسلمان عدلان أو رجل وامرتان كذلك أو أربع نسوة.

قال : « وصح عن شريح أنه أجاز شهادة امرأتين في عناقة مع رجل .
وصح عن الشعبي قبول شهادة رجل وامرأتين في الطلاق وجراح الخطأ ولم
يجز شهادة النساء في جراح عمد ولا في حد .

وصح عن إيس بن معاوية قبول امرأتين في الطلاق .

وعن محمد بن سيرين أن شريحاً أجاز شهادة أربع نسوة على رجل في .
صدق امرأة

وعن الزبير بن الحارث عن ليد قال : إن سكراناً طلق امرأة ثلاثة فشهد
عليه أربع نسوة فرفع إلى عمر بن الخطاب فأجاز شهادة النسوة وفرق بين
الزوجين .

وعن سفيان بن عيينة عن أبي طلق عن امرأة أن امرأة أو طلاق صبياً فقتلته
فشهد عليها أربع نسوة ، فأجاز على بن أبي طلاق شهادتهن .

وعن عطاء قال : أجاز عمر بن الخطاب شهادة النساء مع الرجال في
الطلاق والنكاح . وفي رواية أخرى عن عطاء بن أبي رياح قال : تجوز شهادة
النساء مع الرجال في كل شيء .

قال ابن حزم عن عبد الله بن عمر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
أنه قال في حديث : فشهادة امرأتين تعذر شهادة رجل .

أما ما جاء عن الزهرى الذى قال : مضت السنة من النبي - صلى الله عليه
 وسلم - ومن أبي بكر وعمر أنه لا تجوز شهادة النساء في الطلاق ولا في النكاح
 ولا في الخدود فبلة : لأنه منقطع من طريق إسماعيل بن عياش وهو ضعيف
 عن الحجاج بن أرطاة وهو هالك .

وأما الرواية عن عمر : لو فتحنا هذا الباب لم تشاً امرأة أن تفرق بين رجل

وامرأة إلا فعلت ذلك فهو عن الحارث التنوى وهو مجهول . ثم إن عمر لا يقول هذا الكلام .

انتسبت هذه السطور من عدة صفحات تضمنت آراء فيها الخطأ والصواب ، ومروريات فيها المقبول والم ردود ، ورأيت - حتى أستند نفسي والناس من هذه اللغة - أن أعنصر بالتواتر من كتاب الله ، والمشير من السنة النبوية ! وأن أقر قبول شهادة المرأة في كل شيء وفق النصاب الثابت في ديننا .

ومن حق كل مسلم أن يتجاوز ما وراء ذلك غير منهم ولا مزيف ولأن أتساءل : هل من مصلحة الأمن العام إهدار شهادة المرأة في قضايا يقع الوف منها بمحضر النساء ؟ وهل من مصلحة الفقه والأثر ترجيع مذهب يسيء إلى الإسلام أكثر مما يحسن ... ؟

ثم نختم هذا الباب بقول ابن حزم : « وجائز أن تل المرأة الحكم وهو قول أبي حنيفة ، وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه ول الشفاعة - امرأة من قومه - السوق ، فإن قيل : قد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لن يفلح قوم أنسدوا أمرهم إلى امرأة » قلنا : إنما قال ذلك رسول الله في الأمر العام الذي هو الحلة .

برهان ذلك : قوله عليه الصلاة والسلام : « المرأة راعية على مال زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها » .

وقد أجاز المانكرون أن تكون وصبة ووكيلة ^(١٢) « ولم يأت نص من منها أن تل بعض الأمور ! وبالله تعالى التوفيق ... » .

(١٢) وأجاز الأحناف توكيدها بالخصوصية « الخاتمة »

الغِنَاء

خبر الواحد وقيمه - ابن حزم يناقش ماورد في تحريم الغناء من أخبار - الترويج عن النفس بالمحاجات - نماذج للغناء الشريف - فساد أغلب البيانات الفنية - التطرف في التحريم نزعة غير إسلامية .

محمد صاحب الرسالة الخاتمة أحبّ البشر إلينا وأجلّهم نعماً لدينا ! .
وإذا حُسبتْ أقدار الناس . وفق جهادهم لإنفاذ الحق وإبطال
الباطل . فمحمد أصدقهم قيلاً وأهدىهم سيراً وأقدرهم - بالخلق الجميل .
والصبر الطويل - على إبراز الحقيقة ومحابيتها وتفتيح الجفون المغلقة على سنّها ..
لقد أُنْصَفَ الوحي الإلهي كلّه . وصانه مما عرّاه خلال القرون الأولى .
وعرّفنا بالله الأحد الصمد . وخطّ لنا سبيلاً رضاه في وجه سلطات شرسة
وكهانات خرفة ومجاهير توارثتُ الحال .

ولم يزد يصابر المليّاني ويكافح العطّاغة حتى بلغ رسالة أهدي والغير ، فله في
أعناقنا صنائع المعروف لا ننساها له أبداً ، وإن جهل الجاهلون وجحد
الجاحدون ...

إن نبوة محمد تلقى في هذا العصر تحدياً نلقاء بالازدراء، تشارك فيه
الصهيونية والصليبية والشيوخية يخاولون جميعاً غمط حقه وبخس تراثه ! ولكننا
ننظر إلى ماتقدّم هذه التحلّل للدنيا من عوج وشر وما يقدمه محمد للدنيا - في
كتابه وسته - من استقامة وخير . ونعم أن المستقبل لنا . وأن يوم الإسلام
قادم « فَمَا الرِّزْدُ فَيَذَهِبُ جَفَاءً وَمَا مَا يَنْفَعُ النَّاسُ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » .
والمهم أن نعرف رسالتنا بصدق . وأن نطبقها على أنفسنا بوفاء . وأن
نبلغها إلى الناس سماوية لا يتعلّق بها من أكذار الأرض قدّى ينفرّ منها أصحاب
المفطر السليمة ...

نحن نعلم أن الأنبياء كلهم مبلغون عن الله ، ولا نعجب عندما نقرأ قوله تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله .. » وقوله : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبونكم الله ويغفر لكم ذنبكم ... ». .

فللرسول علينا حق السمع والطاعة . ونحن ندرس سيرته الشهيج نهجه ونقتني أثره ونقتدي به فيما فعل وترك .

ولا خلاف بين المسلمين في أن ممدوحاً أسوتهم الحسنة وإمامهم الأول والصورة العملية الوسيمة لما في القرآن الكريم من هدى ونور .

وعندما نقرر مصادر الأحكام فالإجماع منعقد على أن الأصلين الأولين هما الكتاب وأسنة ... وأن الكتاب لا ترقى إليه شيبة فهو متواتر حرفاً حرفاً ، ونحن نؤمن به جملة وتفصيلاً ..

وما يبلغ من السنة درجة اليقين فسيله سبيل القرآن الكريم لا يزبغ عنه إلا هالك ! ومن علم على وجه اليقين أن رسول الله أصدر أمراً ثم قرر رفعه فقد انسلاخ عن الملة ، لا خلاف في هذا .

وإذا وقعت لغط حول حديث ما فنقاره : هل قال الرسول هذا ؟ أم لم يقله .. ! فالكلام في صحة النسبة وفي ضمانته هذه الصحة لاف جواز التقدُّم بين يدي الله ورسوله ، أو أخذ ما يعجب وترك ما لا يعجب .. !! .

وقد قرأت النسخت الذي كتبه الأستاذ الشيخ يوسف القرضاوي في أسلوب التعامل مع السنة^(٢٠) فوجده أوفق على الغاية وجمع نفس ما يقال في هذه القضية . والحق أن الشيخ يوسف من العلماء الذين يظهرون بقلة في تاريخنا وطعم رسوخ في الفقه والأثر . وبصر بالنص الإلهي وواقع الحياة . بل هو فميدانه إمام من الثقات العدول ، والدعاة الأمانة ..

وأنا أطمع في أن أضيف إلى جهده أشياء ليست استدراكاً عليه ، وإنما

(٢٠) يصدر فرباً عن المهد العالى للتفكير الإسلامي .

هي إضافات توضح مواقف جمهرة المسلمين من السنة الشريفة ، عندما يزكون حديثا من الأحاديث للحظ آخر من ملاحظة الشريعة رأوه أجدر بالترجيع ..

و قبل أن أشرع ما عندي أحب أن أقول : إنني مع الجماعة الكبرى أستظل بلوائها وأنظم في صفوفها وأكره الشذوذ وأرفض الخروج على ما ارتفعه جمهور الأمة ..

إنني أعرف العادات الرهيبة التي تواجهها أمتنا في هذه السنوات العجاف . وأريد أن تبقى جيئتنا متحدة لصون بضمها وكتب عدونا .

لقد تخرجت في الأزهر من نصف قرن ، ومحكث في الدراسة بضع عشرة سنة لم أعرف خلالها إلا أن حديث الآحاد يفديه الظن العلمي ، وأنه دليل على الحكم الشرعي ما لم يكن هناك دليل أقوى منه ، والدليل الأقوى قد يؤخذ من دلالات القرآن القريبة والبعيدة ، أو من السنة المتواترة ، أو من عمل أهل المدينة ...

والغور بأن حديث الآحاد يفدي اليقين كما يفيده المتواتر ضرب من المجازفة المروضة عقلا ونقلأ ومن هنا فقد أفتنا قبول أحكام شئ خالف المبادر من بعض الرويات الصحيحة .

كنت وأنا أدرس الفقه على المذهب الحنفي أسمع المالكين يقولون : من أفتر في رمضان ناسيا فعله القضاء ، أو يقولون : الشك ينقض الوضوء . وهذا يخالف أحكاما مقررة عندنا تعتمد على أحاديث صحيحة ..

وكنا لا نقرأ حرفا وراء الإمام في الصلوات الخمس ، أو نترك البسمة أحيانا لما استقر عندنا من مرويات ، على حين كان الشافعيون يصررون على تلاوة الفاتحة ويرون البسمة جزءا منها ..

ولم نكن نشعر بخضاضة من هذا الاختلاف . وإذا ثار جدل علمي ركذ بعد قليل غير مختلف غضبا ولا أسف ..

وفي المذهب الحنفي يُعرف الفرض بأنه ما ثبت بدليل قطعي ، أما الواجب - وهو دون الفرض - فما ثبت بدليل ظني ، ويعني ذلك أن حديث الآحاد لا يثبت به فرض ، كما أنه لا يقع به تحريم ، بل يفيد الكراهة وحسب ...

وعندما توغلنا في دراسة القرآن الكريم وجدنا المفسرين المحققين يخنون إلى ذلك المنح . يقول صاحب المثار : « التفرقة بين ما ثبت بنص القرآن من الأحكام . وما ثبت بروايات الآحاد وأقوية الفقهاء ضرورية ، فإن من يجحد ما جاء في القرآن الكريم يحكم بكتابه ، ومن يجحد غيره ينظر في عذرها ! فما من إمام محدث إلا وقد قال أقوالاً مخالفة لبعض الأحاديث الصحيحة لأسباب يعذر بها ، وتبعه الناس على ذلك ..

ولا يبعد أحد ذلك عليهم خروجاً من الدين حتى من لا عذر له في التقليد .. » .

ثم نقل صاحب المثار عن ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين قوله : « الربا نوعان جليٌّ وخفٌّ . فالجليٌّ حرم لما فيه من الضرر العظيم والخفٌّ حرم لأنه ذريعة إلى الجليٌّ .. » .

ويرى ابن القيم أن ربا الفضل المعروف في حديث الأصناف الستة إنما حرم من باب سدِّ الذرائع ، والواقع أن ربا الفضل لا يكاد يوجد في الحياة العملية ! فما معنى أن تبيع جراماً من ذهب بجرام من ذهب مثلاً بمثل ، هاء وهاء ؟ .

المقصود إغلاق الباب من بعيد على ربا النسبة ... والحق أن الحديث المتفق عليه في تحريم التفاضل والإرجاء بين الأصناف الستة لا يفهم إلا في ضوء بيان ابن القيم ..

إن العقائد والأركان والمعلم الرئيسة لدينا تؤخذ مما نقل بالتواتر ، أو مما استفاضت شهرته من الصلاح أما الأحكام الفرعية فلا بأس عند تقريرها من

النظر في أحاديث الآحاد ، وقد بذل علماؤنا جهداً مقدوراً مشكوراً في
ضبطها ، إنهم لم يهدروا نقل عدل ضابط ، بل أعطوه ما يستحق من اهتمام
بيد أننا في ميدان الشهادة لا نخفي دماء الناس وأعراضهم وأموالهم بشهادة
رجل واحد منها كانت جلالته : إننا نطلب شاهدين أو أربعة في الإثبات .
ودين الله أعلم من دنيا الناس ! .

ذلك ، وهناك قضايا لا يجوز فيها التساهل لخطورتها ، وقد شعرت بالغيط
والخرج وأنا أقرأ أن يهودياً وغداً سحر النبي عليه الصلة والسلام وأعجزه عن
مباشرة نسائه مدة قدرها ابن حجر بستة شهور ! أكذلك تناول القمم ؟ .

قالوا : كما يستطيع سفيه أن يقذفه بمجرد أو كما يستطيع مجرم أن يصبه
بجروح ! وهذا اعتذار مرفوض . فإن السحر سلط على الإرادة والتفكير وهذا
مستحيل ، لاسباباً ووسائل تسلط أرواح شريرة ، أو بعض الجن .. على
الجهاز العصبي للإنسان ، فيوقعه في اضطراب وحيرة ...

وقد سرف أن الشيخ محمد عبده رفض هذا الحديث ، وساعف أن الرجل
الضخم أثّم في دينه لهذا الموقف المعمظم لقدر الرسول ! .

وسمعت الشيخ محمد أحمد عثمان رحمة الله - وكان وكيلاً للجمعية
الشرعية في مصر - يقول : إن في سند حديث السحر مقالاً . فقلت له :
لست من علماء هذا القرن ! وكل ما لاحظت على السند أنه يجعل نزول
الموذجتين في المدينة . وهذا في «علوم القرآن» . وعند كتاب المصاحف نزلتا
بمكة ...

إن أطيل النظر في كتب السنة ، معتقد أن بها كنوزاً ثمينة من تراث
النبوة ، وأستهدي بفطريتي في تجنب الضعيف وقبول الصحيح ، وهي فطرة
صقلتها التلاوة الدائمة لكتاب الله ، والحب الصادق لهذا الوحي المبارك .
والدراسة الحسنة لناهج الفقهاء الأربعة الكبار ومن يليهم من أهل الذكر وقادة
التفكير . ! .

ومن هنا ابعتد عن أحاديث تركها أبو حنيفة ومالك وغيرهما ، وإن روواها المشتغلون بجمع الأحاديث .

لقد تركها الأئمة بطلطف وأدب ، وأمامي الآن تفسير المنار لقوله تعالى : « إلا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يخزنون » يقول الشيخ رشيد : لم نر في الأحاديث الصحيحة ما هو أقرب إلى كلام الصوفية منه إلى كلام الله عز وجل إلا حديث « من عادى لي ولها فقد آذته بحرب .. » !! .

وقد انفرد به البخاري وفي سنته كما في متنه غرابة ! قال الحافظ ابن رجب : هذا الحديث انفرد البخاري بإخراجه دون بقية أصحاب الكتب .

إلى أن قال : وهو من غرائب الصحيح ، انفرد به ابن كرامة عن خالد ابن عتلد ، وليس في مستند أحمد ، مع أن خالداً هذا تكلم فيه الإمام أحمد وغيره وقالوا : له مناكير ! ثم قال : وقد رُوِيَ من وجوه أخرى لا تخلو كلها من مقال ! وذكر الحافظ في تهذيب التهذيب اختلاف أئمة الجرح والتعديل في خالد ، ومنه تصريح جماعة بروايته للمناقير وفي الميزان للذهبي : يكتب حديثه ولا يخجع به ! الخ ..

قال الشيخ رشيد : وأما الغرابة في متن هذا الحديث فهو قوله تعالى - « والحديث قدسي - ولا يزال عبدى يتقرب إلىَ بالتوافق حق أحبه ، فإذا أحبته كنت سمعه الذى يسمع به .. الخ الذى استدلوا به على الحلول والاتحاد وقد أُولئِلُ العلماء ، وبيَّنَ أَمْثَلُ تأوِيلِ له عند الكلام على حب الله تعالى ... »

والإنصاف يقضى علىَ بأن أُوكِدَ مكانة صحيح البخاري فهو بلا ريب أدق كتب السنة ، ومن الإنصاف كذلك توكيده احتواء كتب السنة على آلاف الأحاديث المقبولة ، بذل الأسلاف في تدوينها جهوداً مضنية ، ولا تتم الإفادة منها إلا بتعاون الفقهاء ، والمحدثين جمِيعاً على ضبط معانِيها ومعازِبِها .

والأسأة التي نعاني منها ، ونخشى بلاءها على الصحوة الإسلامية تجلي « من قبل قوم يسمون أنفسهم « الأخوة أهل الحديث » نلحظ عليهم عيوباً ثلاثة :

اكتاشم بالروايات الواهية ، وبناء العالى فوقها .

ثم سوء فهمهم للصحاح وتعصيمهم لما يفهمون من أخطاء .

ثم عجزهم عن إدراك الحكمة القرآنية ، ووقوفهم بعيدا عن محاور القرآن
وخيالاته ...

وقد نستطرد في الشكوى فنقول : إن من هؤلاء من يرفع خسيسته بالطعن
في الأئمة الكبار ، ومن يوارى سوانحه باللجاجة في تكبير أحكام محددة أو
تبسيم خلاف تافه ...

ولأكثن صرخنا في توضيح ما أخافه . منذ أيام وقف بين الإسلاميين في
الجزائر من يصبح بأعلى صوته :

إن المرأة في الإسلام خلقت لكي تلد الرجال ! لا عمل لها إلا هذا ..

وهذه الصيحة تطلق والغزو الثقافي الديني والشيوخى يعد المرأة بالعلم
والكرامة واستكمال الشخصية والمشاركة في إصلاح الأرض وغزو الفضاء !
قلت للإسلاميين وأنا كاسف البال : قنوا هذا الجحون قبل أن ترتد الجزائر
وتوستول عليها فرنسا مرة أخرى ..

هذا المتحدث المسكين باسم الإسلام لا يعرف إلا حديثا مكذوبا أن المرأة
لا ترى رجلا ولا يراها رجل وأنها خلقت ليفترشها فحل وحب !

وهذا متحدث إسلامي آخر يرى أن خروج الرسول في « بدر » يدل على
جواز أن تكون الحرب في الإسلام هجومية ! بل يدل على أن الإسلام قام
بالسيف ! .

يقع هذا الفهم وال المسلمين لا يقدرون على التقاط أنفاسهم من وطأة
الهجوم عليهم ! لا يصنعون سنانا ولا يقدمون برهانا ... ولا أمضى في هذه
الشكاوة فالأمر يطول ..

من حق المهتمين بالأحاديث الضعيفة أن يذكروها بعيداً عن دائرة العقائد والأحكام الشرعية .

فإن النساء والأموال والأعراض أكبر من أن تتناول فيها شائعات علمية وكذلك أصول التربية ، وتقاليد المجتمع ، والشاعر التي يشخص إليها الرأي العام . وتعد منارات على حقائق الإسلام وأهدافه في الحياة ... يمكن الالتزام بالأحاديث الضعيفة في قضايا هامشية أو حيث تكون زيادة تنبئ إلى ما قررته الأدلة المختومة في كتاب الله وسنة رسوله .. وهذا هو منهج علائنا من قديم ، ولكن طوائف من العوام ، أو من ذوى الأغراض حادوا عن هذا المنهج فرأينا أشياء تهتاج لها جماهير ما كان السلف الأول يأبه لها !! .

وتم ذلك على حساب حقائق الإسلام الكبرى في مجال العقيدة والشريعة ، و مجال الإدارة والاقتصاد والسياسة !

بل أستطيع القول بأنه تم على حساب الأخلاق والتركية التي بعث بها صاحب الرسالة العظيم ..

ومن الدعاء من يهتم بقضية رفع البداءين قبل الركوع وبعده أكثر مما يهتم بتوفير الحشوع والقنوت بين يدي الله سبحانه وتعالى . وخلاف الفقهاء في هذه القضية معروف ...

والبعد الذى لاحظناه عن منهج السلف يرجع إلى انتشار الأحاديث الضعيفة ، ويرجع قبل ذلك إلى انتشار مقوله لم يكن لها رواج بين الفقهاء القدامى . وهى أن حديث الآحاد يفيد اليقين العلمى الذى يفيده المتواتر !

إن الحديث الصحيح له وزنه ، والعمل به في فروع الشريعة له مساغ وقبول ، وتركه لأدلة أقوى منه أمر مقرر مأнос بين فقهائنا ، أما الرزعم بأنه

يفيد اليقين كالأخبار المتوترة فهي مجازفة مرفوضة ...

وقد قال لي أحد المتسكين بأن خبر الواحد يفيد اليقين : إن المدرس - وهو رجل واحد - يؤمن على التعليم ، وأن السفير - وهو رجل واحد - يؤمن على أخبار دولته ، وأن الصحافي في الحديث الذي ينقله يؤمن على ما يذكره ... الخ .

قلت : إن العنونات التي تنقل بها المرويات ليست مثل مادكرت من الواقع .

وإذا فرضنا جدلا أنها مثلها من كل وجه فإن اليقين لا يستفاد من هذه الواقع ، فإن المدرس قد يخطئ فيصح نفسه أو يصحح له غيره ! والسفير ترقبه دولته وقد تراجعه فيما بلغ . وكذلك الأحاديث الصحفية ، إن ما ينفعها من قرائن النشر والإقرار أو الرد يجعل الثقة بها أقرب .

ونحن مع تحرى عدالة الشاهد لانكفى بشاهد واحد ، وربما طلبنا أربعة شهادة حتى نطمئن إلى صدق الخبر ..

والشاهدان أو الأربعة ينشئون ظنا راجحا ، ولا ينشئون يقينا ثابتا . ييد أن حماية المجتمع لاتتم إلا بهذا الأسلوب . أسلوب قبول الظن الراجح ! وهو ما قامت عليه الشرائع والقوانين في دنيا الناس ...

وذلك كله غير بناء العقائد في النفوس . وإقامة الأمم عليها ، إن العقائد أساسها اليقين الحالص الذي لا يتحمل أثارة من شك ..

وعلى أية حال فإن الإسلام تقوم عقائده على الموارد القل والثابت العقل ، ولا عقيدة لدينا تقوم على خبر واحد ، أو تخمين فكر ..

ثم ينبع دور التشريع في تحديد مسار الأمة العام . ومسالك الأفراد الخاصة ، وعندنا في هنا من النصوص ما هو قطعى الثبوت والدلالة . وما هو

ظني التبوت والدلالة ، وما هو قطعي التبوت ظني الدلالة ، وما هو ظني التبوت قطعي الدلالة !

واستفادة الأحكام من مصادرها لها علم خاص بها وطرا رجال ثقات وعلى العامة أن تسمع وتطيع .

وقد رأيت في هذه الأيام من يسمى نفسه أمير جماعة . والجهد الذي يتضمن له عرقاً وهو يقوم به ، هو إنشاعة النقاب بين النساء ، أو إنشاعة الجلباب بين الرجال ، أو تغريم الذهب على النساء والرجال جميعاً ، أو ترك شعر اللحية ينمو فلا يؤخذ منه شيء حتى لقاء الله !!! .

أهذه غيابات تكون لها جماعات ؟ والغرب أن الأحاديث الواهية والخلافات الفرعية لها حظوظ متناقضة أو طوالع سعد وحسن ! ! فلست تدرى لماذا عاشت هذه ؟ ولماذا ماتت تلك ... ؟

في مصر تحفل العامة بليلة النصف من شعبان وليس لهذه الليلة القيمة التي تعطى لها الشأو الرفع . وفي حديث مع أحد الأخوة من علماء الخليج قال : إن للأحاديث الموضوعة والواهية سوقاً رائجة عندكم ! قلت : للأسف وعندكم كذلك ! .

قال : نحن نتحرى الأحاديث التي نصدر وفقها أحكامنا ! فضحك و أنا أرد عليه بإيجابة سريعة :

أظن الأحاديث التي وردت في ليلة النصف أقوى من الأحاديث التي وردت في تحرم الغناء !

فأجاب مستنكراً : هذا غير صحيح ! إن تحرم الغناء والله ثابت في السنة النبوية ..

قلت له : تعال نقرأ سوياً ما قاله ابن حزم في ذلك الموضوع ، ثم انظر ما تفعل ..

قال ابن حزم : « وبيع الشطرنج والمزامير والعيدين والمعازف والطناشير حلال كلها ومن كسر شيئاً من ذلك ضمه . إلا أن يكون صورة مصورة - تماماً بحسبها - فلا ضمان على كاسرها . وتضمين المعنى على هذه الأشياء واجب ، لأنها مال من مال مالكها » .

قال : « وكذلك يجوز بيع المغنيات - من الجواري - وابتاعهن ! وأساس الجواز في كل ما ذكرنا قوله تعالى : « خلق لكم ما في الأرض جميعاً » ^(٤٤) وقوله : « وأحل الله البيع » ^(٤٥) ، وقوله : « وقد فصل لكم محرم عليكم » ^(٤٦) - يعني أن الأصل في الأشياء الإباحة . وأنه لا يحرم إلا بنسق . وقد فصل الله محرم في كتابه وعلى لسان نبيه . ولم يأت نص ينحرم شيء مما ذكره من البيع السابقة » ^{٤٧} ذكر ابن حزم أن أبا حنيفة يوجب الضمان على من كسر شيئاً من آلات اللهو التي سماها آنفاً !

قال : « واحتاج المانعون بآثار لاتصح . أو يصح بعضها ولا حجة لهم فيها .. منها عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الله حرم المغنية وبيعها وثمنها وتعليمها والاستئذان إليها » قال ابن حزم وهو ينافق سند هذا الحديث : « فيه من الرواية لبنة » وهو ضعيف ، وسعيد بن أبي زرین ، وهو مجهول لا يدرى من هو ؟ عن أخيه ! وما أدرك ما عن أخيه ! هو ما يعرف وقد سمي فكيف أخوه الذي لم يسم ؟ .

وعن علي بن أبي طالب قال رسول الله : إذا عملت أمني خمس عشرة حصلة حلّ بها البلاء ..

منهن « واتخذوا القينات والمعازف . فليتوقفوا عند ذلك ريجا حمراء ومسخاً وخشماً » .

٤٤) (٤٥) المقرة : ٢٩ . ٢٧٥

٤٦) الأنس : ١١٩

قال ابن حزم في رواة هذا الحديث : لاحق بن الحسين وضرار بن علي والمحصي مجاهلون . وفرج ابن فضالة متوفى ...

وعن معاوية قال : « نهى رسول الله عن تسع ، وأنا أنهاكم عنهن الآن ، فذكر فيهن الغناء والنوح » قال ابن حزم : في رواته محمد بن المهاجر ضعيف ، وكيسان مجاهل ! .

وروى أبو داود بسنده عن شيخ (!) عن ابن مسعود يقول : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إن الغناء ينبت النفاق في القلب ! .

يقول ابن حزم : الرواية عن شيخ عجب جدا ! من هذا الشيخ ؟ .
وعن أبي مالك الأشعري أنه سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : « يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها ، يضرب على رؤوسهم بالمعاذف ، والقينات . يخسف الله بهم الأرض » .

قال ابن حزم وهو يناقش السندي : معاوية بن صالح ضعيف ، وليس فيه أن الوعيد المذكور إما هو على المعاذف ، كما أنه ليس على اتخاذ القينات ، والظاهر أنه على استحلالهم الخمر ، والديانة لا تؤخذ بالظن .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله : « من جلس إلى قينة فسمع منها صب الله في أذنيه الآتك يوم القيمة » والآتك هو الرصاص المذاب .

قال ابن حزم : هذا حديث موضوع فضيحة ، ماعرف قط عن طريق أنس !! .

وعن مكحول عن عائشة قالت : قال رسول الله : « من مات وعنه جارية مغنية فلا تصلوا عليه » ..

قال ابن حزم : مكحول لم يلق عائشة . وهاشم وعمر الراويان مجاهيل !

وهناك حديث لأندرى له طريقاً وهو «نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن صوتين ملعونين صوت ناححة وصوت مغنية» وسنته لا شيء ! .

وعن أبي أمامة سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « لا يحمل بيع المغنيات ولا شراؤهن ، وئنه حرام ». وقد نزل تصديق ذلك في كتاب الله وهو « ومن الناس من يشتري هو الحديث ليصل عن سبيل الله بغير علم ويتحذها هزوا » ^(٤٧) ، والذى نفسي بيده ما رفع رجل قط عقيرته بغناه إلأ ارتدفه شيطاناً بضربان على صدره وظهره حتى يسكت » . وقد نظر ابن حزم في الرواية فوجدهم بين ضعيف ومتزوك ومحظوظ .

ولعل أهم ما ورد في هذا الباب ما رواه البخاري معلقاً عن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « ليكون من أمني قوم يستحلون الخنزير والخمر والمعازف » .

ومعلقات البخاري يؤخذ بها . لأنها في الغالب متصلة الأسانيد ، لكن ابن حزم يقول : إن السند هنا منقطع . لم يتصل ما بين البخاري وصودقة بن خالد راوي الحديث ..

نقول : ولعل البخاري يقصد أجزاء الصورة كلها ، أعني جملة الحفل الذي يضم الخمر والغناء والفسق . وهذا حrum بإجماع المسلمين ..

قال ابن حزم عن تحريم الغناه : « لا يصح في هذا الباب شيء أبداً ، وكل ما ورد فيه موضوع ، والله لو أنسد جميعه أو واحد منه عن طريق الثقات إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ماترددنا في الأخذ به .

ثم نظر ابن حزم في الآية الكريمة : « ومن الناس من يشتري هو الحديث يفضل عن سبيل الله ..

(٤٧) لقمان : ٦

فني أن تكون في الغناء وقال : إن نصها يشرح المراد منها ، فإن من يرید
الإضلal عن سبل الله واتخاذها هزوا كافر بإجماع المسلمين .

قال : ولو أن امرءاً اشتري مصحفاً ليصل عن سبل الله لكان كافراً .. !

إن الله ما ذم قط من روح عن نفسه بشيء من الهر ليعينه على الكثير من
الحمد ، وإنما الأعمال بالنيات ولا حرج على مسلم أن ينظر في بستان متزهاً ، أو
يتقل هنا وهناك متفرجاً ليريح طبعه المكبل ..

والحق أن الغناء كلام ، حسنة حسن وقيحة قبح ! هناك أغان آئمة ، تلقى
في ليالٍ ظالمٍ مظلمة وإن كثُر فيها الأضواء ، لا تسع فيها إلا صرائح الغرائز أو
فبح الرغبات الحرام ..

وهناك أغان سليمة الأداء شريفة المعنى قد تكون عاطفية وقد تكون دينية
وقد تكون عسكرية تجاوب التفوس معها . وغضى مع ألحانها إلى أهداف
عالية ...

كنت مع رفقة طيبة تتدلى في فندق محافظ بمحى « الهرم » ووصل إلى
أسماعنا صوت جذب انتباхи . وألقيت إليه زمامي ، كأنه صوت ناصع
حزين يقاوم الجحون والاسترخاء ..

وأخذت أثيئن الألفاظ التي تصدر من مسجل موضوع يأخذى الزوايا ،
فإنما هي للبوصيري أو بتعبير أدقَّ تشطير لأبيات من البردة ، كان البوصيري
والشاعر الآخر يدوران فيها حول البيت المشهور في وصف الرسول الكريم :
كأنه - وهو فرد - من جلالته فعسكر حين تلقاء وفي حشم !

لم تكن هناك ألحان مصاحبة تثير المشاعر ، كان صوت المبتلى الشادى
مزيناً من إيمان وحب جعلاني أطوى العصور القهقرى . وأمثال في حضرة
صاحب الرسالة ، وهو في مجلسه الروحي يوجه ويرى ، وينخلق الجيل الذى

سينشي حضارة أرق وأدق . ويلقى بنور الإنسانية الجديدة التي ستتفقد العالم من
جبروت الرومان والفرس ...

كان فردا يجلس كما يجلس العبد ويأكل كما يأكل العبد ، ولكن "الأشعة
المبنية من أركانه تجعل الأ بصار تنحسر عنه . و تجعل الأ باطرة والقياصرة يهonian
عند قدميه ... !

إن الفتاء الرقيق المتواضع الذي سمعته لا يزال يؤثر في نفسي كلما استحضرت
جرسه ، بعد ما صار ذكرى ..

قال الإمام الشاطبي في الجزء الأول من كتابه «الاعتصام» : إن قوما أتوا
عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالوا : يا أمير المؤمنين إن لنا إماما إذا فرغ من
صلاته تئن !! .

فقال عمر : من هو ؟ فذكروا له الرجل . فقال : قوموا بنا إليه ، فإنما إن
وجهنا إليه - من يحضره - يظتنا تجسّنا عليه أمره .

وقام عمر مع جماعة من أصحاب النبي صل الله عليه وسلم ، حتى أتوا
الرحن وهو في المسجد . فلما نظر إلى عمر قام إليه واستقبله قائلا : يا أمير
المؤمنين ما حاجتك ؟ وما جاء بك ؟ .

إذا كانت الحاجة لنا كنا أحقًّا بذلك منك أن تأتيك ، وإن كانت الحاجة
لث فاحقًّا من عظمناه خليفة رسول الله ! . فقال له عمر وينظر بلغفي عنك
أمر ساعني ! فقال : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : أتمنجّن في عبادتك - من
الجنة والاتضاع - ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين . لكنها عضة أمعظ بها نفسي ! .

قال عمر : قلها . فإن كانت كلاما حسنا . قلته معك . وإن كان قبيحا
نهيتك عنه ... فأنشد الرجل هذه الآيات :

وَرَوَادِ كَنْمَا عَاتِبَتْهُ فِي مَدِي الْهَجْرَانِ يَعْنِي تَعْيَى !
لَا أَرَاهُ الدَّهْرَ إِلَّا لَاهِيَا فِي تَمَادِيهِ ، فَقَدْ يَرُحُ فِي

فنيَّ العمر كذا في اللعب !
قبل أن أقصيَّ مني أربَّي
ضيَّقَ الشَّبَّابُ علىَّ مطْلُبِي
في جميلِ ، لا ولا في أدبِ
رَاقِيَ المَوْلَى ، وَخَافَ ، وَارْهَبَ !

يُنْفَرِّسِ السَّوْءَ مِنْ هَذَا الصَّبَابِ ؟
وَشَبَابِيَّ بَانَ عَنِّي فَضَّلَّ
مَا أَرْجِي بَعْدَهُ إِلَّا الْفَنَّا
وَبِحَسْبِ نَفْسِي لَا أَرَاهَا أَبْدَا
نَفْسِيَّ لَا كُنْتُ وَلَا كَانَ الْهُوَ !

فَقَالَ عَمْرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرَدَّاً الْبَيْتَ الْآخِيرَ :

نَفْسِيَّ لَا كُنْتُ ، وَلَا كَانَ الْهُوَ ! رَاقِيَ المَوْلَى ، وَخَافَ ، وَارْهَبَ !
ثُمَّ قَالَ عَمْرٌ : عَلَى هَذَا فَلِيْغَنْ مِنْ غَيْرِ ... !

أَقُولُ : وَلَنَا فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ ! كُلُّ إِنْشَادٍ يَبْعَثُ عَلَى السَّمْوَ وَالْجَدَّ
وَالْأَسْتَقْامَةِ فَهُوَ غَنَاءُ حَسَنٍ ، وَمَا أَحَبُّ أَحَدًا يَرِيْنَيْنَ أَنْقَلَ اللَّهَ مِنْ عَمَرٍ ! أَوْ
يَتَرَأَّسَهُ مَا أَقْرَأَهُ وَدَعَا إِلَيْهِ .

وعنِّيْمَأْ سُعَمْ قُولْ شُوقْ

وَبِيَارِبِ هَلْ تَفْقِي عَنِ الْعَبْدِ حَجَّةَ ؟ وَفِي الْعَمَرِ مَا فِيهِ مِنْ الْمَفَوَاتِ !
أَنْذَكِرُ فَضْلَ اللَّهِ فِي جَعْلِ الْحَجَّ تَوْبَةً كَامِلَةً ! لَكِنْ صَوْتُ الْمُغْنِيَّةِ الْمُضَارِعَةِ يَحْرُكُ
أَشْجَانَ الْأَخْطَاءِ الْقَدِيمَةِ ، كَمَا يَحْرُكُ الْأَمَالَ فِي عَفْوِ اللَّهِ ، وَهَذَا كَلِهُ لَوْنُ مِنَ الْعَبْدِيَّةِ
الْمُطْلُوَيَّةِ لِلَّهِ سَبِيْلَهُ .

وَكَمَا يَنْشِدُ الْمَرْءُ الْخَلَاصَ مِنْ مَاضِ مَرْهُقٍ ... يَنْطَلِقُ الشِّعْرُ وَالْغَنَاءُ إِلَى
اسْتِقْدَامِ الْأَمَةِ الإِسْلَامِيَّةِ مِنْ حَاضِرٍ مُؤْسِفٍ . مَعَ مَنْاجَاهُ صَادِقَةٍ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ..

شَعْوِيْكَ فِي شَرْقِ الْبَلَادِ وَغَرْبِهَا كَأَصْحَابِ كَهْفٍ فِي عَمِيقِ سَبَاتِ !
بِأَيْمَانِهِمْ نُورَانِ دَكْرُ وَسَنَةٍ ! فَمَا بِالْهُمْ فِي حَالَكَ الظَّلَمَاتِ ؟

يَقُولُ الدَّكْتُورُ عِبَادَةً : إِنَّ أَبَا حَامِدَ الْغَزَّالِيَّ - اقْتِدَاهُ بِالشَّافِعِيِّ - يَرِيْ أنَّ
الشِّعْرَ كَلَامٌ . حَسَنَهُ حَسَنٌ وَقَبِيْحَهُ قَبِيْحٌ . وَأَنَّ سَمَاعَ الْغَنَاءِ مِنْهُ مَا هُوَ مَبَاحٌ وَمِنْهُ

ما هو مستحب . وما هو واجب وما هو مكروه . وما هو حرام !! ثم يصف الغناء إلى سبعة أقسام :

١ - إلهاب الشوق إلى زيارة الأماكن المقدسة . وابتعاث المسلمين في الأقطار البعيدة كي يشدوا الرجال إلى الحرمين وذلك يbedo في قصيدة شوق :

إلى عرفات الله ياخير زائر عليك سلام الله في عرفات !

٢ - إثارة الحمية للقتال . والدفاع عن العقائد والأوطان . وأغلب

الشعوب تضع لبنيها نشيداً قومياً يتغرون به جماعات ..

وخير نموذج لهذا النوع من الغناء ماجمعه أبو تمام في ديوان الحماسة !

وليت أمتنا نحسن الغناء بمعانى القوة المنشطة في قصائده

٣ - وصف المعارك والمبارات وثبات الرجال في الساعات الحرجة

٤ - الرثاء اخرك للأحزان النبيلة ! والذى يعبد للنفس الفهم الصحيح
لطبيعة الحياة الدنيا . وهذا الرثاء قد يكون بكله سلبياً متوجعاً مثل قول متنم
ابن فويرة يرثى أخاه مالكا :

يقول: أتبكي كل قبر رأيته ؟ نغير ثوى بين اللوى فالدكادك

فقلت له: إن الشجاع يبعث الشجاعاً ! فدعني . فهذا كله قبر مالك !

وقد يكون رثاء مفعماً بتجريد الفضائل والاتفاق حولها وذلك كقول دريد

ابن الصمة :

تقول: ألا تبكي أخاك ؟ وقد أرى مكان انبكأ لكن بنت على الصبر !

فقلت: أعبد الله أبكي أم الذي له الجدال الأعلى قبلي بي بكر؟

أبى القتل إلا آل صمة إنهم أبوا غيره والقدر يحرى إلى القدر !

٥ - وصف ساعات الرضا والسرور . احتفاء بها واستيقاء لآثارها .

٦ - الغزل الشريف . وشرح عواطف الحبّين وارتقاب جمع الشمل .

وربما كان للألم والأفراد في هذا الميدان هبوط وهزل ، لكن هناك مشاعر جديدة بكل إعجاز مثل :

مزارك من ريا وشعباكما معا
وتجزع أن داعي الصباية أسماء
وقل لتجد عندنا أن يودعنا
وما أحسن المصطاف والمتربيا !
إليك ، ولكن خل عينك تدمعا
عن الجهل بعد الحلم أصلنا معا
على كبدى من خشية أن تصدعا
حرام على الأيام أن تجتمعنا

حنت إلى «ربا» ونفسك باعدت
فلا حسن أن تلقى الأمر طائعا
فها ودعا بجدا ومن حل بالحوى
بنفسى تلك الأرض ما أطيب الربا
وليس عثبات الحوى برواجع
بكى عيني اليسرى فلما زجرتها
وأذكر أيام الحوى ثم أثني
كأننا خلقنا للنوى وكأننا

7 - وصف الأمجاد الإلهية ، وما يليق بذى الجلال والإكرام من تحميد
وإعظام .

وارتفاع المغنين إلى مستوى المعانى التي يترمذون بها أمر صعب ! وتجادع
الأغنية يعود بعد شرف المغنى إلى حسن الأداء وجودة اللحن . وتجتمع
الأغمام التي تخدم في النفس البشرية ما يتحقق الاستفارة المنشودة !

وقد استمعت إلى بيت شوق :

وللحربية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق !

وشعرت بأن المغنى فشل فشلا ذريعا في تلحينه . كان ينبغي أن يتعاونون
النغم والأداء على إبراز صوت المطارق التي تهوى على الأبواب الموصدة ،
وجنوار المجاهدين وهم يهاجمون السجون التي قبعت داخلها الجاهير المستعبدة ،
وعزائم الشهداء وهم يجودون بأنفسهم فداء للحق ، وأنين الجرجي . وعند
المكابرین ... إن حشودا من الأصوات المزجورة . والجيوش الملتجمة كان يجب

أن تبرز خلال تلحين القصيدة وعند غناء هذا البيت ذاته .. لكن الملحن المغنى
ليس رجل هذه الملحة .. !

والواقع أن البيئة الفنية - كما تزامى إلينا أنباوها - تعيش في أرض الغرائز
وتحسن الطبل والزمر وهي تخدو العواطف الرخيصة ، وما أحسها تنهض إلى
هدف عال .

أذل ذلك سر تحرم بعض الوعاظ للغناء ؟ ربما ، إنه ليس لدينا نص يحظره !
وإن أولى الغيرة ينظرون إلى سيرة المشتغلين بالغناء والموسيقى ثم يرفضون هذا
النقط من السلوك . ويستنكرون ما يلبسه وما يصاحبه من آلات . وجو
عابت ..
لكن الإنصاف يفرض علينا غير ذلك .

من حملة الأقلام من عاش ذيلا حكام الجور ، يتلون كالحرباء في خدمتهم .
ويصبح ويسي و هو يخادع الجماهير عن حقوقها و حرياتها . فهل هذا البغاء الصحفى
يجعل الصحافة باطلة ؟ كلا !

ومن رجال الدين نفسه من يحيا بلا دين ! بل ربما كان عائقاً عن الدين
كما قال جل وعلا في وصف بعض الكهان : « إن كثراً من الأخبار والرهباني
لما يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . »^(٤٨)

فهل ذلك يعني أن الدين باطل ؟ كلا !

وهنالك فنانون لا يساوون قلامة ظفر ! وهنالك أيضاً من صliftت معهم في
جماعات عامة ومن رأيهم في قوافل الحجاج والمعار يزدون المناسب بآدب
وتقوى ! .

وأذكر أنني عندما كنت مدرساً بمكة المكرمة ، جلست سأمان في بيتي يوماً

(٤٨) التوبة : ٣٤

أغاني من بعض المتأub ققلت : أسلى عن هموي بشيء . وفتحت الراديو
وسنفي أن كانت به أغنية أحبتها .

وما كدت أمضى مع الأبيات والألحان حتى طرق الباب طالب أشرف على
رسالته ! .

وخليل إلى أن أستطيع السماع مع وجوده ولكنه أقسم على أنأغلق
الراديو ! .

ورأيت إكراما له أن ألبى رغبته، وأكملت وحدى بعض كلمات الأغنية:

أين ما يدعى ظلاما يا رفيق الليل أيننا ؟
إن نور الله في قلبي ! وهذا ما أراه !

وصاح الطالب : ما هذا ؟ قلت له : كل يعني في الأئم بليله ، إنني
أعني شيئا آخر ! .

قال : أما تعلم أن الغناء حرام كله ؟ قلت له : ما أعلم هذا ... !

ثم أقبت عليه بعد أقول له : إن الإسلام ليس دينا إقليديا لكم
وحذكم . إن لكم فقها بدويا ضيق النطاق ! وعندما تضعونه مع الإسلام في
كتفة واحدة . وتقولون : هذه الصفة لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فستطيلش
كتفة الإسلام وينصرف الناس عنه

وهذا ظلم كبير لرسالات الله وهذاياته !! .

قال : كيف ؟ قلت له : تستطعون إعلان حرب شعواء على الغناء
الوضيع ، وستجدون من يؤيدكم من أهل الأرض ! أما الزعم بأن الإسلام
حرب على الفن كله خيره وشره فلا ! .

إن أهل القارات لهم غناء يجتمعون عليه . فلما ذكرت من الطيب ثم
دعوا لهم ما يستحبون .

وكتب الأستاذة المهدية « مرم جميلة »^(٤٩) فصلاً عن الإسلام والفنون في كتابها « الإسلام في النظرية والتطبيق » وذكرت أن الأوربيين يحترمون احتراماً بالغاً « بتهوفن » و « باخ » في الموسيقى و « فردي » و « واجز » في الأوبرا و « شكسبير » في المسرح .. الخ. ويلقبونهم بالسادة العظام ، ويعتبرون تكريس الحياة لأى فرع من هذه الفنون الجميلة من أشرف المقاصد ، وأكثراًها جدًا !!

قالت : وإذا عرفت موهبة شخص ما بالتفوق الفنى - غالباً ما يقع ذلك بعد سنوات من رحيله - حسب في زمرة المعلماء الخالدين ! وتحقق الروايات أن التقليديون خلودهم الفنى عندما تطبع كتبهم مرات ومرات وتندحر على أنها أعمال أدبية عظيمة يلزم كل طالب في المدارس أن يدرسها .

ويخلد مؤلفو الموسيقى السيمفونية ، والأوبرا بأداء إنتاجهم مراتاً وتكراراً في قاعات الاحتفالات العظمى في المدن الكبيرة كما يكرم أعظم المغنين والعازفين بتسجيل أعمالهم على الأشرطة والاسطوانات .

قلت لنفسي : ما المنهج الإسلامي الذي أقلمه هذه الأوساط ؟ هل أطلب إليهم إلغاء الفنون الجميلة جملة وتفصيلاً؟

علام أعتمد في هذا الطلب ؟ على جملة من الأحاديث الواهية والموضوعة لا وزن لها في مجال التحقيق العلمي ؟.

إني عندما أفعل ذلك أكون كأبي العلاء المعري الذي قال لكل إنسان :
غدوت مريض الدين والعقل والحجوى لتعرف أبناء الأمور الصالحة !
فلا تتقى الناس به واستمعوا إليه رأوه نباتاً يعرض الأمور الصحيحة عنده
على أنها ترك أكل اللحم !

إني أطلب من الأوربيين وغيرهم ترك التجسيد والتعديд لإصلاح

(٤٩) سيدة من أصل يهودي عاشت في بيته نصرانية بالولايات المتحدة الأمريكية ثم أسلمت

عفائهم فهل أضع عائقاً أمام هذا الإصلاح الخطير بدعوتهم إلى ترك الغناء والموسيقى؟ فما يكون موقعاً من قوله تعالى في كتابه المصنون «قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحللاً قل الله أذن لكم ألم على الله تغرون . وما ظن الذين يغترون على الله الكتب يوم القيمة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكون»^(٥٠)

أستطيع أن أحرم نحت المغایل ، أستطيع أن أحرم كل صورة عارية .
أستطيع أن أحرم الرقص مفرداً ومزدوجاً ، إن هذه فنون رديئة وليس فنوناً جميلة ...

أستطيع أن أبرز الضوابط الإسلامية لسلوك الأفراد منها كانوا عباقرة . فالعقل يرى في أي علم أو فن يجب أن يستشعر نعماه الله عنده ، وأن يكون أتقى الله وأحفظ لحدوده . وأرفعي حقوقه من الآخرين ..

والمصادر الوثيقة لتحديد ما نفعل وما نترك وما نأمر وما ننهي ، هي كتاب الله وسنة رسوله ، لا الشائعات الطائرة في ميدان العلم الديني ! .

قرأت السطور التالية^(٥١) عن تعلق الأوربيين بالفنون الجميلة ثم ضربت كفها بكتف من شدة العجب للضلال المبين الذي استولى على أفداء هؤلاء الذاهلين . وهاكم ما كتب نفلاً عن كتاب «الثقافة الإسلامية» للإمام محمد مردامدوك بكال قال : «لاشك أن بعضكم يذكر البحث الذي أورده الصحف البريطانية من سنوات . كان السؤال : لنفرض أن تمثلاً يونانياً شهيراً جميلاً فريداً في نوعه . وهو من أجل ذلك لا يُعرض ، كان في غرفة واحدة مع طفل حيّ . ثم اندلعت النيران في الغرفة . ولم يكن في الإمكان إلا إنقاذ واحد من الاثنين إما المثال وإما الطفل (!) فـأيهما يجب إنقاذه ؟ .

(٥٠) بونس : ٥٩ - ٦٠

(٥١) في كتاب - الإسلام في النظرية والتطبيق - للسيدة مريم جميلة

إن كثرة عظمى من الذين أجابوا على هذا السؤال في رسائلهم إلى الصحيفة من الرجال ذوى الثقة والمكانة المرموقة قالوا - حسب ما ذكر - أنه يجب إنقاذ المثال وترك الطفل يهلك (!) .

وكانت حجتهم في ذلك: أن ملايين الأطفال يولدون يومياً على حين أن هذا المثال لا يمكن تعويضه ، فإنه عمل فني عظيم من تراث اليونان » .

رأيت كفراً أبغى من هذا الكفر؟ وإهانة للإنسانية أبغى من هذه الإهانة؟ ..

حجر يستند و طفل رقيق و دينج يترك حطباً للنار؟ ..

المثير في هذه القضية أن مصوراً يرسم على الورق منظر الشروق أو الغروب بهارة تحاكي الأصل أو تؤمن إليه بعد فناناً جديراً بالإشادة والتقدير! أما صاحب الأصل نفسه ، أما فالق الإباحة وحاجعل الليل سكناً والشمس والقمر حساناً ، فهو يُنسى أو يُجحد ، ولا توجه إليه عبارة ثانية ! ! .

عندما يحيى « فنان إلى حجر فيطبع عليه صورة إنسان ، يكون رجلاً عظيماً .. وتبلغ عظمته القيمة عندما يقترب في نحنه من قسمات الإنسان الأصيل وتعابير وجهه ..

أما خالق الإنسان نفسه ومبدع الحياة في خلاياه ومحرك الدم في العروق .. وبارئ الحسن في الأعصاب .. ومودع الذكاء في المخ .. ومطريق هذا البشر العجيب يملاً الدنيا حراكاً وإنجاً . هذا الخالق الماجد لا تذكره الحضارات الصالحة بكلمة تقدير وإعزاز ..

إن الوثنيات اليونانية والرومانية انتقلت إلى الحضارة الأوروبية .. ولنست النصرانية إلا قشرة مزورة ملصقة على وجه كفور يرفضها وينأى عنها ..

أما الحضارة الإسلامية فشأو آخر . إنها ترقى عظمة الله قبل كل شيء ، وانظر إلى أبي حامد الغزالى يتحدث عن المجال وفنونه فيقول (٥١) :

إن الفن محاكاة لل المجال الذى أبدعه الله في آفاق العالم ، أو هو تشبيه الصنعة بالخلقـة وما من شيء بلغه أهل الصناعات بجهدـهم إلاـ وله مثال في الخـلقة التي اخـترـعـها الصـانـعـاـنـاـلـىـ ! فـنهـ تـلـمـعـ الصـانـعـاـنـاـلـىـ . وـهـ اـقـتـدـواـ !

ويقول : كل جـمـالـ فـىـ الـعـالـمـ تـدـرـكـهـ الـعـقـولـ وـالـأـبـصـارـ وـالـأـسـمـاعـ وـسـائـرـ

الـحـوـاسـ مـنـ مـبـتـدـئـ الـعـالـمـ إـلـىـ مـنـقـرـضـهـ وـمـنـ ذـرـوـةـ الـثـرـيـ إـلـىـ سـفـوحـ الـثـرـيـ . فـهـوـ

ذـرـةـ مـنـ خـزـائـنـ قـدـرـتـهـ سـبـحـانـهـ .

* * *

وأنقل هنا سـؤـالـاـ وـجـوـباـ يـنـصـلـانـ بـمـوـضـعـ الـبـحـثـ . حتى لا تـبـقـ هـنـالـكـ أـثـارـةـ

مـنـ شـكـ أوـ شـيـةـ ...

ـ ما موقف الإسلام من مظاهر الحضارة الحديثة . السـينـماـ وـالـمـسـرـحـ وـالـمـوـسـيـقـ

وـالـفـنـونـ جـمـيعـهاـ . كالـرـسـمـ وـالـنـحـتـ وـالـتـصـوـيرـ؟ـ

الـحـضـارـةـ الـحـدـيـثـةـ تـنـاجـ تـقـدـمـ عـلـىـ باـهـرـ ، وـصـلـ إـلـيـ الـإـنـسـانـ بـعـدـ قـرـونـ مـنـ

الـبـحـثـ المـضـنـىـ وـالـتـجـارـبـ الـغـالـيـةـ ! وـلـمـ يـكـنـ عـجـباـ أـنـ يـسـتـغـلـ الـإـنـسـانـ كـشـفـةـ

لـاـسـرـارـ الـكـوـنـ وـقـوـاهـ الـخـفـيـةـ فـتـرـقـيـةـ نـفـسـهـ وـتـرـقـيـةـ مـعـاـيـشـهـ . بـلـ إـنـ ذـلـكـ أـقـرـبـ إـلـىـ

الـحـكـمةـ مـنـ اـسـتـغـلـالـ هـذـهـ الـكـشـفـ فـتـدـمـرـ الـحـضـارـةـ نـفـسـهـ وـتـيـسـرـ الـانـتـحـارـ

الـجـمـاعـيـ عـلـىـ النـاسـ !ـ

وـأـحـسـ بـأـنـ التـقـدـمـ الـصـنـاعـيـ الـعـامـ وـفـرـ للـجـاهـيرـ مـنـعـاـ مـاـ كـانـ يـحـصـلـ عـلـيـهاـ

الـمـلـوـكـ الـأـقـدـمـونـ ! الـأـطـعـمـاـ أـنـعـمـ ، وـالـأـشـرـيـةـ صـنـوفـ ، وـالـمـلـاـبـسـ تـفـضـلـ الـحـرـيرـ

نـسـجـاـ وـلـوـنـاـ وـرـقـةـ ، وـأـدـوـاتـ النـقـلـ أـغـنـتـ عـنـ الـخـيلـ وـالـبـغـالـ وـالـحـمـيرـ ، وـالـقـيـانـ

(٥٢) العـبـاراتـ مـنـ تـلـخـيـصـ الـدـكـتـورـ هـابـدـ الـلـطـيفـ عـبـادـةـ

التي كانت تغنى في مقاصير الامراء انتقل صوتها إلى الأكواخ . ونام على لحنه العمال وال فلاحون ، والمرء في المشرق يكلم صاحبه في المغرب بشعر ميسور . وربما بلغ الناس من الرفاهة درجة أعلى . وملوكها غداً أنسنة أكثر . . . !

ومع هذا كله فالاعصاب مشدودة . والاطماع طاغية ، والبكاء على القليل
المتشود يفسد السعادة بالكثير الموجود ، وتخادم الأفراد والاقطار أشعل البعضاء
هنا وهناك ! .

وقيل في وصف العالم : أن عضلاته أكبر من فكره . ولو أنصفوا لقالوا :
إنه عالم يذكر نفسه . وينسى ربه . ويتحدى حقه . ويماري في لقائه . ويظن أن
هذه الدنيا كل شيء . فلا امتداد لوجود آخر . ولا حياة إلا هنا . . . !! .
وأنا رجل سلم أحب الحياة وأبتغي بطبياتها ! إن الله استضافني في كونه
وأطعمني خيره فلن السفاهة أن أرفض الكرم المبدول . ومن السفاهة كذلك أن
أفضلن بشكر المنم ! .

إن الله تبارك اسمه يعطي الفضل ولا يطلب إلا الاعتراف بالجميل . فهيل
هذا ثمن فادح . ٤٤

يبدو أن ناسا كثرين بعزم عليهم دفع هذا الثمن «وقليل من عبادي الشكور»^(*)

على ذلك الأساس أنظر إلى ما قدمته الحضارات قديمها وحديثها ! إنه - كما
علمني الإسلام - لم وليس لغيري . أليس يقول الله : ه هو الذي خلق لكم ما
ف الأرض جميعاً (٤٠) ؟

ومن ثم فالاصل في الأشياء الاباحة . ولا تحرم إلا بنص قاطع ، والواقع أن نفرا من سوداوي المزاج أولعوا بالتحرر ومنهجهم في الحكم على الأشياء خالق منهج نبي الإسلام عليه الصلة والسلام الذي ما يخرب بين أمرير إلا اختبار

أيسرها ما لم يكن إلها فابن كان إلها كان أبعد الناس عنه روى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم ، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم ، فتلك بقاياهم في الصوامع والأديرة رهابية ابتدعواها ما كتبناها عليهم » .

وقد أشاعت المدنية الحديثة « الراديو والتليفزيون » وغيرها من الأجهزة الناقلة للثقافة والملاهي على سواء ، والمعروف أن هذه الأجهزة أدوات غير مسؤولة عما يصدر عنها ، وإن المسئولة تقع على المؤلفين والمعنى والخربجين ، ففي استطاعتهم أن يقدموا النافع ويخجلا الضار .. !

لقد كان من المستطاع أن نتوسل بهذه الأجهزة لأشاعة اللغة السليمة وتنويع الآداب الرفيعة وحماية الأخلاق ودعم التقاليد الفاضلة ، بل كان من الممكن أن ندرب الآلوف على اتقان حرف نحن محتاجون إليها ، وأن نرفع مستوى الأداء لأشغال كثيرة ، فإن البطالة السافرة والملقنة تفتكم لدينا بأعمار الناس .

كان من الممكن أن تخارب عادات ضارة موروثة أو مستوردة انتشرت بينما ووقفت مسيرتنا ، إن وسائل الاعلام لو أحسنا استغلالها تصنع الكثير ، ولكن ذلك لا تستطيعه إلا أمة تحسن أن لها رسالة في الحياة ، أما الأمة الذنب فقد سقط عنها التكليف لأن غيرها يشدّها .

قد يفهم من ذلك أن أحارب الغناء والموسيقى والتلويع عن النفس .. لا . ولكن ألحظ أن الأمة العربية والإسلامية تريد أن تعمل قليلاً وتغنى كثيراً ، والاستجام حق المراهقين لاحق القاعدين ! .

أما الغناء فكلام ، حسنه حسن وفيه قبيح ، ومن غنى أو استمع إلى غناء شريف المعنى طيب اللحن فلا حرج عليه ! وما خارب إلا غناء هابط المعنى واللحن ...

لم يرد حديث صحيح في تحريم الغناء على الاطلاق ، وقد احتاج البعض بقوله تعالى « ومن الناس من يشتري له الحديث ليصل عن سبيل الله بغير علم

وينخدنا هزوا : أولئك لهم عذاب مهين وإذا تلّى عليه آياتنا ولـي مستكرا كـأن لم يسمعها .. ^(٥)

ولعمرى أن من يشتري جد الحديث أو طوه للأسباب المذكورة في الآية
جدبىر بسوء العقاب ، أما من يربيع أعصابه المكبدودة بصوت حسن وحن جمبل
فلا علاقة للآية به . وكما يقول ابن حزم : لو اشتري مصحفاً للاضلal فهو
مجرم ...

ويبدو أن افتتان الغناء ببعض المحرمات من خمر وفحش . وما يشاع عن
البيئة الفنية من تخلل . هو الذى جعل عددا من العلماء يحرمه ، وإلى هذه
الجملة من الرذائل يشير حديث البخارى إلى من يستحلون الحر والحرير والخمر
والمعاذف ..

ييد أنه ليس من الضروري أن تجتمع هذه العناصر كلها عند سماع أغنية ..
وعلى أية حال فإذا كان الغناء مفرونا بتلك المحرمات فهو مرفوض ، أما إذا برىء
منها فلا شيء فيه .

والموسيقى كالغناء وقد رأيت في السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم مدح صوت أبي موسى الأشعري - وكان حلوا وقد سمعه يتغنى بالقرآن - فقال له : لقد أُوتِيت مزمارا من مزامير آل داود ! ولو كان المزمار آلة رديئة ما قال له ذلك .. وقد سمع رسول الله صوت الدف والمزمار دون نخرج . ولا أدرى من أين حرم البعض الموسيقى ، ونفر من سماعها ؟ .

على أن الألحان تختلف في تأثيرها وصداها النفسي ، فإذا كان هناك مجال لاعتراض فعل الأصوات الخشنة والألحان الطربية المائعة ..

ونعود إلى ما بدأنا به موضوعنا وهو أن أمتنا بحاجة إلى الكثير من الجد والمتانة من الله ، ولو رزقنا بفنانين ذوي شرف ومقدرة لأتمكن تحويل الفنون

(٦٠) لقمان :

إلى عوامل للبناء لا للهدم ، ولإثارة المشاعر النبيلة لا إهانة الغرائز الدنيا ...

أما الصور فيجب أن تفرق بين نوعين : الجسم الذي يصنعه المثالون الآن

لأغراض شتى ! والرسوم التي توضع على المسطحات من أوراق وأقمشة وغير ذلك.

والتصوير سواء كان شمسيًا أو قلميًّا هو جزء من الطب والأمن والعلوم الكونية والحيوية والتاريخ والشئون الاجتماعية الكثيرة ، والأصل فيه الإباحة لحديث مسلم « إلارقا في ثوب » ول الحديث رزبن مثل ابن عباس عن أجرة كتابة المصحف . فقال : « لا بأس إنما هم مصوروون ، وأنهم إنما يأكلون من عمل أبدائهم » .

ولم يقل أحد أن صورة الوجه في المرأة محمرة ، ولا يقول أحد أن اثباتها بطريقة أو بأخرى تحول المباح إلى حرام ..

ولا ينرم من هذا النوع إلا ما حمل طابعاً دينياً لعقائد يرفضها الإسلام كصور بوداً ، أو إبراهماً ، أو صلبان النصارى ، أو أي شعار ديني يخالف التوحيد ..

كما ينرم أي تصوير يخل بالآداب . وينزعك الغرائز إلى المعصية ..

أما المثاليل الحسنية فإن النصوص الواردة تظاهرة على رفضها ما لم تكن الأعيab للعصية أو عرائس هزينة كحلوى المناسبات المختلفة . فإن أحداً لا يفكّر في توفيرها أو عبادتها ..

لقد رأيت بعيني من يعبدون هذه الأصنام في جنوب آسيا ، ورأيت في مصر من يحيي بخشوع تمثالاً لعبد الناصر ! ! وذلك أثناء نقله من مكان إلى مكان .. ! ! .

وأعرف أن هناك من رجال الفتوى من ينحرم التصوير كله سواء كان مجسمًا أو كان رسمًا على ورق ، وأخشى أن يكون سوق النصوص مقطوعة عن ملابساتها سبيلاً في ضياع الدين والدنيا معاً ! .

الدِّين بَيْنَ الْعَادَاتِ وَالِعِبَارَاتِ

آدَابُ الْطَّعَامِ

آدَابُ الْمَلْبُسِ

آدَابُ الْمَسَاكِنِ

آدَابُ الطَّعَام

هناك عادات ألقها الناس ويستغرون الخروج عليها . وهناك عادات كلفوا بها ويزرون التزامها دينا ! والعادات من صنع الناس ، أما العبادات فلن عند الله سبحانه ...

وقد قرأت لعالم هندي آداب الإسلام في الطعام . فوجدت الرجل خلط بين العادات والعبادات . وحارب عادات غربية بعادات عربية ، وهي حرب لا صلة لها بالإسلام .

قال : « يجب أن يوضع الطعام على الأرض لا على الطاولة » وقال : « يجب على الآكل أن يجلس متربعاً أو على ساق أو جاثعاً على الساقين ولا يتناول الطعام أبداً مستنداً إلى كرسي .

وينبغي أن تسبق النية الطعام - أي أن يقصد بالأكل القوة على طاعة الله - لا إشباع الشهوة . وينبغي أن تشرذك الأيدي الكثيرة في الإناء الواحد ، وينبغي أن يذكر اسم الله قبل أن يأكل ... » .

وأكثر ما قاله الرجل بعد عن الصواب ! فالأكل جائز على الأرض وعلى المنضدة . وينبغي الجلوس على الكرسي في أثناء الأكل ، وينبغي أن يرضي ربه بالطعام في الوقت الذي يشبع فيه نسمته منه ! وله أن يأكل وحده في إناء . أو يأكل مع آخرين !

والواجب حقاً أن يسمى الله قبل الأكل فقد صرحت قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « سُمِّ اللَّهُ وَكُلْ بِيمِينِكَ . وَكُلْ مَا يُلِيكَ » ! .

وقد وردت أحاديث شتى في آداب الأكل بعضها صحيح . وبعضها مرفوض ، وبعضها من عادات العرب .

فالقول بأن استعمال السكين في الأكل حرام لا أصل له . وقد روى أبو داود حديثاً عن عائشة جاء فيه « لاتقطعوا اللحم بالسكين فإنه من صنع الأعاجم وانهشوه نهشا فإنه أهنا وأمراً » .

وهذا حديث باطل فقد ثبت في الصحاح أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان يستخدم السكين في تقطيع اللحم وهو يأكل . وسند الحديث المروي عن أبي داود مرفوض ..

ولم يجيء أمر بالأكل على الأرض . أو نهى عن الأكل فوق طاولة ، وما سكت الشارع عنه فهو في دائرة العفو . ولا مكان لوجوب أو حرمة ! .

وقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - مخشوشاً في حياته لامتناع ذلك لم يحرم حلالاً . ولم يضيق واسعاً . عن أبي حازم سأله سهل بن سعد : هل أكل النبيَّ النقَّيَ - الحبز الحالص من القشور - ؟ فقال : ما رأى النبيَّ النقَّيَ منذ ابتعثه الله تعالى حتى قبضه ! .

فقلت : هل كانت لكم مداخل ؟ فقال مارأى النبيَّ من خلا من حين ابتعثه الله حتى قبضه ! قلت : كيف كنتم تأكلون الشعير غير منخول ؟ قال : كنا نطحنه وننفخه فيطير منه ماطار - من قشر - وما يقى ثريناه فأكلناه » . تلك كانت حياتهم ! وعليها اعتادوا . ثم تألف الناس في صنع الحبز النقَّيَ دون حرج .

قال تعالى : « يأيها الناس كلوا ما في الأرض حلالاً طيباً ... » ^(٥٣) .

وقال : « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله ... » ^(٥٤) .

وروى أبو داود عن وحشى بن حرب أن الصحابة قالوا يا رسول الله . إننا نأكل ولا نشبع ! قال : فلعلكم تفتقرون ؟ قالوا : نعم . قال : فاجتمعوا على طعامكم . وادكروا اسم الله عليه ببارك لكم فيه ! .

ونحن نرى في هذا الحديث بواعث الجود واستضافة الفقراء ومحاربة الأزمات . فلا يجوز ترك المهرمين يتضورون جوعا ! .

ولا يجوز أن يفهم من الحديث تحريم الأكل في غير طبق واحد ! كيف والله سبحانه يقول : « ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشخاصاً .. »^(٥٥) ولو وضع لكل فقير طعام في صفحة ما كان هناك من حرج .

ومن أركان النظافة أن يأكل المرء بيمنيه . فإن الإسلام جعل اليد اليسرى لإزالة القذى . وهذه قسمة لابد منها . وليس من الشرف أن يضع إنسان يده على فرجه ثم يَتَسَّها بعد ذلك في فه !!

ولأى إنسان أن يأكل بيمناه مباشرة أو يأكل بملعقة ، ففي الأمر سعة ! وكان العرب يأكلون بأيديهم . وتلك عادتهم . ولا غرابة إذا كان الأكل يده يلعق أصابعه .. ولكن جعل هذه العادة ديناً ما لا أصل له ، ومن الدين لا يترك المسلم في صحفته طعاماً كثيراً أو قليلاً ليُرمي بعد في القهامة فهذا مسلك ذميم ..

والغريب أن الأوروبيين يتركون صحفتهم أقرب ما تكون إلى النظافة . أما العرب فيدعون في صحفتهم ما يزحم أواقي القهامة وما يقرّ عن الشيطان بالإسراف .

وفي هذه الأيام تذهب وفود من المسلمين إلى أوروبا وأمريكا . ويمكن أن يتميزوا عن غيرهم في آداب الأكل . بترك المحرمات وتنسمة الله مثلا !

أما الجلوس على الأرض حتى . والامتناع عن استعمال الملاعق . والحرص

(٥٥) التور : ٩١

على لقى الأصابع .. الخ . فهذا تطعُّم أُخْرَى بالإسلام ورسالته ، وأطلق ضد المسلمين شائعات رديئة ! .

فهل أمست الدعوة إلى التوحيد دعوة إلى نكط من سلوك العرب الأوائل حتى في أيام جاهليتهم ؟ إن هذا السلوك البدائي صدًّا عن سبيل الله .. .

آدَابُ الملْبَسِ

ولنترك الطعام إلى الملابس .

قرأت للعالم الهندي السابق ذكره حديثاً عن البيهقي . « عليكم بالعائم فإنها سبأء الملائكة وأرخوها خلف ظهوركم » ! .

وقرأت عدة أحاديث في فضل العائم رواها الترمذى وأبو داود ، وهى جماعتها لا قيمة لها . كما قال الشيخ محمد حامد الفقى : « ليس في فضل العامة حديث يصحّ » .

والعائم لباس عرّى . وليس شارة إسلامية . وكذلك العقال ، والواقع أن البيئة الحارة تفرض تغطية الرأس واللقمة . ويستحب فيها البياض والسعفة . أما البياتات الباردة فطلب النفع يدفع إلى تضييق الملابس واختيار الألوان الداكنة . وقد جاء في الحديث الصحيح : « كل ما شئت . والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرفٌ ومحيلة » .

ونحن نلحظ أن الإسراف والخيلاء ، من وراء عادات عربية وغربية كثيرة ، وأصحاب الحلق والجلد يتغفرون عن المبالغة في اختيار الأزياء . حتى لكان قيمة الرجل من عظمة ثوبه ..

والحضارة الحديثة لفساد تدينيها وعراوم شهواتها عقدت تقاليد اللباس والزينة . فجعلت للسهرات ملابس فاضحة ، وجعلت للإقامة زيا وللسفر زيا وللأكل زيا وللرياضة زيا ، وللربيع زيا وللصيف زيا .. الخ .

وال المسلم يرتدى ما يشاء غير جائع إلى إسراف أو خلاط ..

ووجهنر العلماء على تحرير الحرير والذهب للرجال وإياحتها للنساء . كما أن الجمئور على أن للنساء ملابس . وللرجال ملابس . والأصل في ملابس النساء أن تكون سترة لأجسامهن . ولا حرج في أن تكون جميلة غير مشيرة . والأصل في ملابس الرجال أن تلائم أعمالهم . ولا حرج في أن تكون جميلة . كما قال ابن عباس : « رأيت على رسول الله أحسن ما يكون من الحلال » .

ووددت لو كانت للرجال أزياء موحدة . وللنساء كذلك أزياء موحدة . فإن هذا التوحد يقطع دابر التنافس الباهظ التكاليف . المفسد للأخلاق . الذي نراه في ميادين كثيرة

هل للإسلام زىً معين ؟ كلا . وقد تورهم بعض الشباب أن الجلباب هو زى الإسلام ، وأن البذلة زى الكفار ! وهذا خطأ !

واباً أردنا الحفاظ على « شخصيتنا » فإن ذلك يتم بصدق اليقين وشرف السيرة وسعة المعرفة ودماثة الخلق ! .

إن الجلباب العربي في عواصم عالمية أ Rossi شارة على الإسراف السفيف والانطلاق المجنون وراء شهوات مطاعة وأهواه جامحة .. ! ! ! كذلك ما يخدم الإسلام وينشر دعوته ؟

آدابُ المساكن

وننتقل إلى المساكن . وأسلوب المعيشة داخلها .. إن الله سبحانه امتنَّ على الناس بأن جعل لهم بيوتاً يأوون إليها ويستريحون فيها « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم .. » ^(٥٦)

وظاهر من السياق أن البيوت نعمة تستوجب الشكر ، وأن بناءها عادة وعادة معا ، وهل يستغنى البشر عن البيوت ؟

من أجل ذلك استغرت ما رواه الشيخان عن خباب بن الأرت وهو « إن أصحابنا الذين سلّفوا ومضوا لم تنتصهم الدنيا ، وإنما أصبتنا ما لا نجد له موضعا إلا التراب ... ثم يقول : إن المسلم يؤجر في كل شيء ينفقه إلا في شيء يجعله في هذا التراب » !! .

وكلام خباب رضي الله عنه عليه مسحة ت Shawām غلت عليه لمرضه الذي اكتوى منه ، ولا يجوز أن نعدّ البناء رذيلة ، فقد يكون فريضة ! .

والأصل الذي نرجع إليه في مسألتنا كلها : هو القصد الطيب المصاحب للعمل ، أو النية الطيبة الباشرة على العمل ، فإن كانت النية حسنة فالعمل صالح ، وتحول فيه العادات إلى عادات .

ويظهر أن كثيرا من الناس جعل من المبني إعلانا عن العظمة ، واستطالة على الآخرين . بدل أن يجعلها مواطن استجام وتهيئ للعمل في أرجاء الحياة ويظهر ذلك في قول الله تبارك وتعالى : « وادكروا إذ جعلتم خلفاء من بعد عاد وبؤاكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتحتلون الجبال بيوتا فادكروا آلاء الله ولا تشعوا في الأرض مفسدين » ^(٥٧) ! .

ولو بنيتا ناطحات سحاب وعمينا غرفاتها بالتسبيح والتحميد لتنبيل الله منا ! أما بناء دار صغيرة ، والنقلب داخلها بطرأ وكبرا فذلك مالا خير فيه ، وهذا ما نفترض به حديث أنس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « النفقة كلها في سبيل الله إلا البناء فلا خير فيه » ..

والواقع أن هناك حضارات بادت ومدائر دمرت لأن مبانيها كانت

٥٧) الأعراف : ٧٤

ضجيجاً لا تتبين فيه شكرأً لله ولا أثارة من تقوى ! .

وفي هذه الأئم الجاحدة يساق قوله تعالى : « أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلأ يسمعون » ^(٥٨) ؟ .

ثم قوله لن جاء من بعدهم : « ... وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضررنا لكم الأمثال » ^(٥٩) .

وقد قرأت جملة أحاديث تكاد تجعل البناء جريمة ! وهي تفهم على وجهها الصحيح داخل نطاق الذي رسمناه هنا . ولا ضرورة لذكرها ..

سمعت نفدياً لاذعاً لما كتبته عن آداب المساكن بعملني على إيراد الأحاديث التي دونها صاحب « تيسير الوصول إلى جامع الأصول » تحت عنوان كتاب البيان .. لقد أصبحت هناك ضرورة لذكرها . فلأنقلها كاملاً ، ولأنترك دلالتها تنضح على النفوس ... ثم أعلق عليها بعد ذلك .

كتاب البنيان

عن ابن عمر رضي الله عنها . قال : لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بنيت بيتي يكفي من المطر ويطلقني من الشمس ما أعناني عليه أحد من خلق الله تعالى . أخرجه البخاري . وفي رواية ما وضعت لبنيت على لبنة متذقبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وعن قيس بن أبي حازم رضي الله عنه . قال : أتينا خباب بن الارت رضي الله عنه نعوده - وقد اكتوى سبع كيات في بطنه - فقال إن أصحابنا الذين سلفوا ومضوا ولم تنتصهم الدنيا وإنما أصبنا ما لا نجد له موضعاً إلا الزراب ،

(٥٨) السجدة : ٢٦

(٥٩) إبراهيم : ٤٥

ولولا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - نهاناً أن ندعوا بالموت للدعوت به . ثم أتيناها مرة أخرى وهو يبني حائطاً له فقال إن المسلم يؤجر في كل شيء يُنفقه إلا في شيء يُعمله في هذا التراب . أخرجه الشیخان .

وعن أنس رضي الله عنه . قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
النفقة كلها في سبيل الله إلا البناء فلا خير فيه . أخرجه الترمذى .

وعنه - رضي الله عنه - . قال : خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوماً ونحن معه فرأى قبة مشرفة . فقال ما هذه ؟ قيل لفلان - رجل من الأنصار - فسكت وحملها في نفسه حتى جاء أصحابها فسلم عليه في الناس فأعرض عنه فصنع ذلك مراراً حتى عرف الرجل الغضب فيه والاعراض عنه فشكى ذلك إلى أصحابه فقال والله إني لانكر نظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما أدرى ما حدث في . فقالوا خرج فرأى قبتك فقال لمن هذه فأخبرناه فرجع الرجل إلى القبة فهدمها حتى سوأها بالأرض . فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات يوم فلم يرها فقال ما فعلت القبة فحدثه بما كان من أصحابها . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أما إن كل بناء وبال على صاحبه إلا مالا إلا مالا . يعني : ما لا بد منه . أخرجه أبو داود .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنها - . قال : مررت برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنا أطير حائطاً لي من خُصْنَ . فقال ما هذا يعبد الله ؟ فقلت حائطاً أصلحه . فقال الأمر أيسير من ذلك . وفي رواية ما أرى الأمر إلا أجعل من ذلك أخرجه أبو داود والترمذى وصححه . « الخص » القصب .

وعن دكين بن سعيد المزني - رضي الله عنه - . قال : أتني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سأله الطعام فقال يا عمر اذهب فأعطهم فارتق بنا إلى عُليَّةٍ فأخرج المفتاح من حجرته ، ففتح ... - يعني أنه كان هناك غرفة علياً .. ! فلا حرج من بناء غرفة علياً .

القارئ لجلة هذه الأحاديث لا يفكك في بناء دارة أئمة ولا قصر شاهق بل

لعله يرى العيش في مدفن أقرب إلى النقوى ..

والصحيح أن هناك أحاديث تربط بمناسبتها وما تفهم إلا في الجو الذي
قبيلت فيه . ونحن في حياتنا المعتادة قد يفكر امرؤ في الزواج ويؤخر البت لظروف
عارضة ، وقد ينوي بناء بيت ثم يؤخر البناء لفتن ناشئة ! .

ومنطق الاستقرار غير منطق القلق . ولقد كانت المدينة المؤرة تعانى الكثير
من أعباء الدعوة والجهاد والحصار والدفاع ، وكانت جمهرة الصحابة تشتغل في
المرايا والغزوات ، فهى بين قتال أو استعداد له ..

وقد نظرت إلى الترهيب من بناء القصور وزخرفتها من خلال هذه
الملابس ، وإنما فالاصل إباحة الطبيات في المأكل والمسكن والنكح . ولو
أخذنا الأمر على عمومه ما بنت مدينة ولا قامت حضارة ..

وأعرف من علماء السلف المعاصرين من بني العائذ الشاهقة . وأجرأها
لساكنها بما يشاء من مال ، وله أن يفعل ذلك ، ولكن ليس له أن ينهى الناس
عن البناء والتألق فيه .. !

إنى أنظر إلى حرمة استعمال الجرس فأرى أن هذه الحرمة بدأت لحماية شعيرة
الأذان وبعدها عن معالم النصرانية ، فإذا استقر الأذان وارتقت مآذنه فلا حرج
من سماع جرس عند مزاليق السكك الحديدية ، أو عند الاستئذان في دخول بيت
أو مع الساعة الموقظة من النوم أو في جهاز الهاتف .. إلخ .

والبيت المسلم له وظائف معروفة وآداب مقررة ، ومن الحير ملاحظتها عند
بنائه وإعداد مراقبه .

ولم يكن العرب في العهد الأول قد ورثوا هندسة مهارية تنجم مع تعاليم
الإسلام الجديدة . بل الذى كان يحدث أن البيوت غالبا تخلو من المراحيض !
وكان الكبار والصغار والرجال والنساء يخرجون إلى الصحراء لقضاء
 حاجاتهم .. !

على أن هذا الوضع المرهق قد اخترى مع استقرار المجتمع الإسلامي وانتشار صبغته على الحياة الداخلية والخارجية ١ .

هناك آداب للمبيت تفرق بين الأولاد في المضاجع وتجعل لكل منهم فراشا خاصا .

وهناك آداب للاستئذان والتلاقي تصنون المباهات والمرهفات ..

وهناك مظاهر دقيقة ترسى قواعد النظافة الشخصية إلى جانب الوضوء والغسل

ولاشك أن المسلمين أيام ازدهار حضارتهم كانوا أطهراً أهل الأرض أبدانا وثياباً وأن استخدامهم للمياه في الأغسال المتنوعة ، جعل إنسانيتهم أرق ..

أما غيرهم من الأوربيين . فكانوا دونهم مكانة وكرامة ..

وقد حرص البشر في هذا العصر على استكمال أسباب النظافة . ونحن لأنواعنا بين عادات وعادات . وإنما نتعرف على مطالب ديننا . ونشعر العادات التي تسجم معها

وقد قرأت أن الحمام الغربي سبب لأنه يجعل المرحاض في المكان الذي يتم فيه الاغتسال . ولأنه يجر الشخص على التبول قائماً وهذا ما يحرمه الإسلام . والإسلام لا يحرم التبول قائماً ، ولا مانع لديه من التنظف أولاً بالورق . ثم يزداد التطهير بالماء .

وهذا يعني يقيناً مما كان مألفاً من التطهير بالحجارة ثم بالماء أو الاكتفاء بالماء وحده .

الإسلام دين انفطارة السليمة ، وكل ما يسمى بالجسد ويوفر له السناء والجمال مطلوب

ونحن نفرض تعاليم ديننا على الناس كلهم عندما نتشاء باسمه حضارة للإنسان

الذى يحترم المبى والمعنى أو الشكل والموضوع لقوله تعالى : « من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيئه حياة طيبة . ولنجزئهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » ^(٦٠) .

الْمَرِّ السَّيِّطَانِي
حَقِيقَتُهُ وَعِلاجُهُ

طرق بابي رجل يقول : إنه بحاجة إلى عون ، فهمت لاستقباله وأنا
متعب ، ودهشت لمرأة . فقد كان عacula بادي الصحة . ولم تكن عليه
سيماء الفقر !

وبدائي بالحديث من غير مقدمات ! قال : إنه مسكون .. ! واستعدتْ
مقال . فكرر شكوكه مؤكدا أنه مسكون ! قلت : من سكتك ؟ قال : جئي
عات غلبي على أمري .. !!

فقلت وأنا أضحك : لماذا لم تسكنه أنت ؟ إنك رجل طويل عريض ؟
فسكت حائرا ..

وأخذت أنتأمل في ملامحه وحالته العامة ثم قلت له : ما أظنك مريضا
بالصرع . أتعززك نوبات ماما ؟ فلم يزد على القول بأنه مسكون
إن عددا كبيرا من النساء . وعددًا قليلا من الرجال يحيطى بمثل هذه الشكاوة .
وكت أبذل شيئا من الجهد في تثبيت القلق . وتسكين الحائز . وإعادة الاستقرار
النفسي والفكري إلى هذا وذاك ..

وشعرت بأن الأزمات الروحية والاضطرابات العصبية من وراء الإدعاء
 بأن الجن تختل هذا الجسد . أو تختك بهذا البائس . وربما استعنت بعض الرق
 والتلاوات والنصائح لجعل أولئك المرضى أحسن حالا . وإن تبديد أوهامهم
 شيء يطول

وتحدىت معى بعض أهل العلم الديني . وكأنهم رأوا إنكارى على أولئك

المرضى ، وقالوا لي : لماذا ترفض فكرة احتلال الشياطين لأجسامهم؟

كان جوابي محددا : لقد شرح القرآن الكريم عداوة إبليس وذرره لأقدم وبنيه ، وبين أن هذه العداوة لا تغدو الوساوس والخناء « واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيك ورجلك وشاركتهم في الأموال والأولاد وعلهم وما يغدتهم الشيطان إلا غرورا »^(١١) .

وليس يملك الشيطان في هذا المجموع شيئاً قاهراً ، إنه يملك استغفال المغفلين فحسب : « وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجعتم لى . فلا تلوموني ولوموا أنفسكم »^(١٢) .

وقد تكرر هذا المعنى في موضع آخر : « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين وما كان له عليهم من سلطان »^(١٣) .

إن الشيطان لا يقيم عائقاً مادياً أمام ذاهب إلى المسجد ! ولا يدفع سكراناً في قفاه ليكع الإثم من إحدى الحالات ! إنه يملك الاحتياط والخداعة . ولا يقدر على أكثر من ذلك ..

قال لي أحدهم : هذا صحيح . لكن ما أوردته لا يبني أن بعض المرة قد يساور بشراً مسلماً وبيناً منه ؟ قلت : وأنا ضجر : هل العفاريت متخصصة في ركوب المسلمين وحدهم ؟ لماذا لم يشكُ ألفاً أو يابان من احتلال الجن لأجسامهم ؟

إن سمعة الدين ساءت من شيوخ هذه الأوهام بين المتدلين وحدهم ! إنكم تعلمون أن العلم المادي اتسعت دائريته ورست دعائمه . فإذا كان ما وراء المادة سوف يدور في هذا النطاق فستقبل الإيمان كله في خطر . فلنبحث على

(١١) الإسراء : ٦٤

(١٢) إبراهيم : ٤٤

(١٣) سا : ٢٠ - ٢١

أولئك الشاكين بروية . ولنرج أعيناهم المنسكة . ولا معنى لاتهام الجن بما لم يفعلوا !!

وجاعني صديق يقول لي : أرى أن تسمع كلام أهل العلم في هذه القضية ! قلت : مرحبا بكلام أهل العلم . هات ما عندك ...

قال : إن مس الشيطان للإنسان ثابت بالكتاب والسنّة ، فاما الكتاب فقوله تعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » ^(٦٤) .

واما السنّة فقوله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم » وقوله : « فناء أمنى بالطعن والطاعون وخز أعدائكم من الجن . وفي كل شهادة » وقوله : « مامن مولود يولد إلا نسمة الشيطان فيستهل صارخا من خمسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه عليها السلام » .

قال الشيخ منصور ناصف رحمة الله : إن الواقع من هذا كبير ومشاهد حتى إن عبد الله بن الإمام أحمد سأله والده - كما في آكام المرجان - فقال : يا والدى إن قوما يقولون : إن الجن لا يدخل بدن المتصروع من الإنس . فقال : يكذبون ، هو ذا يتكلم على لسانه ! ثم قال الشيخ منصور : من هنا وضح الحق واستبان فن شاء فليؤمن . ومن شاء فليكفر ! .

قلت : إقحام الإيمان والكفر هنا لا معنى له ، ولعله من غلو بعض المتشددين في إثبات قضيّاها هامشية ... وأهل الفقه متزهون عن هذا المسلك .

إن عالم الفلك لا يعنيه أن تصبّ بمارى الإسكندرية في الصحراء أو البحر المتوسط ، ولا يعنيه أن تمر السفن التجارية من قناة السويس أو تدور حول رأس الرجاء ...

الذى يعنينى هو عقائد الإسلام وحاضر الوحي الآلهي ومستقبله ! .

وعندما تناقلت الصحف أن الشيخ عبد العزيز بن باز أخرج شيطاناً بوذيا من أحد الأعراب . وأن هذا الشيطان أسلم . كنت أرقب وجوه القراء . وأشعر في نفوسهم بمدى المسافة بين العلم والدين ... إن قدر القرآن الكريم أعظم كثيراً من هذه القضايا ..

ونعود إلى مادكرة صديقنا من أدلة على أن الشيطان يسكن جسم الإنسان ويؤثر فيه بما يشاء ! .

أما الآية الكريمة : « ... لا يقومون إلا كمَا يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » فجمهور المفسرين على أن ذلك يوم الجزاء . وسبب هذا التفسير أن أحداً لم ير أكلة الريا مصروعين في الشوارع توشك أن تدوسهم الأقدام ! ومن ثم جعلوا ذلك عندما يلقون الله فيحاسبهم على جشعهم وظلمهم .

ونقل الشيخ رشيد عن البيضاوى في هذا التشبيه أنه وارد على ما يزعمون من أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع ، والخطب ضرب على غير اتساق كخطب العشواء ...

ثم قال صاحب المثار : « فالآية على هذا لا تثبت أن الصرع المعروف يحصل بفعل الشيطان حقيقة ولا تبني ذلك وفي المسألة خلاف بين المعتلة وبعض أهل السنة أن يكون للشيطان في الإنسان غير مأبغي عنه بالموسعة . وقال بعضهم : إن سبب الصرع مس الشيطان كما هو ظاهر التشبيه وإن لم يكن نصا فيه . وقد ثبت عند أطباء هذا العصر أن الصرع من الأمراض العصبية التي تعالج كأمثالها بالعقاقير وغيرها من طرق العلاج الحديثة . وقد يعالج بعضها بالأوهام ... الخ .

أما حديث أن الشيطان يحرى من ابن آدم مجرى الدم فإن القصة التي ورد

فيها تشرح المرأة منه ! قالت صفة - زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم -
كان رسول الله متكتفاً . فأتيته أزوره ليلاً . فحدثه ، ثم قلت إليني بيتي . فقام
النبي - صلى الله عليه وسلم - يمشي معى مودعاً - وكان مسكنها في دار أسماء
ابن زيد ، فمر رجلان من الأنصار . فلما رأيا النبي - صلى الله عليه وسلم -
أسرعاً ! فقال لها : على رسلكما - أى تمهلاً - إنها صفة بنت حبي ! قالاً :
سبحان الله يا رسول الله ! قال : «إن الشيطان يجربى من الإنسان مجرى الدم .
فخشت أن يقلن في قلوبكما شيئاً أو قال شراً» .

وظاهر من الحديث أن الرسول يريد من الموسوسة التي قد يلقاها الشيطان
عندما يرى مثل هذا المنظر ، ومع أن الصالحين أنكروا واستعطا أن يجري في
نفسها شيء من ظنون السوء بالنسبة للمعصوم عليه الصلاة والسلام . فإن
النبي أراد منع هذه الموسوسة .

ولالأصل للحديث باحتلال الشيطان لجسم الإنسان ..

وأما الحديث الآخر وهو أن الطاعون وخز الجن وهم أعداء البشر فيكتفينا
في شرحه صاحب المثار عندما قال : يرى المتكلمون أن الجن أجسام حية حقيقة
لا ترى . وقد قلنا غير مرّة : إن الأجسام الحية الحقيقة التي عرفت في هذا
العصر بواسطة النظارات المكرونة وتسمى «المليكروبات» يصح أن تكون نوعاً
من الجن وقد ثبت أنها عالٌ لأكثر الأمراض . قلنا ذلك في تأويل ما ورد من
أن الطاعون من وخز الجن . على أننا نحن المسلمين لستا في حاجة إلى التزاع
فيما أثبته العلم وقرره الأطباء أو إضافة شيء إليه مما لا دليل في العلم عليه لأجل
تصحيح بعض الروايات الأحادية .

ونحمد الله على أن القرآن أرفع من أن يعارضه العلم ..

ونجي إلى حديث نجس الشيطان للإنسان كما يذكر الرواة . ! ونقول :
خيّل إلى أن الشيطان قابع تحت الرحم يستقبل الوليد القادم وهو شديد

الحقد ، يقول له : إن قصتي مع أيك الأول لم تنته بعد . وسأحاول إرهاقك كما أرهقته .

ثم ينحشه نحشه يصرخ الوليد الساذج منها . ثم يستقبل بعد ذلك حياته خارج الرحم .

وقد اقترب الشعرا من هذا المعنى عندما قال قاتلهم :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد !
وقد كانت أم مررم بادية القلق عليها عندما استجارت بالله أن يصونها
ويصون ذريتها « وإن سببنا مررم وإن أبعدها بك وذريتها من الشيطان
الرجيم »^(٥٥) ومررم وابتها على أية حال من عباد الله الصالحين ، وليس
للسatan سلطان على أولئك العباد .. !

وننظر إلى الموضوع من خلال أقوال العلماء المحققين . قال صاحب المنار :
« في حديث أبي هريرة عند الشعرا و غيرها واللله فقط هنا لمسلم « كل بني آدم
يَمْسَهُ الشيطان يوم ولدته أمه إلا مررم وابتها » فسر البيضاوى المس هنا بالطمع في
الإغواء ! وقال الأستاذ الإمام : إذا صاح الحديث فهو من قبيل التشيل لا من باب
الحقيقة ولعل البيضاوى يرمى إلى ذلك .. ! قال الشيخ رشيد : والحديث صحيح
الإسناد بغير خلاف ، ويشهد له من وجه حديث شق^(٥٦) الصدر وغسل القلب .
بعد استخراج حظ الشيطان منه ، وهو أظهر في التشيل ، ولعل معناه أنه لم يبق
للسatan نصيب ، في قلبه ولا بالموسمة كما يدل على ذلك قوله في شيطانه « إلا أن
الله أعانتي عليه فأسلم » وفي رواية مسلم « فلا يأمر إلا بخير » .

ثم قال صاحب المنار رضى الله عنه : المحقق عندنا أن ليس للشيطان
سلطان على عباد الله المخلصين وخيرهم الأنبياء ، والمرسلون ! وأما ما ورد في

(٥٥) آل عمران : ٣٦ .

(٥٦) ارجع إلى كتابنا فقه السيرة . وقد شجب عليه بعض القاصرين .

حديث مرمر ويعنى من أن الشيطان لم يمسها وحديث إسلام شيطان النبي - صلى الله عليه وسلم وحديث إزالة حظ الشيطان من قلبه فهو من الأخبار الظنية . لأنه من روایة الآحاد . ولما كان موضوعها عالم الغيب ، والإيمان بالغيب من قسم العقائد . هي لا يؤخذ فيها بالظن لقوله تعالى : « وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً »^(٦٧) كما غير مكلفين أن يؤمن بمحضهم هذه الأحاديث في عقائدهنا

وقال بعضهم : أيؤخذ فيها بأحاديث الآحاد لمن صحت عنده ! ومذهب السلف في هذه الأحاديث تفويض العلم بكيفيتها إلى الله تعالى . . . الخ .

ومع أن مذهب السلف أحب إلى إلأن مدافعة أعداء الإسلام تقتضي مزيداً من الحذر واليقظة . ولست أحب أن أفتح أبواب الشعوذة والسحر والدجل باسم أن الشيطان احتلَّ بدن إنسان ..

وقد قبضت الشرطة من أيام على رجل ظل يهوى على أحد المرضى بعصاه حتى أخمد أنفاسه . وكان الأحمد يظن أنه يضرب الشيطان ليخرج . وكان يقول له : اخرج عدو الله ! وانته المأساة بقتل المريض البائس .

وما يرويه صاحب «آكام المرجان في أحكام الجن» أكثره خرافات وخيالات ، وإن ذكره ابن حنبل وابن تيمية وغيرهما ! .

نخن نعلم أن الأرض التي نسكنها هباءة صغيرة في كون ضخم فخم يضج بالحياة والأحياء ! نعم قد تكون أرضنا حبة رمل على شاطئ الوجود الربب الذي تختفي أبعاده عن وهنا !! .

ونخن نشعر بسعة الملوك عندهما نتابع مباحث الفلكيين ، و قطرات من المعرف التي ترشح عليهم من إدمان النظر في الفضاء ..

ونستطيع الحكم بأنه من الحماقة الفتن بأننا وحدنا الأحياء في هذا الوجود الكبير ! ! إن الذي يبني ناطحة سحاب لا يدع الريح تصفر في جنباتها مكتفياً بإسكان غرفة في سرداد منها ..

إن العالم مشحون بالأحياء التي خلقها الله لتدلّ عليه وتشهد بمجده ، ومن غرور البشر أن يحسبوا أنفسهم الحياة كلها .

ومع النظر في القرآن الكريم ندرك تلك الحقيقة . يقول الله تعالى : « وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ عِنْدِهِ لَا يَسْكُنُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَهِنُونَ بِسَبِّحُونَ النَّلَيلَ وَالْمَهَارَ لَا يَقْنُتُونَ » . ويقول « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . وَمَا بَثَ فِيهَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ » .

والأيات كثيرة . ومنها نعلم أن أبناء آدم نوع من المخلوقات ، وليسوا المخلوقات كلها ... هناك الملائكة ، ولا تحدث الآيات عن وظائفهم ! وقد تكون هناك كائنات أخرى لا ندرى شيئاً عن سيرتها أو مصيرها . وهناك عالم الجن الذي نومى هنا إلى بعض سماته .

إن القرآن الكريم حدثنا عن الشيطان الأكبر إبليس عدو آدم وبنيه ! وحدثنا عن الجن مبيناً أنهم يأكلون وينسلون ويكلّفون وأن فيهم المؤمن والكافر والتقى والفاجر .

وقد علمنا أن الجن لهم حياتهم الخاصة بهم . وأنهم أشدّ منا قوة ، وأنهم يروننا ولا نراهم ! ومع ذلك فإن رجالاً من البشر أمكنهم الله من تسرير الجن كسلیمان الذي جاء في وصف سلطانه « وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بِنِ يَدِهِ يَأْذِنُ رَبِّهِ . وَمَنْ يَرْغَبُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مُحَارِبٍ وَعَمَائِلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقَدُورٍ رَاسِيَاتٍ .. إلخ . »

وفي هذا السياق كشف القرآن الكريم عن أن الجن لا يعلمون الغيب ، وأن هوايهم في إغواء أبناء آدم لا تتعذر المكر النسيبي واستدراجه المغفلين . ولذلك قال في وصف العصاة من البشر « وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقَا

من المؤمنين : وما كان له عليهم من سلطان إلا لعلم من يؤمن بالأخرة من هو منها
في شك .. » .

تدبر هذه الجملة « ما كان له عليهم من سلطان » لتعلم حدود مقدراته على
الإيذاء ! .

هل الجرائم الحقيقة من عالم الجن ؟ لا يستبعد صاحب المدار هذا ! مستشهادا
بالحديث في سبب الطاعون . وقد يكون رأيه صحيحا ! وقد يكون الجن
الواعون الخبئاء أصحاب بصر بعالم الجرائم وأصحاب قدرة في إصابة البشر بهذه
الجرائم وما تحمل من علل !! .

ولعل مطلبة المؤمنين بالتعوذ من الجن في أوقات وأماكن معينة ما يشهد
لذلك . فالمسلم مكلف عند الذهاب إلى الخلاء أن يقول : « أعوذ بك من
الحيث والخياث » ! وعندما يتصل بزوجته أن يقول : « اللهم جنينا الشيطان
وتجنب الشيطان ما رزقنا » .

ولا أحب أن أضي في طريق غامضة العالم ! ولا أن أشغل المسلمين بأمور
توفاه ، وبيضتهم مستباحة وحدودهم متحاجة !! .

إن هناك قسما في الأدب يزعمون أنهم يسخرون الجن . وهناك رجال منا
يرددون الدعوى نفسها ..

والفرصة أمام الخرافين موجودة ليبيضوا ويفرخوا !! ولا يجوز أن ننسى قوله
الله لكل مسلم « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل
أولئك كان عنه مستولا » .

إن المسلم الحق يخاصم الأوهام ويصادق اليقين ولا تستفرأ ترهات المرضى ..
قرأت هذا الحديث ثم استغرقني الفكر عن عطاء بن أبي رباح . قال لي ابن
عباس : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ قلت : بلى . قال : هذه المرأة السوداء
أنت النبي - صلى الله عليه وسلم - . فقلت إني أصرع وأتكشف فادع الله لي !

قال : إن شئت صبرت ولث الجنة وإن شئت دعوت الله أن يعافي ثـ ! قـالتـ :
أصـبرـ ، فـادعـ اللهـ لـ أـلـاـ أـتـكـشـفـ ، فـدـعـاـ هـاـ ..

هـذـهـ اـمـرـأـ مـصـابـةـ بـالـمـصـرـعـ آـثـرـتـ أـنـ تـمـوتـ بـهـ ضـامـنـةـ الجـنـةـ كـمـاـ بـشـرـهـ رـسـوـلـ
الـهـ - صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ - .

وـكـلـ مـاـ أـحـبـهـ أـلـاـ يـتـكـشـفـ بـدـنـهـ فـأـثـنـاءـ الـفـيـبـوـيـةـ الـتـىـ تـنـتـابـهـ . وـقـدـ تـكـفـلـ هـاـ
الـتـىـ بـذـلـكـ .. قـلـتـ : لـوـكـانـ مـرـضـهـ مـنـ شـيـطـانـ يـرـكـبـهـ أـكـانـ النـبـيـ الـكـرـمـ يـتـرـكـهـ
صـرـيـعـهـ هـذـاـ اللـعـنـ ؟ مـاـ أـظـنـ .. ! .

مـاـذـاـ يـقـعـ لـوـكـانـ الـمـرـأـةـ مـنـ أـهـلـ هـذـاـ الـعـصـرـ ؟ رـبـمـاـ عـوـلـجـتـ بـالـصـدـمـاتـ
الـكـهـرـيـةـ لـتـشـفـيـ ؟ رـبـمـاـ قـالـ بـعـضـ النـاسـ : يـسـكـنـهـ شـيـطـانـ . وـظـلـوـاـ يـصـرـبـوـنـهـ حـتـىـ
يـنـفـرـ الشـيـطـانـ الـمـزـعـومـ مـنـهـ . وـرـبـمـاـ خـرـجـتـ رـوـحـهـ مـعـ الضـرـبـ الـمـرـحـ ..
لـيـسـ لـمـدـيـ مـانـعـ مـنـ مـنـاقـشـةـ الـمـوـضـوـعـ كـلـهـ بـفـكـرـ مـعـتـدـلـ مـفـتوـحـ ؟ أـمـ الـذـيـ
أـرـضـهـ بـقـوـةـ فـهـوـ إـقـحـامـ الـإـبـيـانـ وـالـكـفـرـ فـيـ الـمـوـضـوـعـ كـأـنـ الـدـيـنـ سـلـوـثـ مـاجـنـينـ ، أـوـ
نـزـوـعـ مـجـانـينـ !! .

الـخـطـأـ وـالـصـوـابـ هـنـاـ فـتـشـبـخـ مـرـضـ . وـقـدـ أـسـبـعـدـ مـاـ يـصـدـقـهـ الـآـخـرـونـ
دـوـنـ حـرـجـ وـأـنـ أـرـدـ حـيـاةـ أـمـتـاـ مـنـ الشـعـوـدـةـ ، وـأـنـخـامـ . وـحـرـوفـ الـجـمـلـ ، وـأـرـقـامـ
الـحـرـوفـ وـحـسـابـ الـطـوـالـعـ . وـصـدـاقـةـ الـأـشـبـاحـ وـتـسـخـيرـ الـجـانـ .. إـلـخـ .

الـمـرـضـ الـحـقـيقـ عـنـ قـوـمـ يـتـهـمـونـكـ بـأـنـكـ تـكـرـرـ الـجـنـ وـعـالـمـ الـغـيـبـ ، لـأـنـكـ
تـرـفـضـ أـوـهـامـهـ . أـوـلـكـ بـلـاءـ عـلـىـ الـإـسـلـامـ .

وـالـنـاسـ فـيـ عـصـرـنـاـ يـعـانـونـ مـنـ الـوـحـشـةـ وـالـإـرـهـاـقـ . وـقـدـ لـقـيـنـ فـتـيـانـ وـفـيـاتـ
يـشـكـونـ مـنـ مـسـ الشـيـطـانـ وـكـدـ الـأـعـصـابـ . وـهـمـ بـحـاجـةـ إـلـىـ مـرـبـيـنـ رـحـمـاءـ

وـفـيـ أـقـطـارـ أـورـبـاـ وـأـمـرـيـكاـ يـقـومـ الـأـطـبـاءـ النـفـسيـونـ بـدـورـ كـبـيرـ فـعـلـاجـ هـذـهـ
الـمـلـاسـيـ بـيـدـ أـنـ أـغـلـبـ هـؤـلـاءـ الـأـطـبـاءـ مـنـ مـدـرـسـةـ «ـفـرـوـيدـ»ـ وـهـوـ رـجـلـ مـعـتـلـ

الفكر طافع الشهوة . ووصايا هذه المدرسة تدور على محاربة الكبت ، وإرخاء العنان للنفس ! .

والكبت الدائم قد يكون سبب بلاه . ولكن الكبت الموقت دعامة التربية والترقى .. والتفرقة بين الأمرين لا يعرفها عديمو الإيمان تاركوا الصلوات ، أحلاس الشهوات .

وهناك شيء كان أولى بالمتدينين أن يعرفوه ويعرفوا الناس به . ذلك أن شياطين الإنس والجن تنتشر في كل مكان . وتحاول الإيقاع بكل إنسان ، والاستعذة منها واحدة ونافعة ! .

وقد أمر الله بها نبيه « وقل رب أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبَّ أَنْ يَحْضُرُونَ »^(٦٨) .

وكان رسول الله يقول : أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمَزَهُ ، وَنَفَخَهُ وَنَفَثَهُ »^(٦٩) . ومن أدعنته : اللهم إني أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمَزِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَدْمِ وَمِنَ الْعَرَقِ . وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَنْخَبِطِي الشَّيْطَانُ عَنِ الْمَوْتِ »

هذا المسلك أفضل من إشاعة سكني الشيطان لبدن الإنسان والاحتيال على طرده بشق الأوهام

(٦٨) المؤمنون : ٩٧ - ٩٨

(٦٩) الهمز النفع إلى المصيبيان . والنفع إلى الكبار . والنفع إلى القلق

فِقْهُ الْكِتَابِ أَوْلَأَ ...

أحاديث حرفت عن مواضعها أو جهل معناها - القتال في
الإسلام - الأمة ليست على مستوى الدعوة الناجحة -
أحاديث الرهد ... - جهالة بعض المحدثين في السنة هذه
الأيام

تلاوة قبيلة للقرآن الكريم ، وقراءة كثيرة للأحاديث . لاعطيان صورة دقيقة للإسلام ليتمكن القول بأن ذلك يشبه سوء التغذية . إذ لا بد من توازن العناصر التي تكون الجسم والعقل على سواء .

ولنضرب أمثلة متدرجة من الحقيق إلى الدقيق : يرى الصناعي أن النذر حرام . معتمدا على حديث ابن عمر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه نهى عن النذر ! وقال : «إنه لا يأتني بخير . وإنما يستخرج به من مال البخيل .

والنذر الذي لا يأتني خير هو النذر المشروط الذي يشبه المعاوضة التجارية . يقول الإنسان : «لله عَلَيْكُمْ كُلَا إِن شَفِيتُ مِنْ مَرْضِي أُوْلَئِنَّ بَعْدَ ابْنِي

الخ

أما النذور الأخرى في طاعة الله فلا يخرج فيها . مادامت من الناحية الفقهية صحيحة

والسؤال : كيف يحكم بأصل الحرمة في النذور كلها مع قوله تعالى في وصف الأبرار «يوفون بالنذر وينفرون يوما كان شره مستطيرا »^(٧٠) ؟ وقوله في موضع آخر « ثم ليقضوا ثقليهم ولি�وفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق »^(٧١) .

وقد رأيت أخهيل بالقرآن الكريم يبلغ حدّاً منكروا عند شرح حديث مسلم

١ (٧٠) الآية -

٢٩) الحج : (٧١)

«كل ذي ناب من السباع فأكله حرام» فإن شارح الحديث زعم أن الحديث
قيل في المدينة المنورة ، وأنه نسخ منزل بعكة من قوله تعالى : «قل لا أجد في
أوحى إلى حرمما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوها أو لحم خنزير
فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به ...»^(٧٢).

والزعم بأن حديث آحاد ينسخ آية من القرآن الكريم زعم في غابة
الثانية ! ثم إن الآية التي قيل بنسخها تكرر معناها في القرآن أربع مرات ،
مرتين في سورة الأنعام والنحل المكثتين . ومرتين في سورة البقرة والمائدة
المكثتين ! ! ، بل ما جاء في سورة المائدة هو من آخر منزل من الوحي ! .

فكيف يفكر عاقل في وقوع النسخ ؟ ثم إن عددا من الصحابة بينهم ابن
عباس . وعددًا من التابعين فيهم الشعبي وسعيد بن جبير . رفضوا حديث
مسلم ! فكيف نترك آية لحديث موضع لفظ ؟

ولندع ما ذكرنا إلى حديث يدخل في دائرة القانون الدولي بلغة العصر .

عن عبد الله بن عون كتبت إلى نافع رحمة الله أسؤاله عن الدعاء قبل
القتال - ويقصد بالدعاء دعوة الناس إلى التحول في الإسلام قبل المعركة - قال
عبد الله فكتب إلى «إيمان كان ذلك في أول الإسلام وقد أغاث النبي - صلى الله عليه
وسلم - على بنى المصطلق وهم غارون ..» .

ونافع - غفر الله له - خطى ! فدعوة الناس إلى الإسلام قائلة ابتداء
وتكرارا . وبنو المصطلق لم يقع قتالهم إلا بعد أن بلغتهم الدعوة . فرفضوها
وقرروا الحرب !

ورواية نافع هذه ليست أول خطأ يتورط فيه . فقد حدث بأسوأ من
ذلك ! .

(٧٢) الأنعام : ١٤٥

قال : كنت أمسك على ابن عمر المصحف فقرأ قوله تعالى : « نساؤكم حوث لكم فأنوا حوثكم أني شتم ... »^(٣) فقال : تدري فيم نزلت هذه الآية ؟ قلت : لا .. قال : نزلت في رجل أني امرأته في دبرها ، فشق ذلك عليه ! فنزلت هذه الآية !!

قال عبد الله بن الحسن : إنه لقى سالم بن عبد الله بن عمر ، فقال له : يا عاص ، ما حديث يُحدّثه نافع عن عبد الله أنه لم يكن يرى بأيّة النساء في أدبارهن ! فقال : كذب العبد وأخطأ . إنما قال عبد الله : يُؤتُون في فروجهن من أدبارهن ..

ونعود إلى رواية نافع وهي عدم الدعوة قبل القتال ونقول : إنه مع اهتزازها فإن أهل الحديث - لقلة فقههم - روجوا لها حتى جعل الصناعي عنوان الموضوع « الغارة بلا إنذار »^(٤) .

غارة بلا إنذار ؟ أين هذا المسلك من قوله تعالى : « وإنما تختلف من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواه إن الله لا يحب الخائبين »^(٥) وقوله : « فإن تولوا قبل آذنتكم على سواه وإن أدرى أقرب أم بعيد ماتوعدون »^(٦) !

والغريب أن الشيخ ناصر الألباني - وهو من أعلم رجال الحديث في عصرنا - عتب علىي أني تركت رواية نافع . وأثرت عليها روايات أخرى وأنا أصوّر طبيعة القتال في الإسلام !!

في كتاب « جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج » أحصيَت أكثر من مائة آية تتضمن حرية الدين ، وتقيم صروح الإيمان على الاتّناع الناف ، وتفصي الإكراه عن طريق البلاغ المبين .

(٣) الآية : ١٠٩

(٤) البقرة : ٢٢٣

(٥) الأنفال : ٥٨

(٦) هذا العنوان من وضع محجع الكتاب استفادة من جوهر الموضوع ، ولالوم عليه ..

وليس في تاريخ الثقافة الإنسانية كتاب ينشئ العقل المؤمن بإنشاء ،
ويعرض آيات الله في الأنفس والأفاق لتكون بناءً على فكر يتعارض مع الله ،
ويستريح إلى عظمته كما وقع في هذا القرآن ...

ومع ذلك . فنحن المسلمين يوجد بيننا من يبني هذا كله ليقف عند رأي
نائمه يزعم أن الدعوة إلى الإسلام كانت في صدر الإسلام ثم ألغيت ! ومن
ألغتها ؟ .

إنه لأمرٍ ما ، يحيى بن خاتم خاص لسورة براءة التي نزلت في السنة التاسعة ،
يقول عن الكافرين : « فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت
وهو رب العرش العظيم » ^(٧٦) ألم هذا الختام رائعاً إكراه ؟ .

إن الإيمان أساس ، والجهاد حارس ، وسباق الحراسة فريضة قاتمة مابقى
في الدنيا من يهدى الأمان ، ويستنكرون الإيمان ؟ .

ومعنى هذا أن الجهاد وسيلة وليس غاية ويبعد تسود الحربات أرجاء
الحياة . وتنمو أعداء التوحيد فلا يرى من يكسرها أو يحرقها . فلا قتل
ولا قتال ، نعم ! لا قتال حيث تستحق الفتنة وتشريع العدالة .

ذلك هو ديننا كما تشرحه آيات الكتاب العزيز . ويظهر في السيرة النبوية
المباركة .

وفي أربعة مواضع متشابهة من القرآن الكريم كانت وظيفة الرسالة المخاتمة :

- ١ - تلاوة الوحي . أو قراءة المنهج الذي يسير عليه المسلمون أو تحديد
النطاق الذي يعملون داخله .
- ٢ - تربية الأمة بتنمية ملائكتها الطيبة وكبح غرائزها الجامحة .

٧٦) التربية : ١٢٩ .

٣- تقرير الأحكام التفصيلية التي جاء بها الكتاب نظاماً للفرد والمجتمع والدولة . وهي أحكام مقرونة بالحكمة والسداد .

هذه الآيات الثلاثة هي عناصر الرسالة التي نهض بها كبار الأنبياء ، وأحيى بها مواريث من سبقوه وأغنى بها العالم عن الفلسفات الأرضية والأهواه البشرية !! .

وقد ذكرت ثلاثة^(٧٧) عند البشرة بالبعثة الأخيرة لما دعا إبراهيم وإسماعيل ربهما يارصال محمد .

وذكرت كلها مرة ثانية^(٧٨) عند جعل المسجد الحرام قبلة الناس في الشارق والمغارب . فكان اتجاه البشر إلى الكعبة نعمة أخرى على العرب بعد ابتعاث النبيّ منهم . فكان تشريفاً لأرضهم بعد تشريف جندهم .

وذكرت مرة ثالثة^(٧٩) بعد هزيمة أحد وانكسار قلوب المؤمنين وحاجتهم إلى ما يجبرها ويعيد الثقة إليها وذلك في سورة آل عمران . التي واسط المهزومين وذكرتهم برسالتهم ..

وذكرت مرة رابعة^(٨٠) عند كشف السر في إقصاء اليهود عن ميدان التربية

١٢٩) البقرة :

«ربنا وابعث فيهم رسولاً مهلاً ينذروا عبادك وينهض الكتاب والحكمة ويركيهم إيمانك العزيز الحكيم» .

١٥١ - ١٥٢) البقرة :

«كما أرسلنا فيكم رسولاً منك شرعاً عليك آياتنا ويركيكم ويعلّمكم الكتاب والحكمة ويعسّكم ما لم تكنوا تعلمون . فاذكركم وأشكروا على لا تكرون» .

آل عمران : ١٦٦) (٧٩)

«لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ينذروا عبادك آياتك ويركيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل في ضلالٍ مبين» .

٤٠٣ - ٢) الجمعة :

«هو الذي بعث في الأميين رسولاً مهلاً ينذروا عبادك آياتك ويركيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن

الدينية . وابعادهم عن رسالات الله . وإحلال العرب محلهم ، بعد فشل بنى إسرائيل في هذه الساحة .

ـ تلك هي رسالتنا تحت عنوانها الرئيسة ! وما من شك في أن المجهاد حق لتأمين الدعوة وهزيمة الفتنين !.

فاما تصوير الإسلام بأنه يتعرض الآخرين وينعطف للدماهم فهو افتراء على الله والملائكة ، ومع أننا أشبعنا هنا الموضوع بعثا في كتابنا الأخرى فإن الحاجة إلى الكلام فيه لازالت ماسة . ذلك أن حديث الإفك لا ينقطع !!

وفي هذه الأيام التحسسات شاعت الخلافات في أرجاء الأمة وقتل بعضها بعضا . بل إن حصيلة القتلى في الفتنة الداخلية أربى من القتلى في محاربة الاستعمار الصليبي العائد المتحالف مع اليهود والنافقين ..

والحكومات الإسلامية على الإيجار دون مثيلاتها من حكومات العالم عدالة وزراة .

والجاهير أقل ثقافة وإنتاجا واقتدارا على الحياة وتكليفها .

والتقاليد السائدة تبتعد عن الإسلام الحنيف روحا ونصرا .

فأمّتنا من أقفر أمّ الأرض إلى التعليم والتربيّة ومعرفة الذات .

وفي هذه الآونة استخرج البعض حديث «بعثت بالسيف بين يدي الساعة . وجعل رزق تحت ظل رمحى ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري ...» .

قلت : لبت لكم سيفا يحمى الحق ، ويرد عنه العوادي ! فإن الحق يغرس وليس له صریخ ! .

كما من قبل لو ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحدوا بهم وهو العزير الحكم ذلك فضل الله بربته من يشاء والله ذو الفضل العظيم

لست لكم رحما ترثرون في ظله ، إنكم تسؤالون أرزاقكم من غراس
علوكم ، وهو الذي يصنع السلاح الذي تشنونه بالغالي والرخيص لأغراض
يعلمها الله ! ..

مالكم وهذا الحديث ؟ قال لي غلام متعالم : إنه يرد كل ما تقول .. !

قلت : سأتجاوز عن ضعف هذا الحديث من ناحية سنته ، ولن أطعن في
صحته - مع أن الطعن وارد - ولكنني أسائل : لماذا لا تعلمون الدين وتحسنون
فقهه والعمل به ، ثم تحسنون الدعوة إليه ؟ عندما يراكم العالم أدنى مستوى
منه فلن يسمع منكم ولن يرتضيكم قادة له ، لا يجوز أن يكون الإمام أجهل
من المؤمن .. !

ما وظيفة السيف في أيديكم وأنتم متظالمون ؟ جائزون عن سبيل الرشاد ؟.

وتدوّررتُ أن «لينين» الحكم الأول للشيوعية ، وناقلها من الميدان
النظري إلى ميدان السياسة ، أله كراسة عن اليسار الطفولي أو الطفولة
اليسارية ، نهى فيها على جيل من الناس يرفع شعار الشيوعية ولا يحسن
خدمتها !! .

قال : «هذه طفولة ، والطفولة تميز بالقصور والعناد» وقد طردها من
ميدان العمل حتى تستطيع الشيوعية الانطلاق دون عائق ..

ولست القباد بق في يد الأطفال ! إذن لاختفت الشيوعية من زمان طوبل
بفضل الأصدقاء الجهة ! .

واليوم توجد طفولة إسلامية تريد الانفراد بزمام الأمة ، وعندما يسمع أولو
الألباب حدثها يطردون محزونين !! .

والغريب أنها طفولة عقلية تجتمع في غارها أرباب لحى ، وأصحاب هامات

وقدامات ! ! يقعنون على أحاديث لايفهمونها ثم يقدمون صورة للإسلام تثير الانقباض والخوف ..

إن نبينا - عليه الصلاة والسلام - تكلم كثيراً وكلامه موضع الإعزاز والطاعة . « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع ياذن الله .. » وكان يمكن أن تعرف مرامي الكلام وحقائقه لو ضبطت الملابسات التي قيل فيها ...

وأيما كان الأمر فإن إطار القرآن الكريم ضابط دقيق إذا عرّت معرفة الملابسات .

ونحن نلحظ أن القرآن أطّال الحوار مع مخالفيه . وافتى قبل أي شيء في بسط براهينه على صدق عقائده . وشرف عباداته . وجدوى ما يدعوه إليه من عمل صالح وغيّيات كرية ..

وفي طول السور وعرضها مناشدة حارة للإنسان أن يرعوي ويتوب إلى رشده ويتوب إلى ربه .

ولم تبدأ سياسة العصابة الغليظة إلا بعد أن أوجعت عصى الأعداء جلود المؤمنين ، وكسرت عظامهم . هنا نزل قوله تعالى: « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » ^(٨١) .

وأنبياء الله على اختلاف الليل والنهار خاصوا أشرف فتال يمكن أن يقع على ظهر الأرض ! والقول بأن فرعون كان أولى بالحق من موسى . أو أن اليهود كانوا أولى بالنصر من عيسى . أو أن خصوم محمد كانوا أولى بالبقاء منه قول عاهر منكور . لا يصدر من صاحب دين أو خلق ! .

المهم أن المتمين إلى الله يحسّون أولاً الدعوة ويوفّرون فرص السلام

والصالحة . ويقدرون أخطاء الطياع البشرية فإذا أخلوا بعديده للقتال كانوا رجالا ، وكانوا كراما ..

وهذا ما فعله محمد - عليه الصلاة والسلام - وعرف في سيرته بوضوح ، وقد تلصص شوق في كلمات موجزة :

الحرب في حقٍّ لديك شريعة ! ومن السموم الناقعات دواء !!

فإذا جاء مسلم قصیر الرؤبة . وكان أول ما يذکرہ في معاملة أعداء الإسلام الحديث المعروف « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ... » كان إنسانا من يخرون الكلم عن مواضعه . ويعاملون ببغاء شديد مع تراث النبوة ..

وقد شرحتنا في كتاب آخر أن الحديث قبل مع نزول سورة براءة ، قبل وفاة الرسول بنحو عام . وبعد جهاد رهيب مع وثنيات أعطاها الإسلام حق الحياة . ولم تغطه إلا الموت ! ، وعاش معها دهرا على مبدأ « لكم دينكم ولـي دين » فلم ير منها إلا الغدر والاغتيال ! .

وكان آخر ما صنعت لتعيد الليل إلى جزيرة العرب أن كذبها اسمه « مسليمة » قام بحركة ردة مزعجة لم يطفئها حفاظ القرآن إلا بدمائهم . فتفانوا في إطلاقها حتى كادوا يبيدون . وحتى خيف من انفراط المحفظة بعد العدد الكبير الذي استشهد منهم !!

وصدر سورة براءة يعطي صورة كاملة لهذه الوثنية الخائنة الجريئة . وفي هذا الجلوب قبل هذا الحديث « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ... » فلا يجوز لجاهل أن يدعي به مكانة ! .

هل قبل يوم صعد الرسول الصفا غداة أرسل وشرع يذكر الجاهلين بالبعث ويدعوهم إلى التوحيد ؟

هل قيل يوم عاد كسير القلب من الطائف ، ودخل مكة في جوار مشرك ؟ .
هل قيل يوم اختفى في الغار ليصل مطارديه ويطلب الحياة لنشر الدعوة في
أرجاء الجزيرة ؟ .

هل قيل يوم أعطى الناس في المدينة المنورة حق اللحاق بمشركي مكة وترك
الذين إذ استهبطوا تكاليفه ؟ .

والحمد لله لم يرتد أحد ، ولم يلحق بالمشركين رجل ولا امرأة ! بل الذي
حدث هو العكس ..

هل قيل في عمرة القضاء . قيل فتح مكة بعام ، وهو يطوف بالكعبة
وحوطاً مئات الأصنام فلم يكسر منها صنما ! ولم ينقض للمشركين عهدا ؟ .

إن أهل الفقه هم الذين يتحذثرون عن الإسلام ، ويشرون المرويات التي
حفلت بها الكتب ووقع عليها الدهماء كما يقع الذباب على العسل .

وقد كان أهل الفقه قدما هم المتحذثين عن الإسلام . وأعرف الناس
بتراث النبوة ..

وأنا وغيري من المشغلين بالدعوة الإسلامية نظر باهتمام بالغ إلى أحوال
الناس وراء دار الإسلام . نظر إلى التيارات الفكرية التي تسودهم والمذاهب
الخلاقية والدينية التي تؤثر فيهم وأنصبة الحضارة التي حصلوا عليها ، ومقادير
الإنتاج التي يصدرونها للعالم .. الخ .

وكيف نحسن الدعوة إذا لم نعرف ذلك كله ؟ وقد قرأت كلمة للأستاذ أحمد
بهاء الدين يشرح فيها شيئاً من ذلك ، رأيت أن أسجلها هنا . قال :

« بعض القراء يراني معجباً بالمجتمعات الأوروبية والأمريكية عندما أتحدث
عنها في رحلاتي . وهذا صحيح ! لكنني كذلك أكره فيها أشياء أخرى . ترى
ما الذي أثر نقله إلى الناس في بلدي ؟ .

البعض يفضل أن أنقل نقاط الضعف في المجتمعات الأخرى ! وهذا خداع للنفس . وإرضاء لغور كاذب . واستئامة إلى أننا أحسن من غيرنا . وتلك غيبة باهظة الثمن .. !

نحن هنا نحب أن تكتم عيوبنا وأمراضنا ! أما هناك فهم يسرعون إلى مناقشة أمراضهم الاجتماعية علانية ومصارحة !! ولذلك يستشرون منها . على حين يبق المرض لدينا كامنا ..
ومالازهار أو مالانتشره يُعد كأنه غير موجود . وذلك بلا مجتمعات الكثبان . لاتزال تناهى حتى تلك !

وقد تخطى علينا هذا الطور . وشرع ينافش أخطاءه بقوة المدرارات .
الحمور . تصبح مشكلة قومية رسمية وشعبية ! و «الإيدز» تتفجر أباً زهراً
بمجرد ظهوره كالقبلة على حين نسمى «الكوليرا» حين تظهر بأمراض
الصيف ! ويفضي كل شيء في هذه ! .

وهناك أمر آخر الانكليز يعتبروننا كسلى لأنهم يعملون من الصباح إلى
المساء . والأمريكان يعتبرون الانكليز كسلى . لأن الأمريكي يعمل ضعف
الإنكليزي . ولا يقطع يوم العمل بشرب البيرة ! ومن يرى الأمريكي أو
الأمريكية يعملون يظن أنهم شعب فقير يبني مستقبله بالكذب والكفاح . مع
أنهم أغنى الشعوب ! .

والآن ظهر اليابانيون يهمنون الأمريكيين بالكسل ! . والأمريكان في ذعر
من «مرض» العمل والاجتهد والتتفاني لدى اليابانيين . إنهم يعتبرونهم مرضى
لعدم وجود أي متعة يرثون بها عن أنفسهم . ولذلك يرون المنافسة غير عادلة
بين الشعبين الكبيرين ... هذا هو العالم الذي يتقدم من حولنا .

ويلقي بقوة شبع القيم التي لا تحتاج إلى عملة صعبة . ولكن لها ثمارا
يائعة . أو مردودا هائلا .. النظام . احترام الدور والقواعد العامة للحياة

النظافة الناتمة فلا تجد من يلق ورقة على الأرض ..

ثم قال الأستاذ أحمد بهاء الدين : «شكالى سائح أمريكي - ونحن فى روما - من قذارة الإيطاليين ، لأنهم ينزلون من السيارات - الحافلات - ويلقون تذاكر الركوب على أرض الشارع .. » [انتهى كلامه] ونقول :

هذه أنباء السباق الحضارى بين الدول الصناعية فى أوروبا وأمريكا وشرق آسيا ! ترى ما أخبار العرب والمسلمين فى هذا الميدان ؟ الأخبار المؤكدة أنتا شعوب مستهلكة لامتنجة وأنتا تأخذ أكثر مما تعطى ..

ويستحيل أن تنجع رسالة كبرى يوم يكون حملتها فى هذا المستوى ! إن امتلاك الحياة الدنيا عن قدرة وخبرة هو السبيل الأوحد لنصرة المبادئ والمناهب ..

و يوم اشتباك المسلمين الأوائل مع الدولتين العظميين الروم والفرس كانوا أحق بالنصر لأنهم نازلوا أعداءهم فى الميادين التقليدية المعروفة ، وحملوا ذات الأسلحة . وتفوقوا عليهم بالإيمان الحق وتأييد الله ...

ثم وقع فى عصور التخلف الحضارى أن انسحب المسلمين انسحابا عاما شائنا من آفاق الحياة ، وسيطرت عليهم أفكار غريبة .. فهموا أن الاستعلاء على مغريات الدنيا يعنى ترك الدنيا ، وأن النجاح فى الامتحان يكون بالفرار منه لا بالدخول فيه واجتياز مشقاته ...

ونسبت تعاليم القرآن الذى تقرر أن الأرض مخلوقة للناس ، وأن التكين فيها جزء من رسالة الحياة الأولى والأخرى وحلت محل هذه التعاليم أحاديث تغى بالفقر والتجرد !

ومع أن هذه الأحاديث عند التأمل تخالف أحاديث أخرى أصح منها سنتا ومتنا ، وقبل ذلك تخالف منطق القرآن الذى يجعل الجهاد ركنا لحراسة الإيمان

ونظمه وشعيه . مع ذلك فإن هذه الأحاديث وجدت رواجا وسيطرت على الجاهير الكثيرة .

قرأت خمسين حديثا ترحب في الفقر وقلة ذات اليد وما جاء في فضل القراء والمساكين والمستضعفين وحبيهم وبمحالتهم كما قرأت سبعة وسبعين حديثا ترحب في الزهد في الدنيا والاكتفاء منها بالقليل وترهب من حبها والتکاثر فيها والتنافس .. وقرأت سبعة وسبعين حديثا أخرى في عيشة السلف وكيف كانت كفافا ..

ذكر ذلك كله المنذر في كتابه الترغيب والترهيب وهو من أمهات كتب السنة . ورحم الله المؤلف الحافظ وغفر لنا وله ، فهو حسن النية ناصح للأمة . بيد أن الفقه الصحيح يقتضى منهاجا آخر . ومسلكا أرشد ..

وأعرف ويعرف غيري أن عبادة الدنيا أهلكت الأولين والآخرين وأنها من وراء جرائم مذلة يقترفها الخاصة قبل العامة ، والرؤساء قبل الأنبياء والأذكياء قبل الأغبياء ، ولكن العلاج الصحيح للداء العضال يكون بالتقن من الدنيا والاستكبار على دنایاها ..

املك أكثر مما ملك قارون من المال ، وسيطر على أوسع مما بلغه سليمان من سلطات ، واجعل ذلك في يديك ، لتدعم به الحق حين يحتاج الحق إلى دعم . وتتركه لله في ساعة فداء حين تخين المنية ! أما أن تعيش صعلوكا يحسبا أن الصعلكة طريق الجنة فهذا جنون وفتن .

إذا كان الإلحاد يفرض سلطانه بالتكين في الأرض ، فإن انصرافك عن التكين من الأرض فاحشة أشد من الزنا والربا ..

ولنقاش بعض ماروى في هذا المجال لنعرف ماوراءه : عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، اشتكي سليمان الفارسي - في مرض موته - فعاده سعد بن أبي وقاص ، فرأاه يبكي ، فقال له سعد : ما يبكيك يا أنسى ؟ أليس قد صحبت

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ أليس ؟ أليس ؟ .

قال سليمان : ما أبكي واحدة من اثنتين . ضئلاً على الدنيا ولا كراهة للآخرة ، ولكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عهد إلينا عهداً ، وما أرأني إلا قد تعديت !! .

قال سعد : وما عهد إليك ؟ قال عهد إلينا أنه يكفى أحدهم مثل زاد الراكب ! ولا أرأني إلا قد تعديت ! وأما أنت ياسعد فاتق الله عند حكمك إذا حكمت ! وعند قسمك إذا قسمت ! وعند همك إذا همت !

قال المنذري : وقد جاء في صحيح ابن حبان أن مال سليمان جمع بعد وفاته - بلغ خمسة عشر درهماً .

إن سليمان من أكابر الصحابة وأوفيائهم . والحديث يفيد أنه وجل من لقاء الله وتركه خمسة عشر درهماً .

وإنها لصورة تثير الخشية والخشووع أن نرى أميراً من أمراء الفتح الإسلامي يلقى ربه بهذا التجرد والتبلي ! .

على حين نرى القادة والأمراء يتسبعون من الدنيا بلا حدود ! .

لكن للفقه سؤالاً هنا : إن سعد بن أبي وقاص الذي كان يجاور سليمان سمع من رسول الله هذا التوجيه «إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن ترثهم عالة يتکففون الناس » فليس الميراث الكبير جريمة ؟

وسعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة - كما جاء في السنن - وهو لواء العشرة كانوا من أغنياء المسلمين . بل لم يكن فيه فقير !

وزعم الرواة أن أحدهم خلف من الذهب ما كانت تعلم فيه الفتوس !! .

المشكلة ليست في امتلاك المال الواسع بل المشكلة في كيف تمتلكه ؟ وكيف تنفقه ؟ وقد رأينا في الدنيا أغنياء بنوا الجامعات حصونا للعلم والبحث ، وأغنياء

حاربوا المرض والشظف بأس شديد ، وأغنياء قدموه للدوفم ما تطلب من ضرائب
كي تفزع موازنتها إقامة للمصالح العامة .

ورأينا عثمان بن عفان يعين إعانة رائعة في الإعداد لغزوة العسرة ، حتى جعل
الرسول يقول : اللهم ارض عن عثمان فإني راض عنك .

الواقع أن حديث سلمان ليس إلا تعبيرا عن حالة نفسية خاصة . ولا يعطي
حكما شرعا عاما ..

وننظر النظرة نفسها إلى مارواه أَحْمَدُ بْنُ سَعْدٍ قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ
اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِيَلَّا فَرَبِّي . فَدَعَاهُ فَخَرَجَ إِلَيْهِ ! ثُمَّ مَرَّ بِأَبِي بَكْرٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَدَعَاهُ فَخَرَجَ إِلَيْهِ . ثُمَّ مَرَّ بِعُمَرَ رَحْمَةَ اللَّهِ فَدَعَاهُ فَخَرَجَ إِلَيْهِ .
فَانطَّلَقَ حَتَّى دَخَلَ حَانَطَلَ لِبَعْضِ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ لِصَاحِبِ الْحَانَطَلِ : أَطْعَمْنَا .

فجاء بعنق فوضعه . فَأَكَلَ رَسُولُ اللهِ وَأَصْحَابَهُ : ثُمَّ دَعَا بِمَاءِ بَارِدٍ
فَشَرَبَ . فَقَالَ : لَتَسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا يَوْمِ الْقِيَامَةِ ! فَأَخْذَهُ عَمَرُ الْعَلْقَنْقَ فَضَرَبَ بِهِ
الْأَرْضَ حَتَّى تَأْثِيرَ الْبَسْرِ قَبْلَ رَسُولِ اللهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ : إِنَّا لَمُسْتَوْلُونَ عَنْ
هَذَا يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ نَعَمْ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَ :
« خَرْقَةَ كَفَّهَا عُورَتُهُ (أَيْ صَرْتَهَا) أَوْ كَسْرَةَ مَذَبَّهَا جَوْعَتُهُ ، أَوْ جُحْرٌ يَنْدَحِلُ
فِيهِ مِنَ الْحَرَّ وَالْقَرَّ » !! .

وفى رواية أخرى « ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال - والرواية عن
عثمان بن عفان -:

« بَيْتٌ يَكْنَهُ ، وَثُوبٌ يَوْرَى عُورَتُهُ ، وَجَلْفُ الْخَبَزِ وَالْمَاءِ » !! .

وفى عبارة البهيف « كل شىء فضل عن ظل بيت ، وكسرة خبز ، وثوب
يوارى عورة ابن آدم فليس لابن آدم فيه حق » !! .

قال الحسن البصري لراوى الحديث : ما يمنعك أن تأخذ به ؟ - وكان يعجبه

الجمال - فقال الرجل للحسن : يا أبا سعيد إن الدنيا تقاعدت بي !!

ورأى أن الرجل كان يستطيع تقديم إجابة أفضل ، إجابة من كتاب الله تعالى . فبدل أن يردّ تعلّمه الفطري إلى حب الدنيا ، يقول : « قل : من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطبيات من الرزق . قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيمة »^{٨٢} ولو جعلنا هذه المرويات محور حياة عامة لشاع الخراب في أرجاء الدنيا !! .

فهل هذه المرويات باطلة ؟ ربما ظن البعض أنّ أرى ذلك ! الواقع أن هذه المرويات تساق في مجال محمد هدف محمد . وهي جرّع من أدوية يتناولها الإنسان حتى لا يكون منهوماً بالدنيا شيئاً وراء بعض الحرمان الذي يطرأ عليه !! .

كم من الناس لا يجد إلا هذه الضرورات ؟ ومع ذلك لم يمت .
وكم من الناس أيام الحروب والأزمات عاش داخل هذا النطاق ومع ذلك لم يمت .

وكم من الناس لديه أنصبة مضاعفة من هذه الأرزاق ومع ذلك لم يقدر ولم يشكر !!

إن عثمان بن عفان راوى هذه المعانى كان من الأغنياء . وقد استفاد من وعيها طلب الآخرة والاستعلاء على رذائل البخل والطمع !

إن سعة الفقه لا بد منها لفهم مرويات شتى ! .

وقد وقف الحرفيون عند هذه الآثار فوقفوا بالعالم الإسلامي كما وقف حمار الشيخ في العقبة لا يتقدم ولا يتأخر ! بل لعله تراجع إلى العصر الحجري في بعض جوانبه !! .

ويبدو أن الطيش في فهم المرويات ، وسوء تقديرها مرض محنور العقلي من

قديم فقد روى الترمذى عن الحارث الأعور قال : مررت في المسجد فإذا الناس
جخوضون في الأحاديث ! فدخلت على رضى الله عنه فأخبرته ، فقال : أور قد
فعلوها ؟ قلت : نعم ! قال : أما إنى سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
يقول : أما إنها ستكون فتنة ! قلت : فما الخرج منها يارسول الله ؟ .

قال : « كتاب الله تعالى فيه بما قبلكم . وخبر ما بعدكم . وحكم
ما بينكم ! هو الفصل ليس بالهزل ! من تركه من جبار قصمه الله تعالى . ومن
ابتغى الهدى في غيره أضله الله تعالى . وهو حلل الله المتن . وهو الذكر
الحكيم . وهو الصراط المستقيم .

وهو الذي لا تزيغ به الأهواء . ولا تلتبس به الألسنة . ولا تشيع منه
العلماء . ولا يغلق على كثرة الرد . ولا تتفقى عجائبه ...

وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : « إنما سمعنا قرآنًا عجباً يهدى إلى
الرشد فاما به ». .

من قال به صدق . ومن عمل به أجر . ومن حكم به عدل . ومن دعا إليه
هدى إلى صراط مستقيم !
خذها إليك يا أعور (١) .

إن الحكم المدیني لا يؤخذ من حديث واحد مفصول عن غيره . وإنما يضم
ال الحديث إلى الحديث . ثم تقارن الأحاديث المجموعة بما دلّ عليه القرآن
الكرم . فإن القرآن هو الإطار الذي تعمل الأحاديث في نطاقه لاتعدوه . ومن

(١) يرى البعض أن الحارث ضعيف - فهو منه بالتشكيك - وعده أئمة الحارث
الأعور من الرواة الذين ثار حوجه لخط لأنه منهم بالتشكيك وقد أشار الأعمش عنه هذه النهاية ويدو
أن ذلك نصلة تشدد إلى بي أمية . وقد فرأت عنه أخيراً بحث للباحثين المغاربيين المشتمل بعنوان الحرج
والتعديل . وعلم مؤلفات حديثه كبيرة . وعرفت أن الحارث من النقاد . وقد يكون أحسن حالاً
من بعض رواة الصحاح .

ومتن الحديث الذي أتبته تبدو عليه أنوار النبوة .. ولا يضره طعن الطاعنين ...

زعم أن السنة تقضي على الكتاب . أو تنسخ أحكامه فهو مغور !

ويوضح ما قلنا مارواه ابن كثير في تفسيره عن الإمام محمد بن إدريس الشافعى رحمة الله قال : « كل ماحكم به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهو مما فهمه من القرآن ! قال الله تعالى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخاتين خصيما » ^(٨٣)

وقال : « وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ماتنزل إليهم ولعلمهم ينفكرون » ^(٨٤)

وهذا قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ألا إني أوتت القرآن ومثله معه » يعني السنة ..

وهذا صحيح ! فإن حياة محمد - صلوات الله عليه - كانت نطبيقا عملياً لتوجيهات القرآن ! كانت سيرته في العبادة والخلق والجهاد والمعاملة قرآن حيّاً يغير الأرض ويصنع حضارة أخرى . ولو لا هذه السنة العملية والقولية لكان القرآن أشبه بالفلسفات النظرية الثابتة في عالم الخيال !

إن سنة محمد في النواحي الاجتماعية والمدنية والعسكرية . وقبل ذلك كله في شرائع العبادة والاعتقاد جزء لا يتجزأ من الرسالة الخالدة . فإن الإسلام يتكون من الكتاب والسنة كما يتكون الماء من عنصريه المعروفين

ونحن هنا ننذوذ عن الروايات الواهية . والأحاديث المعلولة كما ننذوذ عن القرآن نفسه التفاسير المترفة والأفهام المختلفة . ليبق الوحي الإلهي نقيا .

إن ركاماً من الأحاديث الضعيفة ملأ آفاق الثقافة الإسلامية بالغثيم . وركاماً مثله من الأحاديث التي صحت . وسطوا التحرير على معناها . أو لابسها كل ذلك جعلها تنبو عن دلالات القرآن القريبة والبعيدة .

٤٤ (٨٤) التحالف :

. (٨٣) النساء : ١٠٥ .

وقد كنت أزجر بعض الناس عن رواية الحديث الصحيح حتى يكشفوا الوهم عن معناه ! إذا كان هذا المعنى موهما . مثل حديث « لن يدخل أحد الجنة يعمله ... الخ »

إن طوائف من الطالبين والفاشلين وقفت عند ظاهرة المفوض . وحسبوا أن الجنة تدخل دون عمل ، وتناسوا عاديين عشرات الآيات التي تجعل دخول الجنة نتيجة عمل واجب .

فكتبت أبين لهم أن الحديث ينفي الاغترار والاستكبار بالعمل أي ينفي أن الجنة ثمن العمل المقدم ، ولكنه لا ينفي أبدا أن العمل سببها المحتوم لقوله تعالى : « ونودوا : أن تلكم الجنة أورثموها بما كنتم تعملون » ^(٨٥)

وكتير من القصاص والوعاظ بنقصهم الوعي الذكي بالقرآن والاقتراب الخاشع من معازيه وبيانه . ومع ذلك فلديهم ثروة طائلة من أحاديث الأحاديث التي تحتاج إلى ترتيب وحسن إدراك .

وقد غايتها أن أحدهم كان يطير في الجامع بمحدث « أبي وأبوك في النار » وكأنما يسوق البشري إلى المسلمين ، وهو يشرح لهم كيف أن أبي رسوطم في النار !!

قلت : قبحك الله من داع أعمى البصيرة ! مالديك شيء من فقه الإسلام ، ولا من أدب الدعوة ..

ومثلك لا يزيد الأمة إلا خبلا باسم السنة ، والستة منك براء ... ! قال الشيخ يوسف القرضاوى في شرح حديث « أبي وأبوك في النار » : إن الأب قد يطلق لغة واصطلاحا على العم ، فلعل المقصود بالأب هنا عمه أبو طالب .

(٨٥) الأعراف : ٤٣

ذلك أن أبا طالب عُرِضَت عليه كلمة التوحيد قبل أن يموت فلما أُنْطَقَ

بها

... وَنَحْنُ نَقْبِلُ هَذَا التَّأْوِيلَ حَتَّى لَا يَقْعُدْ تَعَارُضُ بَيْنِ السُّنَّةِ وَالْكِتَابِ .. !

وَقَدْ سَمِعْتُ بِأَذْنِي مَنْ يَقُولُ : الْحَدِيثُ صَحِيحٌ وَهُوَ يَخْصُصُ عِلْمَ الْآيَةِ ..

فَأَهْلُ الْفَطْرَةِ نَاجُونَ جَمِيعاً - عَدَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ .. ! ! قَلْتُ لَهُ : مَاذَا فَعَلَ حَتَّى يَسْتَحْقُ وَحْدَهُ النَّارِ ؟ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ شَاباً شَرِيفاً عَفِيفاً حَكِيَّاً عَنْهُ التَّارِيخُ مَا يَرِيهِ ! وَلَمْ يَجُثْ عَنْهُ مَا يَشْبِهُ ! وَالْآيَةُ خَبْرٌ لَا يَتَحَمَّلُ اسْتَنَاءً . فَلَا حَاجَسَكُمْ فِي تَعْذِيبِ عَبْدِ اللَّهِ ؟ وَمَا جُرِيَّكُمْ هُنَا وَهَنَّاكُمْ بِهَذِهِ الشَّائِعَةِ ؟ وَمَاذَا وَرَاءَ تَأْكِيدِكُمْ أَنَّ أَبْوَى الرَّسُولِ فِي النَّارِ .. ! إِنِّي أَشَمُّ رَأْثَةَ النَّيلِ مِنْهُ فِي هَذَا الْجَهَنَّمِ الْأَعْمَى .. ! ! .

أحاديث الفتن

نظرة سريعة - الدجال زعيم اليهود - مصرعه ، وبده طور
جديد للإسلام - مناقشة حديث الساق - مناقشة ما يقطع
الصلوة

قرأت أحاديث كثيرة في الفتن وعلامات الساعة ، وخرجت من قراعتي وأنا
أ Singh البصر خلال غيوب لا أدرى أعمقها !

إني وسائر المسلمين نؤمن بقيام الساعة ، والإيمان باليوم الآخر حق ، ولا يتزدد
فيه إلا كافر ، وليس يعنيني كثيراً أن أعلم حقائق ما يقع من حساب وثواب أو
عقاب ، فإن تفاصيل ذلك فوق العقل ...

ولكنني أشعر بأن العالم في أواخر عمره من هذه الدنيا سيتصادف بلاه ،
وسيحصد الشر مما غرس على امتداد تاريخه من آلام وانحرافات !

لطلما نسي ربّه . وأهمل وحيه . وأطاع هواه ! فلا عجب إذا قال ربنا
تبارك اسمه : « وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيمة أو معذبها عندياً
شديداً . كان ذلك في الكتاب مسطوراً »^(٦٦) . وثالث القرى أهلكناها لما علموا
وجعلنا لهمكم موعداً »^(٦٧) ..

ولا يستغربن أحد أن يكثُر الدجالون الذين يغرون بالجاهير ، ويسخرون
مالديهم من فضل معرفة في إتاحة الناس عن الحق ، وتدوينهم هنا وهناك ...
وتشير الأحاديث إلى أن عشرات الدجالين سوف يظهرون ، وأن هناك دجالاً
مستطير الشر سيفوق إخوانه في فنون الدجل وأن عشرات الآلوف من اليهود
يتبعون هذا الدجال الأخير !!

(٦٦) الإسراء : ٥٨

(٦٧) الكهف : ٥٩

و قبل أن أذكر نماذج من الأحاديث الواردة أقر حقيقة واحدة هي أنا نحن المسلمين نؤمن بالله لاحدود لمحده ولا مثني لكماله وعماه ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

خلقنا ورزقنا وكسانا وآوانا وعلمنا وربانا وأفاض علينا من آلامه مالا يحصي .
وأنا ستنظر نذكره ونبعده ما يقينا على ظهر الأرض ، مستعدين بذلك للقاءه بعد الموت لستأنف حياة أخرى عنده عامرة بالثناء عليه والتسبيح بمحمه ! .

ذلكم هو الصراط المستقيم الذي هزم به الفتنين ونرد به الشياطين ، ونراهم به كل دجال يحاول إضلالنا أو ثنينا عن هدفنا العظيم ... !

بعد هذه المقدمة أذكر بعض ماقرأت عن الدجال بإيجاز ، ففي حديث أنه مكيل بالقيود في إحدى الجزر ببحر العرب أو بالخيط الهندي . وقد لقيه تميم الداري وهو رجل كان نصرانيا وأسلم ... ثم التقى برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحدثه بأنه لقي الدجال في ونافه الذي يحبسه عن الانسياح في الأرض . وأنه موشك على الانطلاق ليقوم بفتنته آخر الزمان .

وفي حديث آخر وصف لأسرة الدجال . وفيه : إن أبويه يمكثان ثلاثة عاما لا يولد لها ولد وأخيرا يولد لها غلام أبور أضر شيء وأقله منفعة !

قال أبو بكر رضي الله عنه : فسمينا بمولود في المدينة بين اليهود . فيه شيء من هذه الصفات ، فذهبت أنا والرَّبِّير بن العوام حتى دخلنا على أبويه ، فإذا هما كذا نعمت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ! ونظرنا إلى ابنها فإذا هو منجدل في الشمس في قطبية له وله همة ... الخ .

قال الشارح : لعل الدجال - وقد ولد من يهود المدينة - قد انقلب بعد ذلك إلى الجزيرة التي رأى فيها تميم الداري !! .

وللتواتس بن سمعان حديث طويل في الدجال . ذكر فيه طرقا من القوة التي

رُؤُدْ بها أو الفتنة التي يثيرها بين الناس قال : « ... يأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فِي دِعَوْهُمْ - إِلَيْنِي عِبَادَتِهِ - فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيُسْتَجِيبُونَ لَهُ ، فَيُأْمِرُ السَّمَاءَ فَتَمْطَرُ وَالْأَرْضَ فَتَبْتَلِي فُرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحُهُمْ أَطْوَلُ مَا كَانَتْ ذُرَّىًّا وَأَسْبَغَهُ ضَرُوعًا وَأَمْدَأَهُ خَوَاصِرًا ! ! ! أَمَا الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِهِ فَيُنَصَّرِّفُ عَنْهُمْ فَيُصْبِحُونَ مُمْلَحِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِّنْ أَمْوَالِهِمْ ! ! ! .. الْخَ .

ثم ينزل عبيسي بن مررم فلا يزال يطارد الدجال حتى يدركه بالله فيفتنه .
وبريع الناس من شروره ...

والآحاديث التي اقتبسنا منها هي آحاديث آحاد ، وبعضها في الصحاح ..
والروايات عنه كثيرة . وفي إحداها : أنه مكتوب بين عيني الدجال (كفر)
أى كافر يقرؤه كل مسلم !!

وق رواية عن أم شريك عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : « ليفرن الناس من الدجال في الجبال ! قالت أم شريك : يارسول الله ، فلين العرب يومئذ ؟ قال : هم قليل ... » .

ويظهر لـ أن الدجال من زعماء اليهود ، وقد يكون من كبار علمائهم الكوئين ، وهو يمثل عوج الفصimir اليهودي وانقطاعه عن الله ، بل عداوه له ..

وقتها قبيل الساعة تمثل خاتمة الصراع السيني بين أتباع الأديان الثلاثة . فالاليهود بقيادة مسيحهم يحاولون الظهور والسيطرة والنصارى مستمدون بأيقوناتهم وثالوثهم وصلبانهم وسيرتهم الاجتماعية المعروفة . وهم يظاهرون اليهود على العرب .

والمسلمون فرق شتى فيها الصالح المستقيم في المقاومة . وفيهم الثانيه المأهوم على وجده .

ومع اشتداد الصراع الدینی يقدم الزحف الأحمر من الشرق جيشاً بعد

جيش : وفوجا بعد فوج . فلا يصدئ شيء . . .
 في غار هذه الفوضى الفخارية ينزل عيسى بن مريم لبؤيد عقيدة التوحيد .
 ويصلق النبأ الخاتمة ويقتل إله اليهود . ويواجه بال المسلمين الزحف الأحمر .
 زحف يأجوج وماجوج حتى يقضى بقدرة الله عليه
 ذلك مافهمته من حشد هائل من الأحاديث التي تبانت فيها عبارات
 الرواية . وتخللتها بعض الأوهام .

وفي القرآن الكريم إشارات موجزة لبعض مافهمنا .
 ونترك الأحاديث العظام التي تقع قبيل الساعة إلى بعض مشاهد القيمة .
 ومواقف الحساب أمام رب العزة : لا زرب أن يوم الحساب يوم رهيب . يلقى فيه
 العصاة والفحار ما لم يخطر لهم ببال « يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى
 المسجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يدعون إلى
 المسجود وهو سالمون » (٨٨) !

والآيات تعني أن الذين أفسدوا العصياني في الدنيا والمرتد على الله يخسرون
 بعاداتهم التي أفوهوا من قبل . فلا يقام لهم عوج . ولا ينظم لهم حفل . وتكون
 حالتهم على تلك المشاهد وهم يقادون إلى العذاب ويقع بهم القصاص
 لقد أبوا في دنياهم إلا أن يكونوا أشارةً فلينذوقوا ما أرتفعوا لأنفسهم !
 وكلمة « يوم يكشف عن ساق » تعبير عرب أصيل . قال ابن عباس : تقول
 العرب للرجل إذا وقع في أمر عظيم فلديه بخاتم فيه إلى الجد ومقاسات الشدة :
 شَرًّا عن ساقك ! .

ولما مثل عن هذه الآية قال : إذا خفي عنكم شيء من القرآن . فابتعدوا في
 الشعر فإنه ديوان العرب . أما سمعتم القائل :

منَّ لنا قومك ضرب الأعنق وقامت الحرب بنا على ساق !
وأنشد أبو عبيدة :

فإن شمرت لك عن ساقها فدتها ربيع ، ولا تأس !
وقال جرير :

الارب ساهي الطرف من آل مازن إذا شمرت عن ساقها الحرب شمرا
على هذا الأساس فهم ابن عباس - وهو ترجمان القرآن - الآيات ، وتبعد
العلماء من الصحابة والتابعين ، ومانعرف إلا هذا التفسير للوحى الكرم .

حتى جاء بعض المؤلفين بمشكل الحديث وغريب الروايات ، فذكروا كلاما
آخر لابد من كشف حقيقته لخطورة مضامينه وشذوذها عما يعرف علماء
المسلمين .. قالوا : إن الساق هي العلامة التي يعرف بها المؤمنون ربهم في امتحان
عصيب يحرى لهم يوم القيمة !! .

والقصة كما ذكروها تتلخص في أنه بعد إلقاء المشركين في العذاب يبق المسلمين
وحدهم : « حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أثأهم رب العالمين في
أدنى صورة من التي رأوه فيها ! فقال : ماذا تتظرون ؟ تتع كل أمة ما كانت
تعبد ! قالوا : ياربنا فارقنا الناس في الدنيا أفق ما كنا إليهم ! ولم نصاحبهم !
فيقول : أنا ربكم فيقولون : نعوذ بالله منك لا تشرك بالله شيئاً مرتين أو ثلاثة حتى
إن بعضهم ليكاد أن ينقلب ! .

فيقول : هل بينكم وبينه آية ؟ فتتعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم ! فيكشف عن
ساق . فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود .
ولا يبقى من كان يسجد انتقاماً ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة . كلما أراد أن
يسجد خرّ على قفاه ! ثم يرفعون رؤسهم وقد تحوّل في صورته التي رأوه فيها أول
مرة فقال : أنا ربكم ؟ فيقولون أنت ربنا .. ! .

هذا سياق غامض مضطرب منهم ! ! وجمهور العلماء يرفضه ، وقد حاول القاضي عياض القول بأن الذى جاء المؤمنين في صورة أنكرواها أول الأمر هو أحد الملائكة . وكان ذلك اختبارا من الله لهم . وهو آخر اختبار يلقاه المؤمنون ! !

ومحاولة القاضي عياض لا تقدم ولا تؤخر ، فليست الآخرة دار اختبار ، إن الاختبار تم في الدنيا ، كما جاء في البخاري : « اليوم عمل ولا جزاء وغدا جزاء ولا عمل » .

ثم لماذا يقوم أحد الملائكة بهذه التسلية المزعجة ؟ وياذن من ؟ وما جدواها ؟ وإذا تركنا كلام عياض لتأمل في الواقع نفسها وجدنا ما ي stitching عقلا ونقول أن يقبل ! فإن الله لا يحيى في صورة تقص عظمته وجلاله ، ثم يدوفق صورة حقيقة بعد ذلك ، منها قلنا : إن المقصود بالصورة هو الصفة !! . الحديث كله معلوم . وإلصاقه بالآلية خطأ ، وبعض المرضى بالتجسيم هو الذي يشيع هذه المرويات . وإن المسلم الحق ليستحي أن ينسب إلى رسوله هذه الأخبار .

سift الأمة وختلفوا متفقون على تزييه الله سبحانه . وعلى أنه أهل الثناء والحمد والمجده .

والسلف والخلف يستكرون ما جاء في كتب اليهود والنصارى مفيدة لم التجسيد أو ناسبا إلى الذات الأقدس ما لا يليق بجلاله وجلاله . تبارك أسماؤه ..

وجمهور حكمائنا يلومون « المعتزلة » على تأثيرهم للفلسفة الإغريق . وتصورهم لـ« آلهة الواحد تصورا نظريا يكاد يتعه - من الملعون في التجريد - وهم .. . ولست أحب أن أحji الجذل القديم . ولا أن أخوض فيه . ولا أن أعن علية . فقد كرهته بفطرق ! واعتمدت على القرآن الكريم وأنا أبى العقيدة ؟ نفسى وفي المجتمع الذى أعيش فيه .

ولعلى استفدت من أستاذى حسن البنا فى هذا الاتجاه . كما استفدت من الشيخ محمد عبده فى اعتذاره عن الأقدمين واعتباره العراك الناشر بينهم لفظاً لا حقيقياً .

وربما قيلت كلامات فى المساجلات الأولى تحتاج إلى ضبط . أو تفهم فى نطاق ملابسات خاصة وإلا فهو كلام مرفوضة ..

من ذلك ما نقل عن بعض علماء السلف : أنهم لا ينفون ولا يشترون جسمية الله تعالى ! إن ظاهر هذا الكلام مردود . وهو مناف للآلية الكريمة « ليس كمثله شيء » إننا ننفي الجسمية بداعه . وفي عصرنا هذا استبقنا من أن الجسم مادة ، وللمادة خصائصها التي تدرس في علم الطبيعة . ومن المستحب أن يتصف الله سبحانه بشيء من تلك الخصائص ..

ونحب أن المبالغة فى التمسك بالنقل هي من وراء تلك العبارات الخذلة ، وقد جلأ الخلف إلى تأويل كل ما يوهم المادية . وأثر السلف عدم الخوض في هذه الروايات مفهومين المعنى إلى الله . ومؤمنين بذلك مع إثبات التزير المطلق لرب العالمين .

والخطب سهل كما قلت . يدأنا حين نفتح باب التفويض نأى أن تدخل منه آثار معلولة . فإن العقل السليم لا يخدع بهذا الأسلوب .

واضطراب القول يقع في الأمور الغيبية كما يقع في الأمور التكليفية العملية ولا يضر الإسلام أن تتشابه الأمور على أحد الرواية ، فالكتاب معصوم والستة في جملتها سليمة ، وليس العجب من غلط يقع فيه زاد وإنما العجب من قبول هذا الخطأ ثم الحماس في الدفاع عنه . ولم يكن ذلك شأن الأئمة ولا منهج السلف والخلف ...

روى مسلم بسنده سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «إذا مر بالرنففة ثنان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها . وخلق سمعها وبصرها

وجلدها ولحمها وعظامها . ثم قال : يارب أذكر أم أثني ؟ فيقضى ربك ما يشاء فيكتب الملك !

ثم يقول : يارب أجله ؟ فيقول ربك ما يشاء ويكتب الملك !

ثم يقول الملك : يارب رزقه ؟ فيقول ربك ما يشاء ويكتب الملك !

ثم يخرج الملك الصحيحة . فلا يزيد على أمر ولا ينقص *

أما البخاري فيروى عن ابن مسعود . حدثنا الصادق المصدوق أن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه نطفة أربعين يوما . ثم يكون علقة مثل ذلك . ثم يكون مضغة مثل ذلك .

ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وشق أو سعد . ثم ينفع في الروح ... الخ .

وبين الروايتين تفاوت واضح . فالأخيرة تفيد أن الكتابة المذكورة بعد أربعة شهور والأولى تفيد أن الكتابة بعد اثنين وأربعين يوما .

وندع أمر الترجيح والرد والقبول للمشتغلين بهذا الأمر . فإن أى مسلم لو ذهب إلى الله ببيان واضح وعمل صالح فلن يضره الجهل بأحد الحديثين أوهما معا .

إن قواعد الإيمان وأركان الصلاح مشروحة في الكتاب والسنّة وليس من بينها الإحاطة بيده الخلق . والأزمات التي يستغرقها . وحسبنا ما أثبته القرآن الكريم في هذا الحال . ولتجه العزائم بعد ذلك إلى الجهاد وما يحب رفع الدرجات !

إن القاصرين من أهل الحديث يقعون على الأثر لا يعرفون حقيقته ولا أبعاده . ثم يشغبون به على الدين كله دون وعي . خذ مثلا ما يقطع الصلاة . فقد تسبّبوا بحديث يقول إن الصلاة تقطعها المرأة . والخمار . والكلب الأسود !

وجمهرة الفقهاء رفضت هذا الحديث ، واستدللت بأحاديث أخرى تفيد أن الصلاة لا يقطعها شيء ، وأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان يصل و زوجته عائشة مضطجعة أمامه ، كما أن ابن عباس من بخاري كان يركب أمام جماعة تصل ، فلم تفسد لها صلاة ، والكلاب أيضها وأسودها سواء ! .

لشيخ أحمد شاكر - وهو من أكابر علماء السلف - رأى يستحق التسجيل وتتضمن به هذه القضية . ذكره في تعليقاته على « الحُلُى » لابن حزم في سياق رواية جاء فيها : ... سمعت عمر بن عبد العزيز يحدث عن عياش ابن أبي ربيعة قال : بينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلى يوماً بأصحابه إذ مر بين أيدينا حمار ! فقال عياش : سبحان الله ! فلما انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من صلاته قال : أيكم سبع ؟ قال عياش : أنا يارسول الله ! سمعت أن الحمار يقطع الصلاة فقال رسول الله لا يقطع الصلاة شيء ! .

وقد قلت في شرحي على التحقيق لابن الجوزي بعد رواية هذا الحديث :
هذا إسناد صحيح .

وشرح الشيخ أشياء تحتاج إلى بيان ثم قال وهو صريح في الدلالة على أن الأحاديث التي فيها الحكم بقطع الصلاة - بالمرأة والحمار والكلب - قد نسخت ! .

فقد سمع عياش أن الحمار يقطع الصلاة . وعياش من السلفيين الذين هاجروا المجرتين . ثم حبس بمكة . وكان رسول الله يدعوه في الفنوت كما ثبت في الصحيحين . فعم الحكم الأول ثم عاد عنه نسخه . فأعلميه رسول الله بعد أن الصلاة لا يقطعها شيء . قال الشيخ شاكر رحمة الله : وهذا تحقيق دقيق واستدلالاً طريفاً لا أز من سبقني إليه ! .

ولست من يبنون العلال على الحالات في فروع الفقه وإنما تعنيني سمعة الإسلام عندما يسافر امرؤ متغصب إلى أوروبا وأمريكا ثم يذكر للناس أن المرأة والكلب والحمار سواء في إفساد الصلاة عند مرورها ... ! .

وحيز له أن يتبع جمهور الفقهاء أو يلوذ بالصمت . وينبع الفتنة . ولا يشير الدخان حول سمعة الإسلام .

عندما كتبنا في أحد مؤلفاتنا أنه لاستهلاك بلا فقه كنا نزيد أن نمنع أناساً يشترون أحد كتب الحديث ، ثم يطالعون أثراً لا يذرون ما قبله ولا ما بعده ، ثم يحدثون فوضى قد ترافق فيها الدماء ...

كان نقض البيعة في تاريخنا القديم يعني الخروج المسلح على دولة الخلافة ، فإذا هو يتحول في أذهان بعض الشباب إلى مقارقة إحدى الجماعات العاملة في الميدان الإسلامي ورفض الولاء لشاب تعيّن أميراً على هذه الجماعة !

وقد شاعت أحكام فقهية كثيرة مصدرها هنا الاطلاع الطائش ...

وَسِيَّلَ وَغَائِيَاتٌ

المتغير والثابت في ..
١- ميدان الجهاد
٢- ميدان الشورى

ذكرنا في بعض ما كتبنا: الحديث الشريف وهو: «أنتم أعلم بشئون دنياكم» .
وقلنا: إن شئون الدنيا تبع اجتهد البشر مؤمنهم وكافرهم . وإن الأنبياء لم يبعثوا
ليعلموا الناس الحرف وفنون الصناعات وأنواع الزراعات كما لم يبعثوا مهندسي معمار
أو طرق وجسور ، وكذلك مابعثوا ، أطباء بطون وعيون ، إن صميم رسالتهم هو
شرح العقائد والعبادات والأخلاق وتركية النفس والمجتمع . وبث التعاليم التي
تحكم صلات الناس بربهم وصلة بعضهم بالبعض الآخر ، ونُدعُهم للعودة إلى الله
أتقياء ببررة .

وهناك ميادين أخرى تشبه ميادين الدنيا في حرية الحركة والاختزاع
والمنافسة ! هي ميادين الوسائل التي لابد منها لتحقيق غايات دينية مقررة . ترك
الشارع للمؤمنين كقيمة بلوغها . ولم يذكر فيها أحكاما ملزمة !
إن الصلاة واجبة . ولابد لأدائها من أعمال فصلها الشارع . فالوسائل هنا
لابد من القيام بها دون تزييد ولا انقصاص ..

والجهاد واجب . ولكن أدوات الجهاد وأساليبه ليس لها قالب معين ثُبُّت
فيه ! فإذا تغيرت الوسائل من السيف والرمح إلى المدفع والصواريخ تغيرت معها
الأحكام القديمة وتحول رباط الخيل إلى إنشاء المطارات والمحصون الحديثة .
وإلى إنشاء معاهد العلوم الكيمائية والذرية والفلكلورية . الخ

قد يـ كان الرجل يشتري سلاحـه من مالـه الخـاص . ويـعتمد صـيـانـته ويـتـدرـب
عـلـيـه ! فإذا سـمعـ النـداء خـرـجـ رـاجـلاـ . أو خـرـجـ معـ فـرـسـه الـذـي اـرـتـبـطـهـ فـ سـيلـ

الله . فإذا استشهد خلف أيام ويتami ! وإذا جرح تحمل مداواة نفسه !
ونظام الغنائم - في مثل هذه الأحوال - لابد منه ، بل هو العدالة
المفروضة ..

وقد وردت نصوص كثيرة تشرحه وتحدد أنصبه ! .
أما اليوم فقد تغيرت الظروف تغيرا جذريا ، فالدول تخند الأفراد تجندأ
عاما . يأتيها الشاب فتطعمه وتكسوه وتصع بين يديه سلاحه الذي اشتراه له .
وتتعذر للمعركة أتم إعداد ، فإذا جرح داوله ، وإذا قتل كرمته وتولت الإنفاق
على أهله وولده ...

وهو طول حياته يأخذ مرتبنا حسنا . قد يتناهى مع اختلاف الرتب التي
يتبقل فيها .. وهذا النظام أسي ضرورة لامبص عنها ، ولا يمكن ترك الدفاع
لرغبات التطوع أو لظروف الأفراد ! إن ذلك يجعل الأمم تداس في زحام
الأحياء وبطش الأقواء ! .

ومع الأنظمة الجديدة يتغير نظام الغنائم تغيرا تاما . ! وتنشئ الدولة تعاليم
جديدة لمعاقبة مجرمي الحرب : ومعاملة المحسن والمسيء .

وعلى ضوء ما ذكرنا نفهم ما رواه البخاري ١٠٣٣ رضي الله عنه - الغنائم - يوم
خبير للفرس سهemin^(١٩) وللراجل سهها ..

ومع أن الأحناف رفضوا الحديث ، وقدموا عليه حديثا آخر وهو أن النبي
عليه الصلاة والسلام « أعطى الفارس سهemin والراجل سهها^(٢٠) » فتحن نرى
القضية كلها منتهية . لأن دور الخيالة والرجاله انقضى وأضحى كسب الحرب
منوطا بأجهزة أهم وأدق ، تعمل فيها المدرعات والطائرات ...

(١٩) أغلب الأئمة كأن يجمع الفارس ثلاثة سهemin . وحدا له . واثنين لفرسه ! أما أبو حنيفة
فاستكمل أن يكون للفرس - وهو حيوان - ضعف سهemin الراجل ! .

وكذلك ينتهي العمل بعدها « من قتل قتيلاً فله سلبه ».
ويجوز للدولة أن تمنع جوازات خاصة لمن أبلوا بلاه حسناً ..

ونعرض هنا لقوله تعالى : « واعلموا أنها غنمتم من شيء فإن الله خمسه ولرسول ولذى القرى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آتتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » (١١) .

ونسأع إلى القول بأن القرآن الكريم لا يأبه بالباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن نصوصه باقية إلى آخر الدهر ، لا ينسخها شيء !! .

ونتساءل ما معنى هذه الآية ؟ هل ثمانون في المائة من الغنائم يقسم على الجيش ، ويوزع الحمس الباقى على مصارفه المذكورة في الآية ؟ وكذلك يرى أغلب الأئمة .. !

ونحن نرجع رأى الإمام مالك رضى الله عنه . الذى يرى التخمين أحد الصور التى تقوم بها الدولة . ولكنها غير ملزمة به إذا رأت المصلحة في غيره . فالأمر إليها تنظر في الغنائم نظرة أوسع

ويشهد مالك على مذهبة بأن الرسول - عليه الصلوة والسلام - وزع غنائم حين فاعطى الطلقاء عطاء ما توقعه أحد . كادت قلوب الأنصار تخزن منه ! حتى شرح لهم الحكمة مما صنع .. !

ونضم إلى هذا الدليل وغيره - مما استدل به مالك - ماصنعته عمر بن الخطاب في الأرضي المفتوحة . فقد رفض تقسيمها أخهاسا على الفانحين . وأكتفى بإعطائهم مرتبات من الضرائب المفروضة عليها

وجمهور العلماء يدخل القضية في باب المصالح المرسلة . ولاريب أن مسلك عمر كان أرشد وأجدى على الإسلام وأمتة .

إن الوضوء وسيلة للصلة لامعال للرأى فيها لأن الشارع ضبطها بتص
حکم . أما أدوات الجهد ووسائله فلم يضبطها الشارع أو يضع لها إحصاء .
ومن ثم كان العقل مرجعها الأول ..

ولاحرج علينا أن ننقل أحدث الأسلحة من شرق أو غرب ، ولاحرج أن
يدربنا علينا الإلخاصيون المهرة من أي لون وملة ، وبيقى أن نستخدمها وفق
قواعد الشرف التي سئلها الإسلام ! .

والشوري مبدأ إسلامي عظيم ! لكن وسائل تحقيق الشوري وضبط أجهزتها
لم يتقرر لدينا ، ويظهر أن هذا مقصود لاختلاف البيئات والمستويات الحضارية ،
بل إننا لاحظنا أن أمة واحدة رفيعة الحضارة غيرت وسائل الشوري فيها عدة
مرات حسب تجاربها ومنافعها .

وما حدث في فرنسا خلال أقل من نصف قرن نموذج لذلك التغيير ..
والشوري في دولة الخلافة بربت في صور شقي ، وليس المهم أى طراز
نستمسك به ؟ بل المهم أن نوفر الضمانات والأساليب التي تجعل الشوري حقيقة
مرعية ، فيختنق الفرد المستبد ، وتموت الوئيبيات السياسية ، ويترجع الرأى
الصحيح دون عائق . ويقدم الرجل الكفاء دون أحقاد ...

هل يمكن ذلك في غيبة العقائد والأخلاقيات ؟ هذا مستحيل ! لقد نقل
الشرق الإسلامي صورة الديمقراطيات الغربية في مرحلة هابطة من تاريخه ،
صرعاته فيها مواريث جاهلية ، وخدعنته تقاليد استهارية سفينة ، فماذا حدث ؟
ثم تزوير الانتخابات على نحو مذهل ، وشققت الوئيبيات السياسية طريقها وسط
هالة من تأييد شعبي مكذوب ! .

ولو أن بعثة من القادة والرؤاد زارت مزبلة التاريخ لوجدت في رغامه عددا
من زعماء العرب وال المسلمين ، قتلوا الألوف المؤلفة لتكون لهم أمجاد ولتهتف

بأنهم بلاد ! وهم مع هذه الفرعنة زعماء الشعب المحبوبون ...
يُوْسِفُنَا أَنَّ الشُّورِيَّ أَبْيَعَتْ ثَمَارَهَا فِي أَقْطَارٍ وَاسِعَةٍ وَرَاءَ دَارِ الْإِسْلَامِ .

وَنَحْنُ نَطْلُبُ الشُّورِيَّ . وَنَرِيدُ اعْتِبَارَ الْوَسَائِلِ الْمُؤْدِيَّةَ لَهَا فَرَوْضًا عَيْنَةً عَلَى
أَسَاسٍ مِنَ الْقَاعِدَةِ الْفَقِيهَيَّةِ « مَا لِي قَوْمٌ وَاجِبٌ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ » .

وَيَتَقَاضَانَا ذَلِكُّ وَضُعُّ تَفَاسِيرٍ صَحِيحةً لِأَحَادِيثِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَتَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ
وَمُقاوِمَةِ مُرْتَكِبِ الْكُفْرِ الْبَوَاحِ ، وَتَوْضِيْحِ الْفَرَقَ الْدِقِيقَةِ بَيْنَ الْمُعَارِضَةِ الْمُشْرُوَّعَةِ
وَالثُّورَةِ الَّتِي تَنْفَضُ بَنِيَانَ الْجَمَعَّ ، أَوْ بَيْنَ النَّقْدِ الْوَاجِبِ ، وَالْخَرْجَ الْمُسْلَحِ ...
مِنْ خَصَائِصِ « الْدِيْقَارَاطِيَّةِ » الْحَدِيثَةِ أَنَّهَا اعْتَرَتَ الْمُعَارِضَةَ جَزْءًا مِنَ النَّفَاعَ
الْعَالَمِ لِلِّدُولَةِ ! وَأَنَّ لِلْمُعَارِضَةِ زَعِيمًا يَعْرَفُ بِهِ وَيَتَفَاهَمُ مَعَهُ دُونَ حَرْجٍ ! ذَلِكُّ أَنَّ
مَالِكَ الْسُّلْطَةِ بَشَرٌ لَهُ مِنْ يُؤْيِدُهُ وَلَهُ مِنْ يَنْقِدُهُ . وَلَيْسَ أَحَدُهُمَا أَحَقُّ بِالاحْتِزَامِ
مِنَ الْآخَرِ .

وَالْوَاقِعُ أَنَّ هَذِهِ النَّظَرَةَ تَقْرَبُ كَثِيرًا مِنْ تَعَالَمِ الْخَلَافَةِ الرَّاشِدَةِ ، فَإِنَّ عَلَىَّ بْنَ
أَبِي طَالِبٍ لَمْ يَسْتَبِعْ مِنْ عَارِضَهُ ، أَوْ يَحْشُدَ الْجَمْعَ لِضَرِبِهِ ، بَلْ قَالَ لَهُمْ :
إِبْقَاوْنَا عَلَى رَأِيِّكُمْ مَا شَتَمْتُمْ عَلَى شَرْطٍ أَلَا نَخْدُثُ فَوْضَيَّ وَلَا نَسْفَكُ دَمًا ، أَىْ أَنَّ
الرَّجُلَ الْعَظِيمَ يَرِيدُ مُعَارِضَةً بِنَاءً لِاهْدَامِهِ : وَلَا يَرِى أَنَّ الْاعْتَرَاضَ عَلَى شَخْصَهِ
مُنْكَرٌ ! .

وَعِبَارَةُ عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلْخَوَارِجِ هِيَ « كُوْنُوا حِيتَ شَتَمْ ، وَبِيْتَنَا وَبِيْنَكُمْ
أَلَا سَفَكُوا دَمًا حَرَامًا . وَلَا نَقْطَعُوا سَبِيلًا . وَلَا نَظَلْمُوا أَحَدًا ! فَإِنْ فَعَلْتُمْ نَفَذْتُ
إِلَيْكُمْ بِالْحَرْبِ ! » .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَادَ : فَوَاللَّهِ مَا قَتَلْتُهُمْ حَتَّى قَطَعُوا السَّبِيلَ وَسَفَكُوا الدَّمَ
الْحَرَامَ .

قَالَ الصَّنْعَانِيُّ : فَدَلَّ ذَلِكُّ عَلَى أَنَّ مُجْرِدَ الْخَلَافَ عَلَى الْإِمَامِ لَا يُوجِبُ قَتَالَ

من خالقه . وبهذا التفكير الصائب فسر الحديث الشريف « من خرج عن الطاعة . وفارق الجماعة . ومات في بيته جاهلية ، أى كأهل الجاهلية لا إمام له . »

ذلك كله مالم ينبع إلى الثورة المسلحة . فإن جنح إليها فله حكم آخر .
وعن عبد الله بن عمر قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من حمل علينا السلاح فليس منا » ..

وقد تكون للديمقراطية الحديثة مثال في أنها توفر الحرية للطاعة والفسق .
والإيمان والكفر ! .

ولكن هذه المثال تختفي عندما يوضع في صلب الدستور أن الإسلام دين الدولة وأن الشريعة المصدر الأوحد للقوانين ، وأن مخالفتها يسقط من تلقاء نفسه ! .

ولولا غلو الغلاة من أصحاب العقائد . وعدوائهم على مخالفتهم في الرأي
ولو كان هامشياً ما اتسعت دائرة الحرية إلى حدّ قبول المتناقضات وإقرار الرذائل
والشهوات .

ييد أن هناك سؤالاً لاتوارث في الإجابة عليه : هل محاربة الإسلام ذاته
تحت عنوان محاربة التطرف لون من الديمقراطية ؟ هناك سلطات في العالم العربي
والإسلامي تكره كل الكره ما أنزل الله ، وتثور ثائرتها إذا رأت فتاة مستورة
الرأس والأذرع . وترفض بغضب كل صيحة لإلغاء الأحكام التي جلبت
الاستهانة العالمي عندما طوانا تحت رايته ! فهل هذه ديمقراطية ؟ أم أنها امتداد
للإذلال القديم وللغاية الصليبية على العالم الإسلامي ؟

إن هناك من يريد قتل الشعب باسم الشعب ، ووأد الحرية باسم الحرية .
وفزيلة التاريخ - كما قلنا آنفاً - زعماء من هذا القبيل المخمور . فعلوا بال المسلمين
الأفاغيل ! !

وهنالك من رجال الدين من يمشي في مواكبهم راغباً في دنياه ، زاهداً في آخراه ، مستوجباً لعنة الله ... !

إن للغaiات الجليلة وسائل نبيلة تعين على إدراكها ، ومن غير هذه الوسائل يصعب أن تقوم شورى صحيحة كما يصعب أن يقوم جهاد نزهه ناجح ! .
ويستطيع أولو الألباب أن يحدّدوا الغaiات الثابتة والوسائل المتغيرة ، والفقهاء في الكتاب والسنّة أقدر الناس على ذلك .. .

على أن هناك استدراكاً حول ماذكرنا من شئون الدنيا ، وتجدد الوسائل .
صحيح أن الناس أعلم بشئون دنياهم . وبما يقرب لهم ما يصبوون إليه من أهداف عظام .. .

لكن المهارة في الدنيا خطيرة الآثار ، وكذلك الخبرة الإدارية الواسعة !
ويوم يكون الملاحدة مكررة مهرة خبراء أذكياء ، ويكون المؤمنون سذجاً أغراً فيان مستقبل الإيمان على ظهر الأرض ضائع يقينا .. .

إن بعض الأتقياء يستكثرون حفظ النصوص ومطالعة الآثار على حين تراه في شئون الحياة غفل الذهن خال الصحفة ، فإذا يكسب الدين من هذا الشخص ؟ .

لقد نجحت خرافات وسبّت أوهام لأن وراءها من أحسن خدمتها بقدراته وخبراته ! على حين جمدت رسالات الله . وساعت بها القلوب لأن أتباعها أنصاف أذكياء وأنصاف عاملين .. ولانطيل في هذه القضية فطالما خضنا فيها .
وإنما ألقت النظر في عجلة سريعة إلى فشل المتدلين في عرض آرائهم الدينية وتربيتها في القلوب . بل إن الدعاية الدينية تكاد تكون مهزومة في ميادين الإعلام .. .

والأمر لا يحتاج إلى استيراد مواد من الخارج ! إنه يحتاج إلى استحياء الملوكات

الخامدة في نفوس المؤمنين . وهي ملكات خمدت من طول تزويق الظاهر .
ونسيان الباطن ..

إنني ألقى ناساً يزعمون أنفسهم أقطاباً ، وهم فقراء إلى المبادئ الأولى في تربية
النفس ، وإخلاص القلب . ونشدان وجه الله . وما أبى نفسي بل أسأل ربي
المغفرة . إننا عندما نصدق نخزع ما لا يخطر ببال خدمة الحق ، ونفتح آفاقاً ما
عرفها الأولون ، ونكسب معارك كثيرة فيها هزائمنا من قبل .

القَدْرُ وَاجْهَرُ

العلم الإلهي الشامل - معنى سبق الكتاب - رد ما يقين الجبر
مثل ابن الله خلق للنار ناسا وللجنة ناسا - عرض آيات
الاختبار الحس والجزاء والعدل - معنى الآية «لوا شاء هنداكم
أجمعين» - مظاهر الإرادة العليا - ندم المؤمنين يوم القيمة
ودلائله - نظرة في ختام سورة المؤمنين - نظرة عامة إلى
أحاديث القدر

العلم الالهي مسطور في كتاب ضابط شامل محيط . « ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ؟ إن ذلك في كتاب . إن ذلك على الله يسير » ^(٩٢)
وهذا الكتاب يضم عالم الغيب والشهادة . ويتناول الأصغر والأكبر من مثاقيل الذر ، فالله لا يخفى عليه شيء « عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » ^(٩٣) .

وفي تفصيل آخر لمحفوبيات هذا الكتاب يقول جل شأنه : « ... ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حية في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » ^(٩٤) .

ويديهي أن أعمارنا وأرضاها وتفاصيل حياتنا ومواعيده وفاتها بعض محتويات هذا الكتاب فليس من المعقول أن يجهل ربنا شتون ما خلق ومن خلق . أو يجهل الخطة التي وضعها لسير الكون وسكنائه . والأرض وقطانها . أو يجهل مراحل تفاصيلها بما هيأ من أدوات « وأسرعوا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذلك الصدور إلا يعلم من خلق ؟ وهو اللطيف الخبير » ^(٩٥) .

والناس كلهم كافرهم ومؤمنهم . طفليهم وشيخهم ينالون ما سطر لهم في

٧٠ (الحج : ٩٢)

٣ (سأ : ٩٣)

٥٩ (الأنعام : ٩٤)

١٤ (الملك : ١٣ - ١٤)

هذا الكتاب . بل المخلوقات من جاد وحيوان تتحرك في دائرة هذا العلم السابق الصادق . قال تعالى : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسيرا » ^(٩٦) .

وقد أمر الله المؤمنين أن يستريحوا لهذا العلم القديم ، ويستكينا لحقيقة « قل : لن يصيّنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ^(٩٧) .

إن هذا العلم الأعلى يتناول ملوكنا نشغل نحن البشر حيزا صغيرا منه ، وما ندرى شيئا عن آماده ! ما لنا وللمريخ أو للشّعرى . أو لغيرها من العوالم ؟ كما يتناول في حياتنا على ظهر الأرض نوعين من الأفعال . نوعا لا ندرى كيف بدأ . ولا أين يتجه . ولا متى يتوقف ؟ وهذا النوع من الأفعال وإن مس حياتنا من قريب أو بعيد فلستنا مسؤلين عنه ولا مؤاخذين بخيه أو شره ! إن الأقدار حولنا تصنع الكثير مما نفهم وما لا نفهم ، وهذا الكثير يتحول إلى أسلحة عملية تجذب علينا بسلوكنا . ترى أنصيّر في الآباء والضراء ؟ ترى أشكّر في النعماء والسراء ؟

إن البشر جنس محكوم ومحتار في آن واحد ، إنه محكوم بالإمكانات التي في كيانه والملابسات التي من حوله ! . ومحتار في موقفه من هذه وتلك . . . ونريد أن نقول مصارحين وحاصلين إننا لن نسأل أبدا عما لا إرادة لنا فيه . ولكننا نسأل يقينا عما نملك فيه حرية الاختيار ..

وبعض الناس يخلو لهم الخلط بين الأمرين أحيانا . وهذا لون من الجدل المخمور والمشaque لله ورسله . ولنا مع هؤلاء حديث قد يطول ...

٢٢) الجديد : (٩٦)

٥١) التربية (٩٧)

لقد شاء الله - لحكمة لا نعلمها - أن يخلقا ويكلفنا . وقال في وضوح : « خلق الموت والحياة ليسلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور »^(٩٨) . فجاء من يزعم أن الحياة روایة تمثيلية خادعة ! وأن التكليف أكذوبة ! وأن الناس مسوقون إلى مصادرهم المعروفة أولاً طوعاً أو كرها ! وأن المرسلين لم يعنوا لقطع أعداء الجهل . ومنع الاحتجاج . المرفوض . بل المرسلون خدعة تم بها فصول الروایة أو فصول المأساة ..

والغريب أن جمهوراً كثيراً من المسلمين ينبع إلى هذه الغرية . بل إن عامة المسلمين يطعون أنفسهم على ما يشبه عقيدة الجبر . ولكنهم حياء من الله يسترون الجبر باختيار خافت موهوم .

وقد أسهمت بعض المرويات في تكوين هذه الشبهة وتمكينها . وكانت بالتالي سبباً في إفساد الفكر الإسلامي . وانهيار الحضارة والمجتمع

إن العلم الإلهي الذي ذكرنا شموله وإحاطته وصفاف كشف . يصف ما كان ويكشف ما يكون . والكتاب الذي عليه يسجل الواقع وحسب ! لا يجعل السماء أرضاً ولا الجماد حيواناً إنه صورة تطابق الأصل بلا زيادة ولا نقص ، ولا أثر لها في سلب أو إيجاب ..

وعندما يذكرنا ربنا بهذا كله فلكي يكشف لنا جانباً من عظمته حتى نقدره حق قدره ..

وعندما نتعلم منه أن ما نجهل من مستقبل . هو مكشف لدنه فليس معنى هنا أن الامتحان الذي نتعرض له صورى وأننا مسوقون إلى هذا المستقبل برغم أنوفنا إن هذه الأوهام تكذيب القرآن والسنة . فنحن بجهدنا وكدحنا ننجو أو

نهلث . والنقول بأن كتابا سبق علينا بذلك . وأنه لاحيلة لنا بازاء ماكتب
أولاً هذا كله تضليل وإفك لقوله تعالى : « قد جاءكم من بصائر من ربكم فن
أنصر فلنفسه ومن عصى فعليها »^(٩٩) . « وقل الحق من ربكم فن شاء فليؤمن
ومن شاء فليكفر »^(١٠٠)

والم الواقع أن عقيدة اختر تضوي بالنحوى كنه . وتربيف للنشاط الإنساني من
نده ، أطلق إلى قيام الساعة . بل هي تكذيب لله والرسولين قاطبة
ولما كانت بعض المرويات مسئولة عن هذا البلاء فقد أحيبت أن أشرح
القصبة بضرب بعض الأمثلة

قد يقول لك الأستاذ بعد ما خبر تلامذته في قاعة الدرس : إنني أعتقد أن
فلاناً سوف ينبعج وفلاناً سوف يرسب . ثم يعقد الامتحان آخر العام
ويدخله الطلاب . فإذا رأى الأستاذ يتحقق ! فيقول لك مباهيا : إن كلامي
لابقى على الأرض ، كان لابد أن يتحقق ماقلت !

هل معنى ذلك أن رأى الأستاذ هو الذي أبجع هذا وأسقط ذاك ؟ كلا .
إن ذلك نجح بجهده . وذاك سقط بعده . وما قول الأستاذ إلا تصوير لصدق
حكمه^(١٠١)

إن الله المثل الأعلى ، وعنه بكل شيء مستيقن ، وعنهما النماذج الذي
لا ينحلف ليس سببا في خاتمة ولا هلاك ، إنه لا ينحلف لأنه عالم الله الذي
يستوى عنده الماضي والحاضر والمستقبل والظن بأن خاتمة من خاتمة وهلاك من هلاك
هو أثراً إكراه الله هذا وذاك هو من العفن السوء . وما أراه إلا أكثرا !!

ومن ثم فإننا نتناول بخدر شديد ما جاء في حديث مسلم « فوالذي لا إله

(٩٩) الأئم : ١٠٤

(١٠٠) ٢٩

(١٠١) استحب هذا المثل عند قرابة أحاديث القدر !!

غيره . إن أحدكم ليعلم بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . وإن أحدكم ليعلم بعمل أهل النار ... الخ

إذا كان الحديث المذكور تنوّهًا بشمول العلم الإلهي . وأن بدايات بعض الناس قد تكون مخالفة لنهاياتهم فلا بأس من قبوله بعد الشرح المزيل للبس . المبطل للجر ..

أما المعنى القريب للحديث فردد بقينا . وهو مخالف لكتاب والسنة . أو للعقل والنقل

وأذكر هنا : أن الإمام مالكا في موضعه روى حديث عائشة - الذي نقله مسلم - « كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يخربن . ثم نسخن بخمس معلومات . فتفوق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهن فيما يقرأ من القرآن » (!) قال الإمام مالك : ليس على هذا العمل ... ورفض الحديث وحق له أن يرفضه . وقد بي مالك مذهبة كالأحناف على أن مطلقاً الرضاع يحرم .

ونحن نؤكد مرة ومرتين أنه ليس لروايات الأحاديث أن تشغب على المخوض من كتاب الله وسنة رسوله . أو أن تعرّض حفّات الدين للتهم والريب .

وقد قرأت ما رواه الترمذى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سئل عن قوله تعالى : « وإن أخذ ربك من بين آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألسنت بربكم ؟ قالوا : بلى . شهدنا أن تقولوا يوم القيمة : إننا كنا عن هذا غافلين » (١٠٢)

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : سمعت رسول الله - صلى الله عليه

(١٠٢) الأعراف : ١٧٢

وسلم - يسأل عنها فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيديه . فاستخرج منه ذرية . فقال : خلقت هؤلاء للجنة . وبعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسح على ظهره ، فاستخرج منه ذرية فقال : هؤلاء خلقت للنار . وبعمل أهل النار يعملون . فقال رجل : يا رسول الله فم العمل ؟ قال : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن الله إذا خلق العبد للجنة . استعمله بعمل أهل الجنة . حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة . وإذا خلق العبد للنار . استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله الله النار »

وهذا السياق يكاد يكون نصاً في الخبر . ولذلك نرفضه ، ونراه من أوهام الرواية . بل نراه من الجهل بمعانٍ القرآن الكريم !

فإن هذا التفسير المنسوب لعمر يسير في اتجاه مضاد للتفسير البديهي المفهوم من الآيات المبينات . الآيات تقول للمرتدين عن رب العزة : لا وجاهة لكم عندى . ليس لكم على قائم ولا حجة ناهضة . إنني منتحكم عقلاً ينفك وفطرة تبعث على التوحيد والاستقامة . وأنزلت ما ينعتكم من تقليد الآباء الجهلة . فإذا تجاهلتم هذه العالم كلها . وهم على وجوهكم في طرق الشر والغواية . أبعد هذا التفصيل والتوضيح تبعدهم عنى ولا ترجعون إلى ؟

هذا هو تفسير الآيات كما ينقدح في ذهن كل عاقل . وكما يثبت لأول وهلة في فهم القارئ العادي ..

ولنذكر الآيات كما وردت في القضية كلها :

« وإن أخذ ربكم من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم أستبر بركم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيمة إننا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتلتكنا بما فعل المبطلون . وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون » (الأعراف : ١٧٢ - ١٧٤) .

فأين - يا أولى الألباب - آثار الجبر الإلهي هنا؟ وأين ما يفيد أن الله خلق ناساً للنار يساقون إليها راغمين ، وخلق ناساً للجنة يساقون إليها محظوظين؟ إن التعلق بالمرويات المعلولة إساءة بالغة للإسلام ، وينبغي ألا تتجاوز كتاب ربنا وسنة نبينا ، فذلك نسيح سلفنا الأول ...

كل ميل بعقيدة القدر إلى الجبر فهو تخريب متعمد لدين الله ودنيا الناس ، وقد رأيت بعض النقلة والكتابين يهونون من الإرادة البشرية ، ومن أثرها في حاضر المرء ومستقبله ، وكأنهم يقولون للناس : أنت محكومون بعلم سابق لا فكاك منه . ومسوقون إلى مصير لا دخل لكم فيه فاجهدوا جهودكم فلن تخرجوا عن الخط المرسم لكم مهما بذلت ! .

إن هذا الكلام الرديء ليس نصح قراءة واعية لكتاب ربنا ، ولا اقتداء دقيق بسنة نبينا ، إنه خليط قد جئنا منه المز .. !!

يقول الله لكل بشر على ظهر الأرض : «فَاقْمِ وَجْهَكَ لِلَّدِينِ الْقِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرْدَأَ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصْدِعُونَ . مِنْ كُفُرٍ فَعْلَيْهِ كُفْرٌ وَمِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلَا تَنْهَسُهُمْ بِمَهْدُونٍ»^(١٠٣) . فهل ربط الجزاء بالعمل هنا من قبيل المزاج أو الخديعة؟

وعندما يصف ربنا جزاء الكاذبة والمخذبين ، ويذيقهم عقاباً ما قدموه ويقول : «فَلَذِيقُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَيْهَا شَدِيدًا وَلَنْجِزِيهِمْ أَسْوَى النَّى كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ . النَّارُ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخَلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَعْمَلُونَ»^(١٠٤) .

هل هذا الربط المتكرر بين العمل والجزاء؟ هل هذه النقطة المحسوسة على

(١٠٣) الروم : ٤٤ ، ٤٣

(١٠٤) فصلت : ٢٧ ، ٢٨

ال مجرمين ، نومي من قرب أو بعد إلى أن القوم كانوا أهل خير فلوى زمامهم قدر سابق ، أو كتاب ماحتق ما أقيع هنا الفهم !

في يوم الحساب يمحض الناس ما زرعوا لأنفسهم ، والقرآن حريص كل الحرص على إعلان هذه الحقيقة : وهي إنك واجد ما قدمت ! لن تواخذ أبدا بشيء لم تصنفه ، لم تغلب على إرادتك يوما فيحسب عليك ما لم تنشأ ... إن المغلوب على عقله أو قصده لا يواخذ أبدا ، بل إن التكليف يسقط عنه !! .

وتدبر قوله تعالى : « ألقوا في جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . الذي جعل مع الله إلها آخر فألقاه في العذاب الشديد . قال قرنه : ربنا ما أطغىته ولكن كان في ضلال بعيد . قال لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد . ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعيid » ^(١٠٥) .

ربنا سبحانه وتعالى ينفي الظلم عن نفسه . ويقول إنه ما عذب إلا من فرط وأساء .

ومع ذلك يحيى أقوام منا فيزعمون أنه رمى بناس في النار بعد أن قهرهم على طريقها ، وأنه لا يسأل عما يفعل !! وليس بظلم فيها أوقع بعذابه !! . هذا تفكير أعمى لا يتصل بقدرة الله ولا بوجهه وحجب فطام العوام عنه !! .

وسبب هذا الشروط : سوء الفهم للآيات ، وسوء النقل للأحاديث ..

ولنضرب أمثلة لما ذكرنا : إن الحق يُعرض على الناس ، فن قبله شرح الله به صدره ، وأنار عقله ، ومن أبى زاد الله قلبه ظلمة وسلوكه حيرة ..

وعندما يصل الله مجرما فلن يقتذه أحد . ولن يجد ولها ولانصيرا ، وفي هنا يقول الله تعالى : « من يصل الله فلا هادي له . ويندرهم في طغيانهم يعمهون » ^(١٠٦) .

الجملة الأولى في الآية تفيد أن من عاقبه الله بالإضلal فلن ينفعه أحد .
والجملة الثانية تفيد أنه إنما أصله لطفيانه وعماه .

لكن البعض يقف عند الجملة الأولى وينسى الثانية أو يفهم أن طفيانه جاء نتيجة إضلal الله له وهذا جهل كبير ، فإن إضلalه جاء نتيجة طفيانه ، فالإضلal نتيجة لا سبب .

ويؤكد هذا قوله تعالى في موضع آخر : « قل من كان في الفضالة فليمدد له الرحمن مثنا ، حتى إذا رأوا ما يوعدون ، إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا . ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ... » (١٠٧) .

وقد يجيء بعض الناس إلى آية يقف عقله الكليل عندها فيفهمها فيها مقوليا مثل قوله تعالى : « فلله الحجة البالغة ، فلو شاء هداكم أجمعين » (١٠٨) . أو قوله سبحانه : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول مني لأملاك جهنم من الجنة والناس أجمعين » (١٠٩) .

إنه يفهم أن الله خلق للنار ناسا ، وخلق للجنة آخرين ، ثم دفع هؤلاء دفعا إلى النار ودفع هؤلاء دفعا إلى الجنة ، وقد سبق بذلك كتابه !

وهذا كله جهل ، فالآيات تعني أن الله كان قادرا على أن يخلق الناس كلهم ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمنون ! لكنه – وهو المريد اختبار – صنع البشر على مثال آخر ، أو على نموذج فيه صلاحية للعوج والاستقامة ، وأدخلهم في مسابقة عامة أو في اختبار حرّ وسوف تختلي النار بالساقطين وتختلي الجنة بالناجحين ...

(١٠٧) مرم : ٧٥ ، ٧٦

(١٠٨) الأنعام : ١٤٩

(١٠٩) السجدة : ١٣

نعم هو من بدء الخلق يعرف ماسيمكون . لكن علمه مبتوت الصلة بنجاة من نجا وهلاك من هلك .

وقد يتفقّر البعض ويقول : ما تم شيء إلا بإذنه ! ولکي نجيب على هذه الشبهة نقول :

إن المجرم يذهب إلى حقل قع ناضج السنابل حافل بالخير ، فيشعل النار فيه . فإذا قبض عليه يقول : ما كانت النار لتشتعل لولا «الأوكسيجين» الذي خلقه الله في الهواء ! ولو خلا الجو من هذا العنصر ما احترق الحقل . فالله هو المستول عن جريبي ، إذ بإذنه تمت !

إن إرادة الله مثبتة في كل شيء . ولو قهرتنا على عمل ما حوسينا ، إننا نخاسب على ما قدمت أيدينا ولن نستطيع شرح العلاقة بين إرادة الله الخبيطة ، وبين الحرية المتأحة لنا في الاتجاه إلى اليمين أو الشمال ... وتصيد الشبهات للفرار من المسؤولية لا يحدي .

وكل أثر مروي يشغب على حرية الإرادة البشرية في صنع المستقبل الآخر الذي يحب إلا نلتقت إليه ، فحقائق الدين الثابتة بالعقل والنفل لا يهدّها حديث واهي السند أو معلول المتن .

لكتنا منها نوّهنا بالإرادة الإنسانية فلا ننسى أننا داخل سفينة يتقاذفها بحر الحياة بين مد وجزر . وصعود وهبوط . والسفينة تحكمها الأمواج ولا تحكم الأمواج .

ويعني هذا أن نلزم موقعاً محدداً بآراء الأوضاع المتغيرة التي تمر بنا . هذا الموقف من صنعتنا وبه نخاسب ! أما الأوضاع التي تكتنفنا فليست من صنعتنا ، ومنها يكون الاختبار الذي يبت في مصيرنا ... !

إن جرائم الأمراض تملأ الجو . ولو أن كل عدوٍ تصيب هلك البشر !

وإلا ، فاقيمة جهاز المناعة الكامن في أجسامنا ؟ وكيف يحمي ؟ وكيف يفشل ؟ .

والصيغات المورثة للخصائص المادية والنفسية والفكرية . مانصيغنا منها ؟

إن ذلك ليس إلينا وإن حدد المجال الذي يتم فيه اختبارنا . !

إن الفلاح يرمي في التراب حفقات من البذور . قد ترتد إليه قنطرة

مقنطرة . وقد تعود عطاء محدودا . وقد تذهب سدى ! وجهود الناس في

الدنيا تتبع هذا المسار ..

وقد نعم وينفك عزمنا من تلقاء نفسه ، وقد تعرّضه عوائق تعصف به لأنه

لا يطبق مواجهتها ..

وقد نطبع حافزا نفسيا عابرا فيبلغ بنا إلى القمة أو يهوي بنا إلى القاع ...

إن الإنسان عبد الله . وليس إلها على ظهر الأرض . وقد شاء الله أن يخلقه

على نحو خاص ، فليس جادا ، ولا دابة ولا ملما ..

وبهمنه أن يعبد ربه . وأن ينبع في أداء هذه العبادة ، وأن يقهر المبطّات

والعقبات ، فإن نجح نجا ، وإلا طاح !!

ولمن يعني عنه أن يقول : إبني « جاد » لا إرادة لي .. أو أنت ورقة تطير بها

الريح وتهبط . كلا . إنك إنسان مكتمل المشيّة في كل ما يزيّنك نفسك أو

يدنّسها ، والسفسيطة لا تتجدى « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى

ولا كتاب منير . ثانى عطفه ليصل عن سبيل الله . له في الدنيا خزي ونديقه

يوم القيمة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام

للعيid »⁽¹¹⁰⁾

وبعد انتهاء الحياة تعود الأرواح إلى بارتها . ونحن أمام موقفين متضادين ،

هناك من قضى عمره كدحـا إلى الله وجهادا في سبيله . وهناك من عاش ذاهلا

غادرا لم يقم الله بحق ... أما الأولون فإن الملائكة تستقبلهم بالترحاب والود .
 تقول لهم «... ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون»^(١١١) .
 وأما الآخرون فالاستقبال عابس . والأفق مليء بالدخان والنذر . لقد
 واجه كل امرئ منهم ما كان ينكر . وعلم علم اليقين أنه كان في ضلال مبين !
 إنه يتعين في هذه اللحظة المستحيل . يتمنى لو عاد إلى الدنيا مرة أخرى كي
 يستأنف حياة أهدي ... !

«حتى إذا جاء أحدهم الموت قال : رب ارجعون . لعلني أعمل صالحاً فيما
 تركت كلا إنها كلمة هو قاتلها . ومن ورائهم يرزخ إلى يوم يبعثون»^(١١٢) .
 وقد أحصيت في كتاب آخر نحو عشرة مواضع تكررت فيها هذه المني !
 وهيهات فليس لامتحان العمر ملحق ، ولا دور ثان يستدرك فيه المفرط ما
 فات ..

وهذا الندم - بعد فوات الأوان - ينطوي بحقيقة واحدة . شعور الخرم أنه
 هو الذي ظلم نفسه ، وهو الذي صنع حفنه بظفنه !
 إنه لن يحاول الكذب فيقول : كنت مجبوراً على ما كان مني . أو سبق
 على كتاب بما لم أرد لنفسي !

ولو أنه حاول الافتاء لأخرس الله لسانه . وأنطق أركانه بما حدد . إن
 الله لا يذكره أحداً على طريق الشر ثم يدخله النار ! ومن تصور هذا فهو جاهل
 بالله طاش العقل ...

ومن المتبين إلى ديننا من يتصور ذلك - للأسف الشديد - ويحاول إساغته
 بترهات لا تقال ... ونشرح هنا موقف الصالحين كما صورته سورة المؤمنين
 وحلها :

(١١١) المؤمنون : ٩٩ - ١٠٠

(١١٢) نصلت : ٣٠

ليس العمر ساعة واحدة. إنه ساعات شتى. بعضها يسر وبعضها يضر. ليس العمر موقفاً واحداً، إنه مواقف بعضها يشرف وبعضها يخزي، والمهم هو الحصول الأخير! «إذا نفع في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون. فن نقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون. تلفع وجههم النار وهم فيها كالحرون»^(١١٣).

وللتدارك هذا الحوار بين رب العزة وبين الأشقياء المسجونين في جهنم! إنه يقول لهم: «ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكتم بها تكتنبون»^(١١٤)? ترى ماجواب القوم؟ إنهم يطلبون فرصة أخرى ينحوون فيها بعد هذه الفرصة الفضالعة؟ يقولون: «ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين. ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإننا طالبون»^(١١٥).

ويستمع رب العزة إليهم، ثم يرد بما معناه: كان على الأرض عمل ولا حساب أما هنا فحساب ولا عمل. إنها فرصة واحدة تواتر الرسل للبحث على انتهاها، لكن المجرمين كابروا وكذبوا. يقول الله لهم: «انحسروا فيها ولا تكلمون إنه كان فريق من عبادي يقولون: ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. فاتخذتوم سخرياً حتى أنسوكم ذكرى وكتم منهن تصفحون»^(١١٦).

هذا تذكير بأيام الطغيان الأولى. لطالما وثب الزائرون الطاغون على جمهور المؤمنين الضعفاء فأذاقوهم عذاب الهون، وكانوا منهم يسخرون! ها قد تبدل الموقف وتغيرت الأحوال. ورجحت كفة الخير. وحيث الصابرون عقبي ما تحملوا وأمّلوا ...

(١١٣) المؤمنون: ١٠٤ - ١٠١

(١١٥) المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٧

(١١٤) المؤمنون: ١٠٥

(١١٦) المؤمنون: ١٠٨ - ١١٠

ويقول الله سبحانه خاتماً الحوار: «إِنِّي جزِيَّتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاثِرُونَ»^(١١٧).

أترى في هذا الحوار أثارة من ظلم نزلت بعذب؟ أجرأ أحداً يفترى على الله كذباً فيقول له: إنك كتبت على ما كتبت، والآن تواخنني بما لم أستطع الفرار منه؟^(١١٨).

إن تصوير القدر على النحو الذي جاءت به بعض المرويات غير صحيح. وينبغي الآن ندع كتاب ربنا لأوهام وشائعات تاباها روح الكتاب ونصوصه... القرآن قاطع في أن أعمال الكافرين هي التي أرددتهم «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوْنَا يَوْمَ إِنَّمَا تَجُزُّونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ»^(١١٩). وقاطع في أن أعمال الصالحين هي التي نجت بهم «وَنَوْدُوا أَنْ تَلْكُمُ الْجَنَّةَ أُورْتَمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ»^(١١٩)...

فلا احتجاج بقدر، ولا مكان لجبر.

وعلى من يسيئون الفهم أو النقل آلا يعکروا صفو الإسلام
وعندما كنت أكتب هذا البحث وقعت في يدي كلمة جميلة للأستاذ
أحمد بهجت عنوانها «المغفلون» رأيت إثباتها لغرض مينكشف بعد قليل...
ـ «هناك ناس يحبون الله .. وهناك ناس يكرهون الحق ..

هناك ناس تخشع قلوبهم لذكر الله .. وهناك ناس يشمئزون إذا تعلق الأمر
بالحق ..

هناك ناس يحبون الدين .. ويحبون أن تشيع الفضيلة في الناس وأن تنتشر

(١١٧) المؤمنون: ١١١

(١١٨) التحرم: ٧

(١١٩) الأعراف: ٤٣

القيم بينهم ، وهناك ناس يكرهون الدين كرههم للعمى ، وهؤلاء الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الناس . وأن يتشرى العرى لتسقط العيون الجائعة عليه كما يسقط الذباب على اللحم المكشوف » .

والصراع بين المؤمنين والكافرين جزء من سنة الحياة .

لقد خلق الله ناسا هم أهل للجنة . وخلق ناسا هم أهل للنار ، والذين يدخلون الجنة يدخلونها برحمه الله وعفوه ، والذين يدخلون النار يدخلونها بإصرارهم و اختيارهم و حرفيتهم المطلقة . ولا حجج لأحد على الله عز وجل .

لقد أقيمت الحجج على الناس .. في مطربهم وفي آيات الله في الكون . والأصل المعروف هو استغناه الله تعالى عن الخلق ، وحاجة الخلق إليه « يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد » ^(١٢٤) .

ونحن نعرف أن عبادة العابدين لا تزيد في ملوكه سبحانه ، كما أن كفر الكافرين وإلحاد الملحدين لا ينقص من ملوكه سبحانه شيئا . الدين فائدة للناس لا فائدة لله .

وابياع الدين خير الناس لا خير أحد غيرهم . ومن هنا نرى المغفلين عادة يقفون في المعسكر المعادى للدين .

وقد وصف المغفلون بأن لهم أعينا لا يصررون بها . وآذانا لا يسمعون بها . وقلوبا لا يفهمون بها . ^(١٢٥) .

أيضا تمت مقارنتهم بالبهائم . وصرح النص القرآني أن الأنعام أهدى منهم . « أولئك كالأنعام بل هم أضل ... » ^(١٢٦) .

١٤٠) فاطر : ١٥

(١٢١) إشارة إلى قوله تعالى : « ولقد درأنا لهم كثيرا من الحزن والأنس لهم قلوب لا يفهمون بها وهي أعين لا يصررون بها وآذان لا يسمعون بها » . الأعراف : ١٧٩

(١٢٢) الأعراف : ١٧٩

وقد كان الرسول يحزن لتكذيب الناس له ويدعوه هذا الغلو في العداء واللدد في الخصومة . وأنهم الله تبارك وتعالى أن الناس لا يكذبونه ولكن الفطالين بآيات الله يمحدون . والظلم مغلق كبير ، إنه يشترى النار بإرادته و اختياره ، وليس بعد هذا التغفيل تغفيل .

والظلم يكسب الدنيا ويخسر الآخرة . وهذا أيضاً تغفيل عظيم ..
لأن الدنيا إذا قبست بالآخرة كانت أقل من جناح بعوضة . نسأل الله
السلامة .. ١٤٠ هـ

وهذا كلام صادق . حسن الواقع والثغر . وقد أثبتناه بين يدي كلام آخر لابن زيد
أمتنا إلا سقاماً . ذكره أحد الوعاظين في مجال تحذيف الناس من الله حتى يدعوا
الرذائل ! انظر كيف خوفهم من الله ؟ قال : إننا منها عملنا من خير لا نعرف
مصابينا . وقد تكون من أهل النار وحن لا ندرى .. ١١

ثم ذكر أحاديث في القدر لاتخدم إلا مبدأ الخبر . بل تجعل العصاة يمضون
مع المنحدر إلى نهايته لأنهم يحسون فقدان الإرادة التي تسيطر على الأمور .
وأغلب المسلمين تساورهم هذه الظنون المخوننة لأنهم فهموا أن المثوبة
والعقوبة حظوظ عمياء . أو مصادفات ليست لها ضوابط .

ونحن نتلو قوله تعالى : « قل فن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يملك
المسيح ابن مررم وأمه ومن في الأرض جميعاً .. »؟ ولكن الله القدير الحكيم
العدل القائل : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » لايخلق ناساً للنار لمجرد أنه
يريد لهم العذاب

ولنذكر طرفاً من هذه الأحاديث :

جاءت في القدر أحاديث كثيرة . نرى أنها بخاجة إلى دراسة جادة . حتى
ببرأ المسلمين من المزاج النفسية والاجتماعية التي أصابتهم قديماً وحديثاً ..

روى أبو داود عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أنه قال لابنه عند الموت : يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك . وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، فإني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : إن أول مخلق الله القلم ، فقال له : اكتب ! قال : يارب وما أكتب ؟ قال : اكتب مقدار كل شيء حتى يوم القيمة . يابني إنك سمعت رسول الله يقول : من مات على غير هذا فليس مني ! .

وفي رواية أخرى للترمذى ، ما يؤكد هذا الحديث .

وقد علق الشيخ محمد حامد الفقى على الحديث ورواته بأن في السند منها بالوضع ، ومتروكا ، ومنكر الحديث !

ومع ذلك فنحن مع تهافت الأسانيد نرى في المتن جملة مقبولة تلافى مع دلالات القرآن القريبة والبعيدة ، وتفق مع العقيدة الصحيحة : وهى أن الله أحاط بكل شيء علما ، وأنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، وعلينا بعد ذلك أن نكافح لنضع مستقبلنا في الدار الآخرة غير واثنين ولا متقاعسين ..

المشكلة تكمن في أحاديث أخرى صحيحة السند . غير أن متونها تتفاوت أمامها واجميين ! لنبحث عن تأويل لها أو عزج .

خذ مثلاً حديث عائشة رضى الله عنها قالت دعى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى جنازة غلام من الأنصار . فقلت : يارسول الله . طوف هذا ! عصفور من عصافير الجنة . لم يدرك الشر ولم يعمله ! قال : أو غير ذلك يا عائشة ؟ إن الله عز وجل خلق للجنة أهلا ، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم ! وخلق للنار أهلا ، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم ! .

وخذ مثلاً حديث سهل بن مسعود أن رسول الله قال : « إن الرجل ليعمل

بعمل أهل النار وإن من أهل الجنة . وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة وإنه
من أهل النار !! .

وخذ مثلاً حديث عبد الله بن عمرو قال رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - : « إن الله خلق خلقه في ظلمة . فألقى عليهم من نوره ! فن أصابه
من ذلك النور اهتدى . ومن أخطأه ضل ! فلذلك أقول : جف القلم على
علم الله تعالى ! ». .

وهناك أحاديث كثيرة تدور على هذا المخور . وهو أن الإنسان مسلوب المشية .
وأنه مقهور بكتاب سابق . وأن معه باطل لأنه لا يغير شيئاً مما خط عليه في
الأزل .

نقول : هل صحيح أن مع الإنسان باطل ؟ فلماذا يقول الله تعالى عن
يوم الحساب : « إن المساعة آية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى » (١٢٣) .

ولماذا يقول : « وان ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن معه سوف يرى ثم
يجزاه الجزاء الأوفي » (١٢٤) .

إن الله تبارك وتعالى يطلب من الإنسان أن ينصف نفسه من نفسه ! وأن
يعرف بأنه أخطأ حيث ينبغي أن يصيّب . وأساء حيث يستطيع أن يحسن .
ولذلك يقول له : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسبي » (١٢٥) .

فهل يقال له ذلك وهو مجبور مسكون ؟ أم يقال له ذلك وهو حرّ مختار ؟
إن ظواهر الجبر في هذه الآثار كلها مرفوضة عند علماء الإسلام . وأمامنا
أمران لاثان لها . إما صرف هذه الظواهر إلى تأويل قریب مقبول !

(١٢٥) الإسراء : ١٤

(١٢٣) ط : ٤٥ .
٤١ - ٣٩ (الجم) (١٢٤)

وإما اعتبارها آثاراً بها علة قادحة تسقطها من درجة الصحة . وإيرادها في مجال التربية والتعليم لا يجوز .

وقد استطعت بشيء من التكليف أن أصرف شبهة الجبر عن آثار شقى ! لكنى لم أستطع إصلاح عقون ت يريد أن تسوق الإسلام كله إلى أحاديث غير واضحة . تظهر عليها العلل القادحة .

يقول الله سبحانه في الأمم التي حكم عليها الملائكة : « ... وجاءتهم رسالهم بالبيانات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . ثم كان عاقبة الذين أساءوا السُّوَّاى ... » (١٢٦)

الله يعاقب مفترق السترات بالسواءى . فهذا عدله . ولو شاء عفوا ، وهذا حقه .

ولكنه لا يظلم مثقال ذرة ... ومن العجب أن تنسب إليه الجبر ثم تقول لا يسأل عما يفعل ! إن الذين يخطئون في الفهم ويحورون في الحكم لا ينبغي أن يُسقطوا عوجهم الفكري على دين الله ...

والله ولِي التوفيق . وهو حسبي ونعم الوكيل .

خاتمة

ضعف الوعي القرآني جريمة !
النسنة الذهبية لا تشفع لمن مهافت ... الفقيه مع
المحدث بضمطان السنة البيوية لا بأس الرجل : فيم ضرب
امرأته ؟ .
حريرة المسنة الدجال ! .
لا علاقة للمرأة بإنجاب ذكور ولا إناث .

المسيح الذي هداني الله إليه - وله الأمة - أن أعرف الرجال بالحق . ولا
أعرف الحق بالرجال ! وأن أنظر بتأمل إلى ما قبل ولا أنظر بتبني إلى من
قال ! .

والوصول إلى الحق يحتاج إلى الذكاء قدر ما يحتاج إلى الإخلاص ، ومن ثم
منح الله أجرين من عرفة ! ومنح أجرا واحداً لمن أخطأه وهو حربص على
بلغه ..

وبعض الناس يظن أن خطأً مجتهداً ما قصاء على مكانته . ونصف
لشخصيته . وهذا جهل كبير ! فما أكثر الأخطاء التي وقع فيها مجتهدون من كبار
الأئمة ...

إن بناءهم العلمي شاهق ، والخير الذي انفجر منهم دافق ، فلا تهدمهم
قذاة . أو ترثى بهم كبوا ! وإنهم عندنا ميليون إلى القول بعصمة الأكابر ،
ونحن لا نعرف في تاريخنا إلا معصوماً واحداً . هو محمد بن عبد الله صاحب
الرسالة الخاتمة ...

وقد نقدت مرويات جاءت في الصحاح رأيتها تمسُّ الصيم من ديننا !
وتفتح ثغرات مخوفة ينفذ منها عدواناً . ما قصدت بذلك أن ألمكيروا أو أضع من
قدره . ولا قصدت بذلك أن أرفع خسيبي ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من
أن الله بقلب سليم ، وإنما كان نصحي لله ورسوله ومصلحة الدين الذي شرفت
بالاتناء إليه والدفاع عنه ..

من ذلك اعتراضي على نقل أو رأي لนาفع مولى عبد الله بن عمر ف أمر بن حسانين يتصل أحدهما بالأسرة والآخر بالدعوة أو الدولة ، رأيت التابعى الكبير تورط فيها تورطاً مفزواً مسيئاً ، ولا يجوز السكوت !

كلنا يقرأ قوله تعالى « نساؤكم حرث لكم فأنوا حرثكم أني شتم » والحرث مكان البذر لا غير . لا يقول بغير ذلك أحد يعرف لغة الوحي ..

ييد أن فها شاداً أثبته في الصحاح من لا يدققون في المتن رأوا فيه أن الرجل يستطيع أن يتجاوز ذلك من زوجته ! .

ونظرت - بتجرد - إلى هذا النقل البسيء فرأيته يخزي النساء الحرائر . ويرضى الرجال الشواد ، ويقلب موازين القطرة . ويفتح باباً جديداً لمرض « الإيدز » فلم أترى في رفضه ، وقلت : لكل جواد كبوة ! .

ونافع غفر الله لنا وله ، برأيه هذا أو بروايته يخالف دلالات القرآن . وستنا أخرى أثبته الرواة كما يخالف طبائع الأحياء من أناسٍ ووحوش ودواب ...

ولكن ناساً في عصرنا ما كادوا يقرؤون ما كتبت حق انبروا لها مجعنى والنيل مني . ونليس هذا بضائعى ! وإنما لفت نظرى أن القضية العلمية لفها ضباب مفتعل ، فلم تبحث ، ولم يذكر حكم الله فيها حتى تُخلِّى إلى أن التجهيل في الحكم مقصود !! والصياغ الذى طال حبله هو : .

أتعترض على نافع يا ... أتشكك في السلسلة الذهبية يا ... أتكذب السنة النبوية يا ... إلخ وتحوّل الاعتراض إلى عواه يسمع صداه من قريب ومن بعيد ، فذكرت قول الشاعر :

كريم أصابته ذئاب كثيرة فلم يذر حتى جن من كل مذهب !

قلت : لا بد من إنصاف الحقيقة العلمية التي كادت تخنق مع هذا العواه ، نعرف الرجال والنساء أن ما حكاه نافع باطل . وإن إفساد الدين لا يستطيعه بعض المتحمسين العميان من عبيد الأسماء .

قلنا : إن الشهوة الجنسية ليست رجسا من عمل الشيطان إذا تمت في نطاقها المرسوم . هذا النطاق هو الزواج . وهو لا يتم عقلا ولا نفلا إلا بين رجل وامرأة ، أما ما وراء ذلك فَلَنْسٌ مرفوض .

والمجتمعات الوثنية ، والملحدة . تمد رقعة الشهوة فلا تقف عند حد . وقد لاحظنا ذلك في الجاهلية القديمة والحديثة على سواء .

نشأت علاقات شاذة لا يليق بها النوع ! وإذا بقى فعل نحو خبيث شرير كما قال تعالى : « والبلد الطيب يخرج بناته بإذن ربه . والذى خبث لا يخرج إلا نكدا .. » .

وقد كان المشركون العرب يفتثرون في إرواء ظمئهم الجنسي . يشبههم في ذلك الأوربيون والأمريكيون اليوم فهم يتعدون دائرة الحلال المباح إلى دائرة أخرى مليئة بالمستنقعات والأوبئة .

وعندما تحدث القرآن الكريم عن قوم لوط ذكر أوصافا محددة . هي الإسراف ، والعدوان ، والجهالة ، والإجرام والإفساد وما يتصل بهذه المعاني المظلمة ..

وقد لاحظت أن أكثر ذلك كان في القرآن النازل بمكة قيماً لغيرها في السوء . وتذكيرا بمصاير الحالكين « أتأنون الذكران من العالمين ونذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ؟ بل أنتم قوم عادون ... » .

ثم بدأت شرائع الأسرة في المدينة المنورة إقامة مجتمع فاضل طاهر ، وشرح القرآن الكريم أن المرأة سكن لزوجها . ونبي يفيض بالولد والرحمة . وأن العلاقة بينها تبلغ حد الامتزاج « هنَّ لباس لكم وأنتم لباسهن » .

وأن المقصود ليس إنشاء ذرية مَا يليق بها النوع ! بل إنشاء ذرية صالحة تزيد بها الحياة كما وكيفا . ومن ثم فلا مكان لشذوذ أو عدوان أو فساد .

ولا يجوز أبدا أن يستضعف الرجل امرأته فيرتكب معها ما لا يليق . فعن

عبد الله بن عمرو أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : هِيَ الْمُوْطَبَةُ الْمُصْغَرَى ! « يَعْنِي الرَّجُلُ يَأْتِي امْرَأَتَهُ فِي دِبْرِهِ ». وَعَنْ عُمَرِ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : « اسْتَحْيِوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحِي مِنَ الْحَقِّ وَلَا تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي أَدْبَارِهِنَّ » ! وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : « اسْتَحْيِوْا مِنَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحِي مِنَ الْحَقِّ ! لَا يَخْلُوْ مِنْكُمْ نِسَاءٌ فِي حَشْوَشَهِنَّ » يَعْنِي فِي غَيْرِ الْحَرَثِ .

وَقَدْ قَصَّ عَلَيَّ صَدِيقٌ نَفْقَهَ أَنَّ طَالِبَةَ مَطْلَقَةٍ طَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يَسْتَمِعَ إِلَيْهَا بَعْدَ إِنْتِرْفِيُوْنَ الْمُؤْمِنَاتِ ! قَالَ : كَانَتْ بِادِيَةَ الْغَضْبِ تَبْلُغُ حَدَّ الْهَمِيَاجِ . سَأَلَهُ أَنْ يَسْتَطِعَ أَنْ تَفْسِعَ فِي عَقْدِ الزَّوْجِ شَرْطًا يَصْوِنُ كَرَامَتَهَا ؟ قَالَ : مَا هَذَا الشَّرْطُ ؟ فَسَمَّرَ وِجْهَهَا وَتَهَدَّجَ صُوْتُهَا وَقَالَتْ نَحْنُ بَشَرٌ ! لَسْنَا بِهَمٍ .. وَخَفَّتْ حَدِيثُهَا وَاسْتَحْيَتْ مِنْ إِنْتِهَامِهِ . وَلَكِنَّهُ عَرَفَ أَنَّ الزَّوْجَ الَّذِي طَلَقَهَا أَوْ طَلَقَهُ كَانَ شَاذًا .

فِي عَالَمِ الْبَيَانِ تَكُُرُّهُ الْأَنْثَى - بَعْدَ أَنْ تَحْمِلَ - أَنْ يَتَصَلَّ بِهَا ذَكْرٌ . لَأَنَّ الْمَقصُودُ تَمٌّ وَهُوَ الْحَمْلُ ! .

أَمَّا فِي عَالَمِ الإِنْسَانِ فَالصَّلَةُ أُرْقِي وَأَزْكِي لَأَنَّ التَّوَاصِلَ فِي مَهَادِ الْأُسْرَةِ اسْتِدَامَةً لِلْسُّكُنِ الْمُشَوِّدِ وَالْوُدُّ الْمُتَبَادِلِ .

وَأَرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ الْمُسْلِمُونَ الْحَكْمَةَ الْعُلِيَاَ مِنَ الزَّوْجِ فَيَكُونُ كَلَا الزَّوْجِينَ امْتِدَادًا لِسَعَادَةِ الْآخَرِ وَلَا يَمْذُمُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْأَسْلُوبِ الْمُشَروِّعِ .

وَإِنِّي أَطْلُبُ مِنَ الْزَّوْجَةِ الَّتِي يَشَدُّ زَوْجَهَا أَنْ تَوْعِهُ وَأَنْ تَعْنِهُ ، وَقَدْ جَعَلَ ابْنُ تِيمِيَّةَ ذَلِكَ ذَرِيعَةً إِلَى أَنْ يَحْكُمَ الْفَاضِلُ بِالْطَّلاقِ ..

مِنْ أَجْلِ هَذَا كَلِهِ رَفَضَنَا مَا زَوَاهُ نَافِعٌ غَفَرَ اللَّهُ لَنَا وَلَهُ ، وَإِنْ تَعْصِبَ لَهُ مِنْ لَا يَفْقَهُونَ .

لَقَدْ ابْتَلَى الإِسْلَامُ بِأَعْدَاءٍ يَتَقْصُونَ أَطْرَافَهُ مِنَ الْخَارِجِ ، كَمَا ابْتَلَى بِأَعْدَاءٍ

يشوهون حقائقه من الداخل . ولعل العدو الداخلي أنكى من العدو الخارجي .. ! .

لقد رأيت مرويات كثيرة لا تستحق الحياة ، ومع ذلك فقد ضربت حتى زاحمت على الصدارة ! .

والعنة في هذه الفرضي غفلة أهل الإيمان . واسترسالهم أحياناً مع الظنو .. إن أكذوبة الغرائب لم يضعها مستشرقون وإنما وضعها ناس عندنا فقدوا الوعي والتفوي .. وأكذوبة أن الرسول عشق بنت عمه زينب بعد ما زوجها من زيد بن حارثة !! فربما بلغت الغاية من الغثاثة والسفح ، ومع ذلك وجدت من يرويها ..

ومن قديم وعديم الإسلام النقدة يعمون الحقيقة ويزودون عنها الخرافيين وذوى الأهواء ..

وقد رفضت دون تردد ما فهمه البعض من أن الرسول - عليه الصلة والسلام - قد يغير على الناس دون دعوة . ويأخذهم على غرة ، فلا بدري القتيل لم قتل ؟ ولا يدرى الجريح لم جرح ؟ .

الإسلام بطبيعته دين دعوة . يقوّى للك تعلم وعلم ، اقتنع وأقنع غيرك ، انقل الحق وأعني مناره حتى يستطيع الآخرون السير على شعاعه « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير

والبلاغ يجب أن يكون مينا حتى يتقال الوضوح من صدرك إلى صدر سامعك ، وتكونوا سواسية في الاستبانة والوعي ! .

وهذا ما عنته الآيات « قل : إنما يوحى إلى إنما إلهمكم إله واحد ، فهل أنتم مسلمو .. فإن تولوا فقل آذنكم - أعدمتمكم - عن سوء . وإن أدرى أقرب أم بعيد ما توعدون » .

وقد كان التوحيد - ولا يزال - يشق طريقه بصعوبة . ونُكِّمَ الأفواه

نَصِيحةٍ بِهِ . وَجَنَدهُ الْفَتَّالُ مِنْ أَجْلِ حَقِّهِ فِي الْحَيَاةِ . وَقَدْ أَمَرَ الْمُسْلِمُونَ أَنْ تَكُونُ دُعْوَتِهِ إِلَى الْإِسْلَامِ - قَبْلَ الْاِشْتِبَاكِ - هِيَ آخِرُ مَا يَقْطَعُ الْأَعْذَارَ !

لَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ فَقَائِمَهُمُ الْفَتَّانُونَ . وَهَاهُمْ أُولَاءِ قَبْلَ الْحَرْبِ يَدْعُونَ لِيَسْتَجِيبَ لَهُمْ مِنْ يُؤْثِرُ الْحَقَّ وَالسَّلَامَ . وَالْتَّبَعَةُ بَعْدَ هَذَا عَلَى عَبْدِ الْأَوْثَانِ . وَلَا عَدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ . كَمَا قَالَ الرَّسُولُ الْأَمِينُ . . .

فَهَلْ صَحِحَّ أَنَّ الْمَدْعُوَةَ كَانَتْ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ نُسْخِتَ ؟ كَمَا فَهَمْ نَافِعَ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرَ ؟ .

هَذَا الْفَهْمُ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَلِلْسُنْنَةِ وَلِلْوَاقِعِ الْتَّارِيْخِيِّ .

وَلِنَفِرُّا هَذَا الْحَدِيثُ الْأَنْدَى رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ عَنْ يَرِبِّدَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا أَمِيرًا عَنْ جِيشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْ صَاحِبَةٍ فِي خَاصَّتِهِ يَتَقَوَّلُ اللَّهُ تَعَالَى . وَمِنْ مَعِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا . ثُمَّ قَالَ : اغْزُوْنَا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . فَتَقْتُلُوْنَا مِنْ كُفَّارِ اللَّهِ . اغْزُوْنَا وَلَا تَغْزُلُوْنَا وَلَا تَغْدِرُوْنَا . وَلَا تَمْثُلُوْنَا وَلَا تَقْتُلُوْنَا وَلِيْدَا . »

فَإِذَا تَقْتَلْتُ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثَ حَلَالٍ . فَإِنْ أَجَابُوكُمْ فَاقْبِلُ مِنْهُمْ وَكُفُّ عَنْهُمْ . فَإِنْ كَفُّوا مِنْهُمْ وَكُفُّ عَنْهُمْ . ادْعُهُمْ إِلَى إِسْلَامٍ ! فَإِنْ أَجَابُوكُمْ فَاقْبِلُ مِنْهُمْ وَكُفُّ عَنْهُمْ .

ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحْوِيلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمَهَاجِرَةِ . وَأَخْبِرُهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوْا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا نَلَمْهَا جَرِينَ وَعِبَيْمَ مَا عَيَّبَهُمْ . فَإِنْ أَبْوَا أَنْ يَتَحَوَّلُوْنَا مِنْهَا فَأَخْبِرُهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُوْنَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ جَرِيْعَةِ عَيَّبِهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَعْرِيْعُ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ إِلَى أَنْ قَالَ :

وَإِنْ هُمْ أَبْوَا فَسْلَهُمُ الْجَزِيَّةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكُمْ فَاقْبِلُ مِنْهُمْ وَكُفُّ عَنْهُمْ .. فَإِنْ أَبْوَا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ وَقَاتِلْهُمْ . . .

وَالَّذِي تَلَفَّتَ إِنْظَارُهُ إِلَيْهِ بَادِئُ ذَيْدَى أَنْ هَذَا الْحَدِيثُ قَبْلُ فِي أَوَّلِ الْعَهْدِ النَّبَوِيِّ ! لَأَنْ ذَكْرَ الْجَزِيَّةِ وَرَدَ فِيهِ . وَالْجَزِيَّةُ لَمْ تَعْرِفْ فِي الشَّرِيْعَةِ إِلَّا بَعْدَ نَزْوَلِ

سورة براءة . وهذه السورة نزلت في آخر السنة التاسعة من افجحة ، أى قبل وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم – بعام تقريبا ...

ويعني هذا التحقيق التاريخي أن الدعوة كانت قائمة أول حياة الرسول وآخرها . وأن الرعْم ينسخها لا أصل لها . وأن نافعا غفر الله له جانبه التوفيق في فهمه ! .

بل إن ابن هشام في سيرته كان أولى بالحق عندما ذكر أن بنى المصطلق بلغتهم الدعوة وأنهم – حين بلغتهم – قرروا رفضها . واعتاروا جانبها كي يأخذوا أهليتهم للقتال ! ثم فوجئوا بالغاية التي أجهضت استعدادهم ، وفضلت جموعهم ... على أن الأمر كله بحاجة إلى ايضاح . فقد كان المسلمين بعد تسعه عشر عاما من بدء الدعوة يُعذَّبون خوارج على القانون ! كان المشركون يشتمون من عقيدة التوحيد ، ويطعنون بجميع دعاتها لو استطاعوا ! .

ومع أن عهد الخديبية منحهم اعترافا بوجودهم المادى والأدلى إلا أن هذا العهد سرعان ما خرجت قريش عليه . وعادت جزيرة العرب سيرتها الأولى في التحصب للوثنية وعيدها وحدهم .

إن العرض الذى وضعنا تحت أعين المشركين وهو « لكم دينكم ولى دين » استبعد وتنوسى وأمسى المسلمين أحرق أهل الأرض للدفاع عن أنفسهم وإقامة دولة تحمى عقائدهم وشرائعهم . وترجم الوثنية على احترام الحرية الدينية ...

وأقول : ما أشبه الليلة بالبارحة إنة محظوظ علينا أن نحيا بالإسلام كما نريد . ولأنك هذا الشجن لأذكر أثرا آخر يعرف منه القراء خلق رسول الله . ومبلي حرصه على حقن الدماء . ورفضه الشريف لقصة « الغارة بلا إنذار » التي توصلها بعض الرواة ! .

روى أبو داود عن الحارث بن مسلم عن أبيه قال : بعثنا رسول الله في سرية ، فلما بلغنا المغار – مكان المعركة – استحيثت فرسى ، فسبقت أصحابي .

فتتلقى أهل الحق بالرنين ! فقلت لهم : قولوا لا إله إلا الله تحرزوا . فقلوا لها !
فلامنني أصحابي وقالوا حرمتنا الغيمة (٤٠) ...

فلا قدمنا على رسول الله أخبروه بالذى صنعت فدعاني . فحسن لي ما
صنعت ! ثم قال لي : أما إن الله تعالى قد كتب لك بكل إنسان منهم كذا وكذا
من الأجر ..

وقال : أما إنني سأكتب لك بالوصاية بعدي . ففعل . وختم عليه . ودفعه
إليه !! .

إن محمدا - عليه الصلاة والسلام - أشرف من أن يأخذ الناس على غرة .
وعلى الذين يقرؤون الأحاديث أن يتفقها . وأن يدرسوا الملابسات والتواريخ
والاحوال . وقد قلت ومازالت أقول لا سنته بلا فقه ...

إننا مع تدبر القرآن نعرف أسلوب الدعوة في العرض والإقناع . ومع دراسة
التاريخ نعرف أن الوثنين كابرلوا الحق لآخر رقم . وأن الوثنية إلى آخر قادتها
مسلمة احتقرت البرهان ! واعتسعت الطريق . فلم يكن من السيف بد . ولنسنا
نخن الذين نخنل الدنيا أو نستبع الناس .

فقهاء السيرة والتاريخ والأخلاق يعلمون أن الدعوة إلى الإسلام فريضة لا
يقدر أحد على الغائها . وأن هذه الدعوة عامة لا ينعدُها زمان ولا مكان وأنها -
تتأكد - قبل تشبُّث الحرب خاصة - .

وقد شرحنا في كتبنا الأخرى أسباب القتال ، وأنها كما تكون دفاعا عن
الحقائق والحقوق تكون تأمينا لمسار الدعوة من الفتنين والمعوينين ..

أى أن أعرض ماعندي على الناس بأدب وتلطف ، فإذا قال لي أحد :
أنصرف عنى ، لا أحب أن أسمعك ، ولستُ لك عدوا ولا صديقا ، اذهب إلى

(٤٠) طلاب الغيبة لا يعلمونه عصر وفيه برب قوله تعالى : « إدصرني في سين الله فليسوا ولا نقولوا
لمن ألق إلينكم السلام لست مؤمنا بشعون عرض الحياة الدنيا » .

غيري ولا شأن لي بما تصنع معه أو بما يصنع معك . !

فإنني وأخالة هذه أتركه غير مفكر في الحق أذى به . منفذا قوله تعالى :

« فإن اعتزلوكم فلم يقانلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا »

هل الرومان الذين احتلوا مصر والشام وساقوا جيوشهم إلى الحجاز من هذا القبيل ؟ لا ، إنهم دخلوا بلادنا غزاة وأقاموا بها معتدين .

وكانوا بأقوالهم وأعماهم وأحوالهم مصادر ضياع وفتنة . وما بدأ من تحريز الأرض منهم وإعادتهم من حيث جاءوا .

وترى الشعوب بعد ذلك حرة تعنق الإسلام إذا شاءت أو تتركه مع المشاركة في أعباء الدفاع العسكري عن الأرض التي كانت مستعمرة ثم حررها الإسلام

هل الفرس أحسن حالا من الرومان ؟ كلا إن كسرى أصدر أمرا بالقصاص على محمد بعد ما مرق رسالته . وكان جبده يختلون العراق . وموقه حاسم في رفضه المدعوة والندعوة . فما يجوز تركه ! تلث هى هي الأسباب الأولى للفتوح .

وقد حرص الخدء والأمراء وقادة الجند ألا يشتبكوا في حرب إلا بعد دعوة متأتية واضحة مفصلة . وهات هذه الواقع من « حياة الصحابة » التي يجهلها للاسف بعض أدعية المسفيفة . من صدقوا أن الرسون يأخذ الناس على غرة ؟ أو أن المدعوة كانت ثم أُفْيَتْ . كما توهם نافع موظ ابن عمر ..

جاء في كتاب « حياة الصحابة » تحت عنوان . دعوة الصحابة إلى الله ورسوله في القتال على عهد أبي بكر . ووصية أبي بكر الأمراء بذلك .

أخرج البيهقي (ج ٩ ص ٨٥) وابن عساكر عن سعيد بن المسيب أن أبي بكر رضي الله عنه لما بعث الجنود إلى الشام أمر بزيد بن أبي سفيان . وعمرو بن العاص . وشرحبيل بن حسنة . وما ركبا مشي أبو بكر مع أمراء حنوده بودعهم حتى بني ثنية انوداع فقالوا : يا خليفة رسول الله ! تخشى ونحن ركبان . فقال : إن احتسبت خطاي هذه في سبيل الله .

ثُمَّ جعل يوصيهم . فقال : أوصيكم بتفوى الله . أعزوا في سبيل الله .
فقاتلوا من كفر بالله فإن الله ناصر دينه . ولا تُغْلُبُوا . ولا تغدروا ولا تخربوا ، ولا
تفسدوا في الأرض . ولا تعصوا ماتُؤمِّرون .

فإذا لقيتم العدو من المشركيـن - إن شاء الله - فادعوهـم إلى ثلـاث . فإنـ هـم
أجـابـوكـم فـاقـبـلـوا مـنـهـمـ وـكـفـوا عـنـهـ .

ادعـوهـمـ إـلـىـ الإـسـلـامـ فإنـ هـمـ أـجـابـوكـمـ فـاقـبـلـوا مـنـهـمـ وـكـفـوا عـنـهـ .

ثُمَّ ادعـوهـمـ إـلـىـ التـحـولـ مـنـ دـارـهـمـ إـلـىـ دـارـ الـمـهـاجـرـينـ . فإنـ هـمـ فـعـلـوا
فـأـخـبـرـوهـمـ أـنـ هـمـ مـثـالـ مـاـ لـمـهـاجـرـينـ . وـعـلـيـهـمـ مـاعـلـىـ الـمـهـاجـرـينـ .

إـنـ هـمـ دـخـنـوا فـيـ الإـسـلـامـ وـاخـتـارـوا دـارـهـمـ عـلـىـ دـارـ الـمـهـاجـرـينـ فـأـخـبـرـوهـمـ
أـنـهـمـ كـأـعـرـابـ الـمـسـلـمـينـ يـخـرـجـيـهـمـ حـكـمـ اللهـ الـذـيـ فـرـضـ عـلـىـ الـمـؤـمـنـينـ وـلـيـسـ هـمـ
فـالـفـيـءـ وـالـغـنـامـ شـيـءـ حـقـ يـعـاـدـهـوـاـ مـعـ الـمـسـلـمـينـ .

فـإـنـ هـمـ أـبـواـ أـنـ يـدـخـلـواـ فـيـ الإـسـلـامـ فـادـعـوهـمـ إـلـىـ الـجـزـيـةـ . فإنـ هـمـ فـعـلـواـ
فـاقـبـلـواـ مـنـهـمـ وـكـفـواـ عـنـهـمـ إـنـ هـمـ أـبـواـ فـاسـتـعـيـنـواـ بـالـلـهـ عـلـيـهـمـ فـقـاتـلـواـ إـنـ شـاءـ اللهـ .

وـلـأـتـعـرـقـ تـحـلـاـ وـلـأـخـرـقـ بـاـ وـلـأـتـعـنـرـواـ الـهـيـمـةـ وـلـأـشـجـرـ ثـمـ . وـلـأـتـهـدـمـواـ بـيـعـةـ
وـلـأـتـقـتـلـواـ الـوـلـدـانـ وـلـأـشـيـوخـ وـلـأـنـسـاءـ . وـسـتـجـدـونـ أـقـوـامـ جـبـواـ أـنـفـسـهـمـ فـيـ
الـصـوـامـعـ فـدـعـوهـمـ وـمـاـجـبـواـ أـنـفـسـهـمـ لـهـ .

وـفـيـ عـهـدـ عـمـرـ بـنـ الـخـطـابـ أـنـ فـحـ قـارـسـ جـاءـتـ هـذـهـ القـصـةـ تـحـتـ عـنـوانـ :
دـعـوـةـ سـلـانـ الـفـارـسـيـ يـوـمـ الـقـصـرـ الـأـيـضـ ثـلـاثـةـ أـيـامـ .

وـأـخـرـجـ أـبـوـ نـعـيمـ فـيـ الـحـلـيـةـ (ـجـ 1 صـ 189ـ) عـنـ أـبـيـ الـتـبـخـرـىـ أـنـ جـيـشـ مـنـ
جـيـوشـ الـمـسـلـمـينـ كـانـ أـمـيـرـهـ سـلـانـ الـفـارـسـيـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ فـحـاـصـرـواـ قـصـرـاـ مـنـ
قـصـورـ قـارـسـ فـقـاتـلـواـ : يـاـ أـبـاـ عـبـدـ اللـهـ ! أـلـاـ نـهـدـيـهـمـ ؟ قـالـ : دـعـوـتـ لـأـدـعـوهـمـ كـمـ
سـمـعـتـ رـسـولـ اللـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ يـدـعـوهـمـ .

فـقـالـ هـمـ : أـنـاـ رـحـلـ مـكـهـ فـارـسـيـ . أـنـرـونـ الـعـربـ نـطـيـعـيـ فـيـنـ أـسـلـمـ .

فلكم مثل الذى لنا وعليكم مثل الذى علينا ، وإن أبيتم إلا دينكم تركناكم عليه واعطينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون . قال : ورَأَنَّ إِلَيْهِمْ بِالْفَارَسِيَّةِ وَأَنْتُمْ غَيْرُ مُحَمَّدِينَ .

وإن أبيتم نابذناكم على سواء . فقالوا : مانحن بالذى نؤمن ! وما نحن بالذى نعطي الجزية ! ولكننا نقاتلكم !

قالوا : يا أبا عبد الله ! ألا تنهى إليهم ؟ قال : لا ، فدعهم ثلاثة أيام إلى مثل هذا . ثم قال : انهدوا إليهم فنهدوا إليهم . قال : ففتحوا ذلك الحصن . وأخرجه أيضاً أحمد في مسنده ، والحاكم في المستدرك كما في نصب الرأبة (ج ٣ ص ٣٧٨) بمعناه . وفيه : فلما كان في اليوم الرابع أمر الناس فغدوا إليها ففتحوها . وأخرجه ابن أبي شيبة كما في الكتز (ج ٢ ص ٢٩٨) . وأخرجه أيضاً ابن حجر (ج ٤ ص ١٧٣) عن أبي الت婢 قال : كان رائد المسلمين سليمان الفارسي ، وكان المسلمين قد جعلوه داعية أهل فارس . قال عطيه : وقد كانوا أمروه بدعاء أهل بهر سير وأمروه يوم القصر الأبيض فدعاهم ثلاثة - فذكر الحديث في دعوة سليمان رضي الله عنه بمعناه .

هذا . والروايات في الدعوة إلى الإسلام قبل القتال مستفيضة أيام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأيام الصحابة رضي الله عنهم .

وغلة نافع غفر الله لنا وله عن هذه الحقيقة لعلها كبوة الجواب .

واللام كله على من يتعصبون لخطئه ، وبخاصمون الصواب بعد ماتبين .. ولا أدرى لحساب من ؟ ينشر بعض الجاهلين أن سيد الدعوة يأخذ الناس على غرة من غير دعوة ولا بلاغ . وأن الدعوة كانت في مرحلة موقفه ثم اختفت ^{٩٩}

مايلغ الأعداء من جاهل مايلغ الجاهل من نفسه .. !

الكلمات الصادقة المصيبة تبع من سرائر هادبة زاكية ، وهي تُلتمس أول ماتلتمس في تراث الأنبياء ، ولم يبق موضع الثقة من هذا التراث الغالي إلا مخالفه لنا محمد عليه الصلاة والسلام في كتابه وسته ..

أما هذا القرآن فقد أعني الإنس والجن أن يحيطوا بمثله ، ومنذ نزل إلى يوم الناس هذا ، إلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات . وهو محفوظ بحفظ الله لارق إليه ريبة . ولا يتوجه فيه تحريف ، ولا يستغنى طلاب الحق عن آياته البينات ...

وأما السنة فأوجز ما يقال فيها أنها « تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم » وقد أوقى محمد جوامع الكلم ، وانسابت هداياته من ينبع جياش بالرشد حافل بالخير ، وسبحان من أبدع حمدا !! إنه الإنسان الفذ الذي صان الإيمان مادة ومعنى ، وعاش به سيرة ودعوة ، وأقام على دعائمه مجتمعا ودولة . وأنشأ باسمه حضارة ترنو إليها المشارق والمغارب . ويرهب بأسها المعتدون والفوضويون ..

والثقافة الإسلامية قامت على الكتاب والسنة معا ، وقد يشتت الشياطين من تحريف الكتاب ، فحاولت النيل من السنة ولكن العلماء النقاد صدوا هذا الهجوم ، ومضوا بقافلة الإسلام مبنية الجانب على حين طاشت رسالات ، وحالات رسوم .. !

ولأنزال - بفضل الله - نحرس الإسلام ، ولن تخلو الأرض من قائم لله بمحجة ...

ولا أعرف أحدا من علماء الإسلام هُون من مكانة السنة النبوية ، ولا أجاز أن يقول رسول الله كلمة وبغضها هو على خلافها ، بل ذلك طريق الكفر ..

وما قد يقع بين العلماء من شجار في القضايا المفرعية أساسه : أقال رسول الله هذا الحديث أم لا .. ?

قد تقول : فقد رسا علم المصطلح ، وأنصحت منه أنس القبول والرد بشئ المرويات .

ونقول : صدقت وذلك ما زيد تعليمه لغير ! ..

إننا نلتزم بما وضعه أئمتنا الأولون ، ولا نفكّر في البعد عنه ، كل ما فتنا النظر إليه أن الشذوذ والعلل في متون الأحاديث يتدخل فيها الفقهاء إلى جانب الحفاظ ، وقد تدخلوا فعلاً في الماضي ، وجداً في عصرنا ما يستدعي المزيد من البحث والاستقصاء ..

وأعرف أن البعض يوجس خيفة من هذا القول ولكن تجاري في ميدان الدعوة يجعلني أزيد الأمر تفصيلاً .

في أيام الهزائم الإسلامية التي تعانيها ، والتي أصبت بالإسلام ما شاء أعداؤه من نفائس ، سمعت خطيباً يروي هذا الحديث : « لا يسأل الرجل : فيم ضرب امرأته ؟ »

قلت له : إن ديننا متهم بأنه ضد حقوق الإنسان ، ضد كرامة المرأة خاصة ! فما حملتك على إيراد حديث يفيد أن الرجل يضرب امرأته كيف يشاء لا يسأل عما يفعل ! وأنت تعلم أن هذا المعنى مرفوض في الكتاب والسنة جمِيعاً .

قال : إنني رویت حديثاً صحيحاً ، قلت له : ألا تحفظ حديث مسلم في صحيحه « لِتَؤَدِّيَنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَفَادَ لِلشَّاهِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاهِ الْقَرْنَاءِ » أفتكون الزوجة المضروبة أهون على الله من نعجة منطوبة ظليماً ؟

قال : النساء منذ حواء إلى اليوم يستحقن الحذر والتأديب ، وقد جاء في الحديث : « لولا حواء لم تخنْ أثني زوجها الدهر » ! فقلت له : ما خانت حواء آدم ، ولا أغرته بالأكل من الشجرة ، هذا من أكاذيب التوراة ! .

والقرآن صريح وحاكم في أن آدم هو الذي عصى ربّه ! ولكنكم دون

مستوى القرآن الكريم ، وتنقلون من المرويات ما يقف عقبة أمام سير الدعوة الإسلامية !.

لماذا لا يسأل الرجل : فيم ضرب امرأته ؟ أُرْبَى بناتنا ليذهبن إلى فحل يلطمهن أو يُؤذين دون مساملة في الدنيا والآخرة ؟.

بأى منطق تتكلمون ؟ « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » « من يعمل سوءاً يُحْرَزَ به ولا يجد له من دون الله ولا نصيرا » .

ذاك في الآخرة ، ومن حق المرأة في الدنيا أن تشكو مانزل بها إلى أهلها ، أو الحكم الذي يُمثلها أو القاضي الذي يجب أن يسائل زوجها ! .

ولها بعدئذ أن تطلب الخلع أو تطلب التطبيق للضرر ..
إنك أيها المتحدث باسم الإسلام تفتن الناس عنه بهذه الأحاديث .

وهاكم موقفا آخر من واعظ يحب الحكايات ويستضئ الناس بما تحوى من عجائب !.

قال : إن الدجال موجود الآن في إحدى الجزر ببحر الشام أو بحر ابن ، مشدود الوثاق ، وقد رأه تميم الداري بعد ماغرقت السفينة التي كان يركبها هو وصحابه ، وتحادثوا معه ، وهو موشك على الخروج ! .

وقد حدثت بذلك فاطمة بنت قيس في سياق طويل ! .

قال لي طالب يسمع الدرس : هل يمكن أن نذهب في رحلة إلى هذه الجزيرة لنرى الدجال ؟ قلت له : وماذا تفعل برأوينه ؟ الدجالون كثيرون ، وإذا تخصّنت بالحق نجوت منهم ومن كبارهم عندما يخرج ! .

قال : ألم يزد أحد هذه الجزيرة بعد تميم الداري ؟ فافتت السكوت ، وصرفت الطالب عن الموضوع بلباقة ..

إن أساطيل الرومان والعرب والترك والصليبيين تجوب البحرين الأبيض والأحمر من بضعة عشر قرنا ولم تر هذه الجزيرة .

وفي عصراً هذا طرق كل شبر في البر والبحر ، والقطن تصور لأعماق المحيطات عن طريق الأفار الصناعية ! فـأين تقع هذه الجزيرة ؟ .

وأخيراً تذكرت كلمة عمر بن الخطاب وهو يردُّ حديث فاطمة بنت قيس في نفقة المطلقة ثلاثة ، قال : لاندع كتاب ربنا وسنة نبينا لحديث امرأة لأندرى حفظت أم نسيت ؟ .. قلت : ونحن لا نُعرض كتاب ربنا وسنة نبينا للتكميل من أجل حديث السيدة نفسها ، في قضية أخرى ! .

يجب أن تسير قافلة الكتاب والسنة دون عائق ! .

وثم أمر آخر ، لقد ثبت على وجه اليقين أن الجنين يتكون من حيوان منوي وحيد يخترق بُيُّضنة - بويضة - المرأة ، هذا الحيوان الفدّ يسبّق مئات الملايين من أمثاله تسبّح في الماء الدافق .

وعندما يصل تبدأ المرحلة الأولى من الحياة الإنسانية .

وهو الذي تنشأ عنه الذكورة والأنوثة ، فليس ماء المرأة دخل في هذا بل قال العلماء ، إن البطل الذي يربط الرحم عند الواقع لا يسمى ماء إلا بمحارا ولا دخل له في التكوين .

وقد التقطت صور للحيوان المنوي الذي ينشي الذكورة ، وللآخر الذي ينشي الأنوثة ، كما أمكن في الأنابيب الجمع بين الحيوان المنوي والبُيُّضنة .

والمعروف أن القرآن الكريم سبق إلى تقرير هذه الحقيقة في قوله تعالى : «وَانَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَيْ مِنْ نَطْفَةٍ إِذَا تَنْفَى» .

واليقين الثابت بالعلم وبالوحى لا يجوز أن يتقدم عليه ظنٌ علمي يرويه حديث آحاد ، يزعم فيه الراوى أن الأنوثة تنشأ من علو ماء الأنثى على ماء الرجل ! ! .

إن حديث الآحاد يتأنّر حتّى أمام النص القرائي والحقيقة العلمية والواقع التاريخي ، أو يتأنّر كما يقول المالكيون أمام عمل أهل المدينة ، وأمام القياس القطعي كما يقول الأحناف .

ذلك ما هدّي به ، فإن كان حقاً فلن الله ، وإن كان خطأً فلن واستغفر الله أولاً وأخراً .